الإسلام في عشرين آية

دكتور حسين مؤنس



الإسلام في عشرين آية

الناشـــــــر : **دار الرشــاد**
العنـــــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــــون: ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٧٢٤٨ / ١٩٩٣
الترقيم الدولى : 8 - 60 - 5324 - 977
الطبــــــــع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــــون: ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــــع : **أرص الكمبيوتر**
العنـــــــوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف بجلس الأمة
تليفـــــــون: ٧٩٦٤٤٠٤
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م
الطبعة الثانية : ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م
الطبعة الثالثة : ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م
الطبعة الرابعة : ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٦ م
غـــــــلاف : **عربية للطباعة والنشر**

تقديم

هذا أسلوب جديد فى فهم الإسلام أقدمه للقارىء ، فقد رأيت أننا نكتب كثيراً جداً عن الإسلام ، ولكن كتابتنا التقليدية مملة ، والكثير منها لا يعتمد الاعتماد الكافى على القرآن الكريم ، فاخترت عشرين آية من القرآن وفصلت الكلام عنها ، واجتهدت فى أن أجعل فى كلامى خصائص هذا الدين العظيم ، وسترى أننى أبسط لك من جمال الإسلام ، وأؤيد ما أقول بالآيات القرآنية فيكون لكلامى فيما أرجو طعم جديد ، وصورة أدبية فنية ممتازة ، وأرجو أن أوفق إلى كسب رضى القارىء عن هذا الأسلوب الجديد .

د . حسين مؤنس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذ قال ربُّكَ للملاَئكةِ إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالُـوَا : أتجْعَلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ويسفك الـدِّمَاءَ ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لـك قال إنى أعلم مالا تعلمـون .وعلم آدم الأسماء كلهـا ، ثم عَـرضَهُمْ على الملائكــة فقـال أنبئـونى بأسماء هــؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحـانك لاَ علم لَنَّا إلا ما عَلَّمْتَنَا إنك أنت العليم الحكيم . قـال يـاآدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السَّمَوَاتِ والأرض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون .

وإذ قلنا للملاَئكةِ اسْجُدُوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[البقرة : الآيات ٣٠ـ٣٤]

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيّه والمبلغ إلى الناس بلفظه وحرفه ، لأنه منهاج الله الذى رسمه للبشر ، وأمرهم أن يتبعوه . وكل آية من آيات الكتاب المبين تحمل جانباً من المنهج ، وترسم للبشر قطعة من الصراط المستقيم ، وتبين لهم شيئا من مرادات الله من خلقه ، وفى أثناء قراءاتى لكتاب الله و إنصاتى إليه يوماً بعد يوم دونت الكثير من الآيات التى لا يتبين لنا كل ماتتضمنه من التشريع والحكمة إلا إذا قرأناها مرة بعد أخرى ، وتدبرناها حيناً بعد حين ، وأنا هنا أختار من هذه التدوينات ماأحسست أنها وماسبقها وتلاها وتغلق به معناها من آيات الذكر الحكيم ، تجمع الأساس الذى لابد من معرفته من عقيدة الإسلام وشريعته وقانونه الأخلاقى ، وأنا أسوقها فى هذا الكلام على حذر منى وخوف ، لأن من بين قرائى دون شك من هو أعلم منى بكتاب الله وعلومه ، ولهذا فإننى أرجو هذه الجماعة الكريمة من العلماء ألا يبخلوا على بالتوجيه والتصويب ونصيحة المسلم للمسلم التى جعلها رسولنا الأكرم صدقة .

الوقت ساعة الغروب ، ونحن على ضفة النيل جنوب القاهرة ، أحسست أنى على حافة الأبد . تركت صحبى خلفى ومضيت فى قارب صغير ، لأننى أحسست أننى أريد أن أكون وحدى ساعة المعجزة الكبرى التى تتكرر يوماً بعد يوم ، وتشغلنا عنها زحمة الحياة ، فتمر بنا دون أن ننتبه إلى روعة الإعجاز فيها ، عندما يولج الله الليل فى النهار ، هنا يتسع النيل حتى يصير بحراً . وأدع المجداف ويقف بى القارب وسط النهر الكبير ، ولا أعود أسمع إلا حفيف الماء الجارى .

أحسست بالصمت الرهيب ، لأنه بدا لى أن مياه النيل آن لها أن تسكن لتسترد أنفاسها بعد جرى النهار .

الظلام الآن يهبط ، ولا أعود أرى إلا أطراف أعواد نبات أخرجت رؤوسها فوق الماء طلباً للنسيم . صفحة الماء الصافية كأنها مرآة ، والسكون من حولى شامل ، أضواء الضفة الأخرى تختفى ، وفى صفحة الماء أرى نجوم السماء تطلع واحدة ثم اثنتان ثم عشر . وأرفع رأسى فإذا قبة السماء تتلألأ بالآلاف بعد آلاف من النجوم ، من بعيد أسمع صوت صرار الليل ، لقد نامت البرية وآن له أن يصحو ، فإن نهاره هو الليل ، وهذه دورة الحياة : مخلوقات تنام ومخلوقات تصحو ، والكون لا ينام أبداً، لقد صحا الصرار لأنه اطمأن على نفسه ، فقد نام أعداؤه ، وهذا هو ينادى وليفته ، وهاهى ذى تجيب ، هكذا تتم دورة الحياة كما أراد لها علام الغيوب أن تكون .

الليل الآن شامل والكون لا تضيئه إلا النجوم ، ملايين من العيون تنظر إلينا من بعيد ، هذه شموس ونجوم ومجرات لا يعلم بها إلا بارئها سبحانه ، عوالم تصغر إلى جانبها أرضنا هذه بكل مافيها ومن فيها . .

فى صمت الليل أسمع وجيب قلبى يقول : هذه أيها الغافل دنيا الله ، إنك الآن ترى جمالها فى أبهى صوره ، لأنك تحسها بقلبك ، ونبضات قلبك هذه تسبيحات للخالق ، تلك هى سماوات الله العلا ، أنشأها على هذا النمط الفريد ، ونجومها تترامى إلى آفاق يصعب عليك تصورها ، لأن عقلك الكليل عاجز عن أن يحيط بها ، الآن تدرك معنى قول خالقك جل وعلا فى سورة البقرة : (٢/ ٢٥٥) آية الكرسى : ﴿ **الله لَا إلـه إلاَّ هُو الحَيُّ القَيومُ لَا تَأخُذُه سِنَةٌ وَلَا نَومٌ لَه مَافى السماوَات وَمَافى الأرض مَن ذَا الّذى يَشفَعُ عندهُ إلاَّ بإذنه يَعلَمُ مَابَينَ أيديهم وَمَا خَلفَهُم وَلَا يحيطونَ بشَىء مَن علمه إلاَّ بما شَاءَ وَسِعَ كُرسيهُ السمَاوات وَالأرضَ وَلَا يئودُهُ حفظُهما وَهُو العَلىُّ العَظيمُ** ﴾ .

أجل هـذا هـو عالم الله ، وأنت فيـه لا شيء ، عـوالم بعـد عوالم ، خلقهـا الله وصورهـا فى صور شتى لحكمة لايعلمهـا سواه ، أرأيت إلى رؤوس النبـات هذه التى ترف من حـولك ؟ إنها وحدها عـالم شاسع فياض بـالحياة والحركة ، وهى ثـابتة فى مكانها ، إنه عالم النبـات والشجر والزهر والثمر ، وهذا الصرار الـذى تسمع صوته من بعيد ، إنه عالم آخر ، عالم المخلـوقات الدقيقة الضـعيفة التى أودع الله فيها من الحيوية والقدرة على مغالبة الفناء مايفوق قوة الفيل الهائل ، وسيأتى يوم لا تكون فيه الفيلة إلا فى حدائق الحيوان ، أما هـذه الحشرات الضعيفة فهى فى زيادة ولا يغلبها من مخلوقات الله غـالب ، والعلماء يقولون إنه سيجىء يوم لا يبقى فيـه مما يدب على سطح الأرض إلا هذه الحشرات ، وأنت أيها الإنسـان الضئيل تشكو منها وتسعى فى إبادتها ، وهى أقوى منـك وستعيش بعدك لحكمة لا تدركها أنـت ، لقد خلقها الله كما برأ هذه المصابيح التى تزين السماء ، خلقها كما فطرك أنت ، كلكم عوالم أنشأها صاحبهـا ، ولكم فى خلقها حكمة وعظـات . واســتمع إلى قول الحق سبحـانه فى سورة قّ :

﴿ أفَلَم يَنظُـروا إلى السَّماء فَوْقَهُمْ كَيْـفَ بَنَيْنَاهـا وَزَيَّنَّـاهَا وَمَـالَها مِن فروجٍ . والأَرْضَ مَددْنَاهَا وَأَلْقَيْنَـا فيهَا رَواسى . وَأنبَتْنَـا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بهيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَـا مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً مُبَارَكـا . فَأنبتنا بِهِ جَنَّـاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْـعٌ نَضِيد . رِزْقاً لِلعبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ . [الآيات : ٦ ـ ١١].

صدقت يابارىء الكون ، هذا هـو قرآنك وذلك هو كونك ، والاثنان صنوان تلك هى دنياك ودنيـانا وهذه هى حكمتك نـراها فى خلقك ، ونقرؤهـا فى كتابك ، والاثنتان فى قلبى تلتقيـان .

وأنت ـ جللت . وعززت ـ القائل فى سورتك . . سورة الرحمن :

﴿ والأرضَ وَضعهَا للأنام . فيها فاكهةٌ والنَّخلُ ذاتُ الأكمَام . والحبُّ ذُو العَصفِ وَالرَّيحانُ . فبأىّ آلاءِ ربكُما تُكذبانِ ﴾ .

[الآيات ١٠ ـ ١٣] .

ما أروع كلامك وما أبدع صنعك ، فى كل معجزة من خلقك أحس معجزة القرآن . وفى كل كلمة من قرآنك أرى كونك هذا البديع .

وماأعجب قرآنك !

إنه كتاب واحد ، ولكنه لمن تدبر إعجازه ألوف بعد ألوف ـ إلى منقطع النفس ـ من الكتب ، وأنت تتحدث فيه حديثاً عجباً .

فأنت تارة متحدث فيه بذاتك الجليلة وكلماتك تتردد فى كيانى كله وأنت تخاطب نبيك موسى عليه السلام فى سورة طه :

﴿ إنى أنَا ربُّكَ فَاخلَعْ نَعلَيكَ إنَك بالوَاد المُقدَسِ طُوى . وَأنَا اختَرتُك فَاستَمِع لما يوحَى . إننىَ أنا اللهُ لاَ إله إلا أنَا فَاعبدنى وأقِمِ الصَّلاةَ لذِكرِى إن السَاعةَ آتيةٌ أكَادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كل نفس بِماَ تسْعَى ﴾ .

[الآيات : ١٢ ـ ١٥]

وأنت تارة تتحدث عن نفسك بضمير الغائب :

﴿ وَهُو القَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ وهُو الحَكِيمُ الخَبِيُر ﴾. [الأنعام ٦/ ١٨]

وأحياناً أخرى تتحدث عن أنعمك علينا بضمير الجماعة :

﴿ أهُمْ يَقسمون رحمةَ ربكَ نَحنُ قَسمنَا بَينهُم مَعِيشتَهُم فى الحياةِ الدُنيا ورَفَعنا بَعضهم فوقَ بعضٍ دَرجَاتٍ لِيتخِذَ بَعضُهُم بَعضاً سُخرِياً وَرَحمة ربِك خيرٌ مِما يَجمعُون ﴾ . [الزخرف ٤٣/ ٣٢] .

وأحياناً تأمر نبيك أن يبلغنا حكمتك :

﴿ قُل يَاعبادِيَ الـذِين أَسرفُوا عَلى أنفُسِهم لاَ تَقنطُوا مِن رَحمةِ الله إن الله يَغفر الذنُوب جمِيعاً . إنه هُو الغَفُورُ الرحِيم ﴾ . [الزمر ٣٩/ ٥٣] .

وهنا فى مجال أمر الرسول بأن يبلغ عن الله يجمع الله من آيات حكمته وتشريعه وهداه مالم يجعله فى مجال آخر ، لأن فى ذلك تكريماً للرسول وطبيعة رسالته ، والرسول ﷺ بشر رفعه الله إلى مرتبة النبوة ثم مرتبة الرسالة ، وفى ذلك - من طرف آخر - تكريم للبشر لأنه يعنى أن المخلوق البشرى قادر - إذا شاء الله - أن يرتفع بنفسه عن مستوى البشرية فيكون أهلاً لأن يتلقى كلمات الله ويبلغها لإخوانه فى البشرية . وهذه مرتبة لم يرفع الله إليها شيئاً من مخلوقاته إلا الإنسان ، وهذه ميزة من ميزات الإسلام ، فإن حامل رسالته إلى الناس إنسان من البشر ، اختاره الله وهيأه - فى حدود إنسانيته دون غيرها ، ليصل إلى مستوى رسل الله ، فى حين أن غيره من الأنبياء حملة الرسالات كان لابد أن يعينهم الله بقوة خارجة عن قوة البشر ، لكى يستطيعوا أداء رسالتهم ، وفى العادة يمنح الله الرسول جانباً من قدرته ليأتى بمعجزة يثبت للناس بها أنه حقاً مختار من الله لحمل رسالته إلى الناس ، كما ترى فى حالات إبراهيم وموسى وعيسى ، ومن أبلغ أمثلة هذا فى القرآن الكريم مثال إبراهيم عليه السلام الذى سأل الله سبحانه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فأراه الله كيف يحيى الموتى ، بل أراه كيف يعطيه جانباً من قدرته فيحيى هو الموتى بنفسه بأمر الله سبحانه :

﴿ وإذْ قالَ إبراهيمُ رَبِ أرنى كَيفَ تحيي الموتَى قَال أَو لم تُؤْمِن قَال بَلى ولكِن ليطمئِنَ قلبي قَال فَخُذ أربعةً مِن الطَير فصرهُنَّ إليك . ثُم اجعل عَلى كُل جَبلٍ مِنهُن جُـزءًا . ثُم ادعُهُـن يَاتِينك سَعيـاً وَاعلم أن الله عـزِيـزٌ حَكِيمٌ ﴾ . [البقرة : ٢/ ٢٦٠] .

وكذلك عيسى بن مريم احتاج إلى مدد غير بشرى من الله سبحانه ليؤكد للناس أنه نبى مرسل من عند الله :

﴿ ورسُولاً إلى بنى إسرائيلِ أني قد جِئتُكُم بـآيةٍ مِن ربكُم أنِي أخلُقُ لَكُم مِن الطِينِ كَهيئةِ الطيرِ فأَنفُخ فِيهِ فيكون طَيراً بإذن الله وأُبرِئُ الأكمه والأبرصَ وأُحيي الموتَى بإذنِ الله . وأُنبئُكُم بِما تأكلُون وماتـدخِرون في بُيُوتكُم إن في ذلِك لآيَة لكُم إن كُنتم مُؤمِنين ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٤٩] .

قارن بذلك مقال رسول الله محمد صلوات الله عليه الذى هيأه الله لإقناع الناس ببشريته وحدها ، أنه رسول الله الصادق فيما يبلغ عن الله ، مع تحدى المشركين إياه وإسرافهم فى هذا التحدى :

﴿ وقالُوا لَن نُؤمن لَكَ حتى تفجُر لَنا مِن الأرضِ ينبُوعاً . أو تكُون لك جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتُفجر الأنهارَ خِلالها تفجيراً . أو تُسقِط السَماء كَما زَعَمت علينا كسفـا أو تأتِى باللهِ والملائكةِ قبيلاً . أو يكُون لك بيتٌ من زُخرُف أو ترقـى فى السماءِ ولن نؤمِن لرُقيك حتى تُنزِل علينَـا كِتاباً نقرؤهُ. قل سُبحان ربِى هل كُنتُ إلا بشراً رسُولاً ﴾ .

[الإسراء ١٧ : ٩٠/ ٩٣] .

ذلك لأن معجزة محمد الكبرى هى القرآن الكريم ، فإن القرآن يحمل فى ذاته برهان صدقه وآلاء قوته وبراهين صدوره عن الله سبحانه ، إذ لا يتأتى صدوره عن غير الله ، لا من ناحية إعجاز أسلوبه وعجائب بلاغته وبيانه وروعة إنشائه وبنيانه فحسب ، بل لأن آياته تحمل فى ذاتها براهين صدقه ، حتى إذا قرأها غير العربى الذى لا يقتدر على الاحساس ببلاغتها آمن بها إذا أراد الله له

المدى ، واقرأ الآيات التالية لترى كيف أن آيات القرآن تحمل دلائل صدقها فى كلماتها :

﴿ ولَو أننا نَزلنا إليهم الملائكة وكلَّمَهمُ الموتى وحشرنا عليهِم كُل شيء قُبُلاً ماكانُوا ليُؤمنوا إلا أن يشاءَ الله . ولكِن أكثرهُم يَجهلون . وكذلك جَعلْنا لكل نبيٍ عدواً شياطِين الإنس والجِن يُوحى بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرف القول غروراً . ولو شاءَ ربُك مافعلوُه فذرهُم ومايفترون ﴾ .

[الأنعام ٦ : ١١١/ ١١٢]

فهذا كلام لا يصدر إلا عن إله عارف بطبائع البشر ، وبما جرى للأنبياء على أيدى الناس ، وهو مطلع على الغيب ، فهو يعرف أن القرآن والإسلام منصوران بفضله سبحانه دون حاجة إلى معجزات ، بل إن أعداء الأنبياء ينصرونهم بعنادهم دون أن يدروا ، لأن الناس لا يلبثون أن يروا أن كل عنادهم زخرف من القول وغرور لا يتحصل من ورائهما شيء فإذا انتصر الإيمان فى النهاية بان للناس صدق كلام الله فزادوا إيماناً ، والآيات القليلة من نفس السورة تؤيد ذلك بأجلى بيان :

﴿ أفَغَير الله أبتغى حَكماً وهُو الذِى أنزلَ إليكم الكِتاب مُفصلاً والَّذين آتيناهُم الكِتابَ يعلمُون أنه مُنزلٌ من ربكِ بالحق . فلا تكوُنن مِن الممترين . وتمت كلمة ربك صِدقاً وعدلاً . لا مبدِل لكِلماتِه وهُو السَميعُ العلِيمُ ﴾ .

[الأنعام : ٦/ ١١٤ ـ ١١٥]

وقول الله سبحانه هنا ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** ﴾ في وقت لم تكن كلمات الله ـ أى نص القرآن ـ قد تمت ، يدل على أن المتكلم وهو الله سبحانه يعرف أنها ستتم ، لأنها تمت فعلاً قبل انتقال الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ولفظ « صدقاً » هنا يعنى أنها عندما تتم ستكون كلمات الله سبحانه بكل حرف فيها ، أما « عدلاً » فمعناها هنا بغاية الدقة ، ولفظ العدل له معان شتى فى القرآن الكريم ، لأن العدل بمعانيه المختلفة أساس من أسس أخلاقيات الإسلام ، فليس العدل فى القرآن هو ضد الظلم فى كل حالة ، بل من معانيه الضبط والإحكام ، ومثال ذلك العدل فى قوله تعالى فى آية الدين ﴿ **وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدلِ ولا يَأب كاتبٌ أن يكتُب كما علمهُ الله** ﴾ فالمراد هنا فليكتب الكاتب مايملى عليه بالضبط لأن المطلوب من الكاتب هو أن يكتب مايملى عليه بالضبط ، لأن الكاتب ليس بقاض ولا هو طرف فى القضية ، وكل المطلوب منه أن يكتب بالضبط وكما علمه الله أن يكتب ، والمسئولية كلها هنا تقع على المملى على الكاتب ، ولهذا فإن الله يقول بعد ذلك عن المملى ﴿ **وليتقِ الله ربهُ ولا يَبخس مِنه شيئاً** ﴾ أى أن مسئولية مراعاة الله تقع كلها على الذى يملى لا على الذى يكتب ، لأن المطلوب ممن يكتب هو أن يكتب مايملى عليه بالدقة الكاملة دون زيادة أو نقصان فى حرف ، ودليل آخر على ذلك هو أن الله اشترط أن يكون هناك شهود ضماناً للدقة ، ثم إن الله يقول بعد ذلك ﴿ **ولا يُضار كاتِبٌ ولا شهيدٌ** ﴾ أى لا يؤذى الكاتب أو الشاهد على التزامه الدقة فى الكتابة ، وربما عدنا بعد ذلك إلى الكلام على معانى العدل فى القرآن ، لأنه كما ذكرنا ركن من أركان أخلاقيات الإسلام ، وهى مكارم الأخلاق .

ولنرجع إلى آيات سورة الأنعام التى ذكرناها :

﴿ **أفغير اللهِ أبتغِى حكماً وهو الذِى أنزل إليكُم الكِتاب مُفصلاً والذين آتيناهُم الكِتاب يعلمُون أنهُ منزلٌ مِن ربِك بالحقِ فلا تكُوننَّ من**

الممترين .وتمت كلمة ربك صِدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ .

[الأنعام ٦/ ١١٤ ـ ١١٥]

فنقول عن قوله سبحانه ﴿ **لا مُبَدِّل لِكلماتِه وهو السمِيعُ العليمُ** ﴾ إن التبديل الذى أصاب كلام الله تعالى فيما يتعلق بكتبه السابقة على القرآن الكريم حقيقة لا شك فيها ، ولا ينكرها العارفون بتواريخ الأديان السماوية الأخرى الذين يسميهم القرآن « أهل الكتاب » وليس من الضرورى أن تكون هذه الكتب شبيهة بالقرآن الكريم فى هيئتها وصياغتها ، وإنما هى وحى من الله لنبيه ، وهذا الوحى فيه أصول الدين وعقيدته وشريعته ، وكان ينبغى أن يكتب النص ساعة وحيه كما حدث للقرآن . ولكن هذه الرسالات لم تدون ساعة وحيها ، وإنما تلقاها أصحابها وبلغوها لأتباعهم ، وهؤلاء وعوها فى عقولهم دون أن يكتبوها ، وأخذها عنهم خلفاؤهم ، وانقضت أزمان طويلة قبل أن تدون ، ومن هنا جاءالتبديل أو التحريف ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك قد وقع عن قصد وسوء نية ، بل إن مجرد تواتر الكلام على الألسنة وتناقله من جيل إلى جيل لابد أن يؤدى إلى التحريف والنسيان والنقصان والزيادة ، وهذا هو الذى حدث بالنسبة للتوراة والإنجيل ، فأما التوراة فإن اليهود أنفسهم يقولون إنها تجمع بين الكتب الخمسة الواردة فى أول « العهد القديم » أو مايسمى باسم البنتاتويخ Pentateuch ومأثورات التعاليم التى أوحيت إلى أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه كلها ظلت تتناقل شفاها على ألسنة اليهود عصوراً متطاولة حتى جاء الوقت الذى تنبه اليهود إلى ضرورة تدوين ذلك كله بمعرفة كهان الملة اليهودية المعروفين بالربيين Rabbis فاجتمع هؤلاء فى مجامع شتى ، وكتبوا مدونات مختلفة فى النص والمعانى ، وأطلق عليها التوراة ، وعلى أساس هذه التدوينات بدأ مايسمى بعصر اليهودية الربانية فى تاريخ اليهود Rabbimic Judaism وبعض هذه التدوينات تم على

أيدى كهان أتوا من منفى اليهود فى بابل ، وبعضها تم على أيدى كهان ممن بقوا فى أرض فلسطين ، وهناك شىء من الإجماع بينهم على أن الكتب الخمسة أو البنتاتويخ أوحيت بألفاظها إلى موسى فى سيناء ، وإن كان بعض شيوخ العقيدة من يهود الإسكندرية فى العصر البطلمى يقولون : إن الفقرات التشريعية فحسب من هذه الكتب هى التى أوحيت إلى موسى .

أما الإنجيل فحديثه معروف لنا ، ولفظ إنجيل وهو فى اليونانية Euangelion وهو لفظ مؤلف من مقطعين eu ومعناه الطيب أو السار ، angello ومعناه الإعلان أو الإبلاغ ، واللفظان معا يعنيان البشرى السارة ، ومن لفظ an- gello أتى لفظ الإنجيل العربى ، ومعناه الدقيق هو البلاغ أو البيان ، ومن معانى البيان الوحى من الله ، وفى القرآن الكريم فى سورة آل عمران :

﴿ هذَا بَيَانٌ للناسِ وهدى وَموعِظة للمُتقِينَ﴾ [٣ / ١٣٨] .

والإنجيل الذى أوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام لم يدون فى حين وحيه ، وإنما هو دون بعد عشرات السنين من وفاة عيسى عليه السلام ، وأقدمها هو إنجيل مرقص الذى دون سنة ثلاثين ميلادية فى الغالب ، وهى أناجيل كثيرة دونها الحواريون وتابعوهم ، وقد اعترفت المجامع الدينية بأربعة منها ، وهى أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا ، أما البقية فقد رفضت على أنها زيوف أو أبو كريفا كما تسمى عند النصارى ، ومن بين المرفوضات إنجيل برنابا الذى يذهب الكثيرون من المسلمين إلى أنه أصح الأناجيل ، لأن الإشارة فيه إلى رسالة محمد صلوات الله عليه بالغة الوضوح والصراحة .

المهم أنها أناجيل وليست إنجيلاً واحداً ، ومادامت أناجيل فبينها خلاف فى النصوص والمعانى والوقائع ، وهى فى مجموعها تدوينات لما تذكره الحواريون أصحابها من وقائع حياة عيسى ابن مريم ، وأقواله ، وإما تعبيراً عما أوحى إليه

وإما كلاماً من عنده ، فهى فى جملتها تقابل الأحاديث والسير النبوية عندنا ، وهذه الأناجيل هى القسم الثانى من الكتاب المقدس عند النصارى بشتى مذاهبهم ، وهى المسماة بالانجليزية باسم Ejopils وهو العهد الجديد وتحقيق البشارة وكتاب الخلاص ، أما العهد القديم ـ وهو القسم الأول من الكتاب المقدس ـ فهى الكتب الخمسة التى ذكرناها ، وقلنا إن بعض اليهود يقولون : إنها التوراة وأسفار أخرى مما حكاه ـ أو حكى عن ـ أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه تقابل عندنا كتب تاريخ الرسل ، كما نجد فى الجزء الأول من تواريخ الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وأبى الفدا مثلاً .

والمهم الذى أحب أن ألفت له نظر القارىء أنه لا يوجد بين أيدى اليهود أو النصارى كتاب يقابل القرآن ، أى كلام الله الموحى إلى نبيه بلفظه وحرفه والمبلغ إلى الناس فى حينه بلفظه وحرفه ، وهم لهذا معذورون عندما لا يقرون بأن القرآن كلام الله ، لأنهم لا يعرفون شيئاً حقيقيًا بين أيديهم يسمى كلام الله المنزل بلفظه وحرفه .

فهذا عندهم غير موجود والمسميات تعرف بمقابلاتها ، فلا تغضب إذا سمعت هذا الكلام ، إذ أنه ليس من الضرورى أن يكون صادراً عن سوء نية بل عن جهل بكتاب الله سبحانه وكيف أنزل على رسول الله ﷺ وكيف وصل إلينا .

إلى هنا أقف بهذا المدخل ، وإن كنت لم أقل فيه كل ما أريد ، ولكننا نحب الآن أن ندخل فى أحاديث الآيات المختارة ، وفى ثنايا الأحاديث نرجو أن نستدرك مافاتنا قوله فى هذا المدخل ، وبالله سبحانه التوفيق .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا نحن نَزَّلْنَا الذِكرَ و إنَّا لَهُ لَحافِظونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة الحِجْر : الآية ٩]

وقفت فى المدخل الذى قدمت به لهذه السلسة من أحاديث القلوب عند تفرد القرآن من بين ما يعرف البشر من الكتب التى توصف بأنها مقدسة بأنه الكتاب الوحيد من بين ما أوحى الله إلى أنبيائه الذى وصل إلينا كما أنزله الله كاملاً لفظاً لفظاً ، وحرفاً حرفاً . وكما بلغه الرسول إلى الناس فى حينه ، ثم سجل بالكتابة على نحو لا يداخل أحداً الشك فيه .

والآية التى أبدأ بها من بين الآيات التى اخترتها تعتبر من بين البينات الكبرى على أصالة النص القرآنى وسلامته من كل مظنة تحريف أو شك فى صدوره عن الخالق سبحانه . فإن سورة الحجر كلها مكية ، أى أنها نزلت والإسلام فى دور الصراع العنيف مع المكيين ، وكان المسلمون عند تنزيلها قلة مطاردة ، ومعظمهم كان قد هاجر إلى الحبشة ، وبقى رسول الله فى مكة مع نفر قليل من أصحابه يتمسكون بدينهم كالقابض على الجمر .

وكان رسول الله يسرع بتبليغ ما أنزل إليه من ربه على من حضره من أصحابه الذين يقرءون ويكتبون ، وكانت الكتابة العربية نفسها فى دور التكوين . فكانت الكلمات تكتب بدون نقط والحروف متشابهة ، وأدوات الكتابة غير ميسرة أو مهذبة ، وكذلك كانت المادة التى تكتب عليها الآيات ، والآيات

كانت مفرقة عند من كتبوها وبعضهم يكتب آيات اليوم . ثم يغيب غدا ومعه ماكتب ، وقد يهاجر إلى الحبشة ، حقاً كان رسول الله يحفظها جميعاً ، وكان نفر ممن حوله يحفظونها ويرددونها ويصلون بها ، ولكن النصوص المدونة نفسها ـ وعليها المعول فى النهاية ـ كانت رهن الضياع ، فمن آلاء رب العزة أن يقول لرسوله الكريم فى تلك الظروف إنه هو ينزل الذكر وهو حافظ له من الضياع ، وسياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها يؤكد إعجازها ، لأن آيات القرآن وسوره كلها كل واحد مترابط ، والله سبحانه ينظم الآيات فى نسق يجعل بعضها يزيد بعضاً ويزيده بياناً :

﴿ ما نُنزلُ الملائكة إلا بالحق وما كانُوا إذَنْ مُنظَرِينَ . إنا نحن نَزّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظُونَ . ولَقد أرسلْنا مِن قبلكِ فِى شِيعِ الأولِين . وما ياتيهِم مِن رسُول إلا كانُوا بهِ يَسْتَهزِئُونَ . كذلِك نسلُكه فِى قلُوبِ المجرِمين ﴾ . [الحجر ٨ ـ ١٢]

وهذه الآيات تصف ظروفاً تشبه الظروف التى كان رسول الله وصحبه يعيشون فيها عندما أنزلت هذه الآيات ، وهناك من يقرءون حرف مِنْ الوارد فى الآية العاشرة مَن . . بفتح الميم ، أى أنها ضمير لا حرف . والمعنى هنا أننا أرسلنا من أرسلنا قبلك فى جماعات الأولين الذين كانوا يستهزئون بالرسل ، ولكن الله سبحانه يسلك الذكر فى قلوب المجرمين بقدرته سبحانه ، ويحفظ كلامه من الضياع لأنه منهاج الإنسانية ونبراسها الخالد .

ثم إننا نقرأ فى سورة القيامة ، وهى مكية أيضاً ، وقد أنزلت فى نفس ظروف الاضطهاد والمعاناة التى أنزلت فيها الآيات السابقة ، وكان رسول الله ﷺ لشدة حرصه على ألا تفوته من القرآن كلمة ، لا يكاد يسمع ما يوحيه إليه الله حتى يبدأ فى تلاوته ، والله سبحانه فى الآيات التى سنوردها الآن يطمئنه على أنه كفيل

بجمعه وضامن لحسن تلاوته ، ثم تَبْيِينِهِ وشرحه للناس بعد ذلك ، فهذه رسالته الأخيرة إلى البشر ،وهى جامعة لكل ماسبق أن أوحاه الله إلى من سبقه من الرسل ، فلابد أن تبقى كاملة إلى آخر الزمان ، و إذا كانت الرسالات السابقة قد وكلت إلى الناس فضيعوها ، فهذه الرسالة المحمدية يتكفل بها الله سبحانه فلا يضيع منها حرف ، بل لا يغيب من معانيها معنى قال جل جلاله فى سورة القيامة :

﴿ لا تُحرك بِهِ لِسانك لِتَعْجَل به . إِن عَلينا جَمعَه وقُرآنهُ . فإذا قَرأْناهُ فاتَّبعْ قُرْآنَهُ ثم إِن علينا بيانه ﴾ . . [القيامة ١٦/ ١٩]

وهذه بينة جلية على أن القرآن وحى من الله لرسوله ، فالمتحدث هنا هو الله وهو يعرف الظروف التى كان يعيش فيها رسوله الكريم عندما أوحيت إليه تلك الآيات ، وهى ظروف اضطهاد ومطاردة وخوف على الرسالة ، فهو برفقه وحنانه على رسوله يطمئنه على آياته ، فهو يقول له : (لا عليك ولا ينالنك خوف أن تضيع منك منه كلمة ، فلا تعجل بتلاوته وانتظر حتى يفرغ وحيه إليك . فإننا كفيلون بجمعه ، وجعل الناس يقرءونه ، فإذا فرغ الوحى فاقرأه كما تُلى عليك ، ونحن لن نحفظه كاملاً فحسب ، بل نحن سنبينه ونوضحه للناس على أحسن مايكون البيان والتوضيح) .

وهذا كلام لا يقوله إلا خالق الكون علام الغيوب ، فهو يعرف ما كان وما سيكون ، وسنرى بعد قليل كيف سخر الله البشر لجمع آيات هذا القرآن الذى تنزل على رسول الله آيات متفرقات ، وحفظه بهذا فى كتاب مصون أو مصحف . ومن المعروف أن التنزيل أو القرآن هو كلام الله ، وأن المصحف هو كلام الله المدون فى صحف مجموعة فى كتاب واحد .

وهذه الآيات البينات تساق فى سورة جيلة من سور الفترة المكية ، هى سورة

القيامة ، وقد قلنا إننا نرى أن كلام الله فى كتبه العزيز كل واحد مترابط ، وإذا كانت الآيات قد أنزلت منجمة فإن الله الذى تعهد بجمعها قدر مساقها ونسقها وارتباطها بعضها ببعض فى صياغة معجزة ، فالمعانى تتوافق وتتكامل فى الروح والمعانى وإن تفرقت فى الظاهر ، أو بدت متفرقة بمن يقرأ بعينيه دون قلبه وإحساسه ، فإن القرآن قوت القلوب أو ثمار القلوب ، وفهمه على وجهه لا يتم إلا إذا قرأته بعينك ، أو من حفظك فمر على قلبك ، ومن قلبك إلى لسانك ، فاسمع ـ هداك الله ـ إلى ماسبق الآيات التى نحن بصددها من آيات سورة القيامة وهى الخامسة والسبعون فى ترتيب المصحف :

﴿ لا أُقسمُ بيومِ القيامةِ . ولا أُقسمُ بالنفس اللوامة . أَيحسب الإنسان أن لَن نجمعَ عِظامهُ . بَلىَ قَادرين على أَن نُسوِى بَنانهُ . بل يُريدُ الإنسانُ ليفجُر أمامهُ . يسألُ أيان يوم القيامةِ . فإذا برِق البَصرُ . وخسَف القمرَ . وجُمع الشمسُ والقمرُ . يقُول الإنسانُ يومئذٍ أين المفرُ . كلا لا وزرَ . إلى ربك يومئذٍ المسْتقرُ . يُنبأ الإنسانُ يومئذٍ بِما قدمَ وأخر . بلِ الإنسانُ على نفسِه بصيرةٌ . ولو ألقى معاذِيره . لا تُحرك بِهِ لِسانك لتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

[القيامة : الآيات ١ ـ ١٦] .

فانظر والله إلى إبداع المساق ، وحسن النسق والسياق ، فالله يريد أن يؤكد أن بعث الإنسان حقيقة لا شك فيها ، وإذا كان بعض المكابرين لا يتصورون ذلك ، لأنه يتخطى أفهامهم ، فنحن لن نبعث الإنسان حيا فحسب ، بل إننا قادرون على أن نعيده كما كان ، حتى أصابعه نعيدها كما كانت . وهنا موضع ملاحظة بالغة العمق لصديقنا الأديب الطبيب الفقيه الدكتور مصطفى محمود الذى ينظر فى القرآن نظر الطبيب العالم ، وهو يقول : « إن اختصاص الله البنان

أى الإصبع بالذكر هنا يراد به بصمات الأصابع التى لا يتشابه فيها انسانان ، كما لا يتشابهان تمام التشابه فى ملامح الوجه وسماته » ، وهـــذا تخريج علمى حديث .

فالحق سبحانه يقسم بيوم القيامة ، وبنفس الإنسان التى ستلومه يوم القيامة ، وتحاسبه على مافعل . أن الساعة آتية لا ريب فيها . وأن الله سيجمع عظام كل إنسان كما كان . حتى رسوم بصمات أصابعه . ولكن الإنسان الغافل عن يوم الحساب يريد أن يفعل مايشاء قبل ذلك اليوم . فإذا أتى يوم الحساب برق بصر الإنسان ، وخسف القمر ، وطوى الشمس والكون . وهذا تصوير بالغ البيان لبعض ماسيكون يوم القيامة ، فإن الشمس والأرض والقمر وكل المجموعة الشمسية ستطوى طياً .

يومها يطلع الإنسان على كل مافعل : ماقدم منه وما أخر ، ويعرف ببصيرته أن كل مايواجه به من خطاياه حق ، ويرى أنه لا مفر من الله إلا إلى الله وإلى الله مستقرنا جميعاً ولا فرار من العقاب مهما قدم الإنسان من المعاذير .

فإذا كان الأمر كذلك فلا بأس عليك يامحمد ولا ضير ، واطمئن واستمع إلى مايوحى إليك ، ولا تعجل بتلاوته مخافة ضياعه ، فإن علينا جمعه وقرآنه ، وهذا مثل من كثير سنأتى به على ترابط الآيات ترابطاً معنوياً داخلياً ، وإن بدا لنا أنها متفرقات .

ويدخل فى معنى تصوير القرآن لحالة رسول الله ﷺ خلال الفترة المكية وما كلن يعانيه من المشركين قول الله سبحانه فى آخر سورة الإسراء :

﴿ ولاَ تَجْهَرْ بِصلاتِك ولا تُخافتْ بها . وابتغ بَيْنَ ذلك سَبيلاً . وقُل الحمد لله الذى لم يَتخِذ وَلداً ولم يكُن لهُ شريكٌ فى المُلك ، ولمَ يكُن لهُ ولىٌّ مِن الذُل وكبِرْه تكبيراً ﴾ . [الإسراء ١٧/ ١١٠ ـ ١١١] .

فإن رسـول الله ﷺ خلال الفترة المكيـة الثالثـة وهى الأخيرة التى كان فيهـا الإسراء به إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماء تكـريماً له وإظهاراً لمحبة الله إياه بعد ما كان من موت أبى طالب وخـديجة ، ووقوفه وحده بلا نصير أمام الأعداء الذين ظنوا أن أمره قد وهن بعد وفـاة أبى طالب حاميه وخـديجة رضى الله عنها وكانت خير المعين له على ماكان يلاقى فى تلك الظروف . كان رسول الله إذا قام لصلاتـه فى المسجد وجهـر بها نهض له من أشرار المكيين وسخفـاء المشركين من يحاكيه ويردد كلامه ترديداً سخيفا ، ليخـرجه عن صلاته أو يفسده عليه ، وهنا يأمره الله بألا يجهر بصـلاته جهراً يسمعه المشركـون وتضيق له نفوسهم ، إذ أنهم كانوا ينفرون من آيات الله ولا يحبون سماعها لجحود قلوبهم وغرورهم بأنفسهم ، وهو كـذلك يأمره بألا يخافت بصلاتـه صوته فـلا تسمع ، ولكن عليه أن يصلى بصوت وسط ، وليحمـد الله الواحـد الصـــمد الذى لم يتخذ ولداً ولا كـان له شريك .

ومن طـريف مايحكى ابن كثير فى تفسيره لآيـة الجهر والمخـافتة فى الصـلاة قولـه : قال ابن جـرير (يريـد الطبرى) : حدثنا يعقـوب حدثنـا ابن عُلَيَّةَ عن سلمة ابن علقمة عن محمد بن سيرين قـال : نُبِّئْتُ أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبى بكر : لِمَ تصنع هذا ؟ قال: أناجى ربى عز وجل . وقـد علم حاجتى فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لِمَ تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان قيل : أحسنت . فلما نزلت : ﴿ ولا تَجْهـَرْ بصَلاتكَ ولا تُخَـــافِتْ بها وابتـغِ بينَ ذَلِك سَبيـلاً ﴾ قيـــل لأبى بكر : ارفع شيئاً ، وقيل لعمر : اخفض شيئاً . . (تفسير بن كثير . طبعة دار الشعب بالقـاهرة ٥/ ١٢٧) . وقد رواه الطبرى أيضـاً مختصراً (انظر تفسير الطبرى بتحقيق الشيخين محمـود وأحمد شاكـر ـ طبعـة دار المعارف ١٥/ ١٢٤) وأنا أحكيه هنا لطرافته لا قطعاً بصحته .

والآن ، وبعد أن تحدثنا عن معجزة الله فى وعـده حفظ قرآنه من الضياع ، فلنرو بقية القصة لنرى كيف سخر الله عباده لجمع القرآن وتثبيت نصه ليظل كما أوحاه الله على نبيه إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، وبقية الحكاية هذه معجزة علمية أجراها الله على أيدى عباده من المؤمنين الصادقين .

عندما قبض رسول الله وانتقل إلى الـرفيق الأعلى كان نفـر من المسلمين قد جمعـوا القرآن فى صـدورهم ـ أى حفظـوه ـ ويذكـر الرواة منهم ستـة كلهم من الأنصار هم : أبىُّ بن كعب ومعـاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الـدرداء وسعد ابن عبيـد وأبو زيـد ، وهو رجل من عمـومة أنس بن مـالك ، ويضيف بعض الرواة إلى هـؤلاء عليًا بن أبى طالب وأبـا موسى الأشعـرى وعثمان بن عفان وتميم الـدارى ، وفى الاثنين الأخيرين شك ، والبخـارى فى باب فضـائل القـرآن من صحيحه يقتصر على أربعـة كلهم من الأنصار هم : زيـد بن ثابت ومعـاذ بن جبل وأبى بن كعب وأبـو زيـد . والروايـات هنـا كثيرة جـداً ، فهناك مثـلاً من يضيفون أبا أيوب خالد بن زيد الأنصارى .

وكان معظم المسلمين يحفظون الكثير من سور القـرآن وآياته ، ولكن هؤلاء هم الذين اشتهروا بجمع معظم القرآن فى صدورهم ، ومن المؤكد أن جبريل كان يراجع القرآن مع رسول الله بين الحين والحين ، وأن رسول الله عندما لقى ربه كان نص القرآن كلـه ثابتـا كما أنزله الله فى صـدور المسلمين وإن كان مفـرقاً بينهم .
ويذهب بعض الرواة من الشيعـة أو ذوى الميول الشيعية مثل المؤرخ اليعقوبى أن عليـاً بن أبى طـالب كـان على رأس الحفاظ ، بل يـذهب نفـر من هـؤلاء إلى أن القرآن كله كان محفوظاً فى صدر على بن أبى طالب ، والشيعة يروون القرآن برواية على بن أبى طالب عن طريق الإمام محمد الباقر مرة ، والإمام جعفر الصادق مرة أخرى ، وقـد اشتهر من المسلمين نفـر بحفظ الكثير من آى القـرآن ، ويقال إن هؤلاء هم الذين عرفوا فى تاريخنا باسم القراء ، وإن كان هناك خلاف كثير حول

ماهية جماعة القراء ، ومتى ظهروا ، وفى موقعة عقرباء وهى إحدى المعارك التى خاضها المسلمون مع مسيلمة الكذاب وجماعته قتل الكثيرين من حفظة القرآن من الأنصار خاصة ، ومن ذلك الحين بدأ اهتمام أبى بكر بتدوين القرآن قبل أن يموت معظم حفظته ، وكانت تلك المعركة فى ذى الحجة سنة ١١ هجرية / يناير ٦٣٣ م . وكان الذى تنبه إلى ذلك عمر بن الخطاب ، فأفضى إلى أبى بكر بمخاوفه ، فنادى أبو بكر رجلاً من أفاضل حفظة القرآن فى المدينة هو زيد بن ثابت ، وأمره بأن يدون القرآن فعكف على ذلك معتمداً على حفظه ، ولم يكتف بذلك بل مضى يراجع حفظه وماجمع من مدونات الآيات بما عند غيره من الصحابة ، وكان الكثيرون يحتفظون بقطع من الخشب أو الجلود أو العظم ، مدونة عليها آيات من القرآن ، فلم يدع زيد أحداً ممن علم أن عنده من القرآن شىء إلا رجع عليه وأخذ ماعنده ، وكان أبو بكر وعمر من أكثر الناس حفظاً للقرآن ، فكانا أكبر معينين لزيد فى عمله الجليل .

وعندما نعلم مَنْ هو زيد بن ثابت ، نتأكد من أن اختيار أبى بكر وعمر إياه لم يكن مصادفة ، فقد كان فى هذا الرجل نسيج عالم حق ، والاسم الكامل لزيد أنه زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان من بنى مالك بن النجار الخزرجيين ، ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت سن زيد إحدى عشرة سنة ، وقد توسم فيه رسول الله النجابة لأول ماعرفه ، فضمه إليه ، وقد تحمس زيد للإسلام حماسة بالغة ، وأراد الخروج مع المسلمين يوم بدر ، ولكن رسول الله رده لصغر سنه ، وكانت أول المشاهد التى شارك فيها معركة الخندق ، فكان أثناء حفره يعمل بهمة عالية ، ورآه الرسول فقال : « إنه نعم الغلام » ، وكانت راية المسلمين يوم تبوك مع عمارة بن حزم ، وكان من فضلاء الصحابة فأخذها رسول الله ودفعها إلى زيد ، فقال عمارة : « يارسول الله بلغك عنى شىء ؟ قال لا . . ولكن القرآن مقدم ، وزيد أكثر أخذاً للقرآن منك » وهذا يدل على أمرين :

الأول : أن زيدا كان معروفاً للرسول بكثرة حفظه للقرآن .

وثانيهما : أن القرآن راية الإسلام .

وكان زيد يقرأ ويكتب يوم عرفه الرسول فجعله من كتاب الوحى عنه ، ويقال : إن زيداً كان إذا سمع عن آية أملاها رسول الله لغيره سعى إليه فسمعها منه وحفظها ، وشيئاً فشيئاً نجد زيداً قد أصبح كاتب الرسول وملازمه معظم الوقت ، ويحكى ابن سعد فى الطبقات أن زيداً كان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى وغيره ، وكانت ترد على رسول الله ﷺ كتب بالسريانية فأمر زيداً أن يتعلمها فتعلمها ، ويقول فى خبر آخر يرويه زيد بنفسه فيقول : قال لى رسول الله ﷺ : « إنه تأتينى كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد ، فهل تستطيع أن تتعلم كتابة العبرانية ؟ أو قال السريانية ؟ فقلت نعم ! قال : فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة ، وفى خبر ثالث تقرأ أن رسول الله أول مادخل زيد فى خدمته طلب إليه أن يتعلم العبرانية وقال له : تعلم كتاب اليهود (يريد كتابتهم) فإنى والله ما آمن اليهود على كتابى . قال : فتعلمته فى أقل من نصف شهر ، وسواء تعلمها فى نصف شهر أو أكثر ، فالمهم لدينا أن زيداً تعلم السريانية والعبرانية بأمر الرسول ﷺ ، وأن زيداً كان صاحب سر الرسول فى أمر ما كان يرد عليه من الكتب . وأنه خدم الرسول والإسلام بمعرفته اللغوية هذه ، وزيد على هذا يمكن اعتباره أول عالم فى تاريخ الإسلام ، فقد عرف لغتين إلى جانب العربية ، وهذه الأخبار متواترة فى كل كتب الحديث والأثر . ولو لم يكن زيد على هذا العلم الواسع لوجدنا فى الأخبار من يشكك فيها ، بل كان رسول الله يوجهه فى أمر الكتابة ، فقد روى أن زيداً قال : دخلت على رسول الله وهو يملى فى بعض حوائجه فقال : « دع القلم على أذنك فإنه أذكر للممل » .

وإلى جانب ذلك كان زيد أعرف الصحابة بالفرائض ، أى بحساب

حصص المواريث على ما فى كتاب الله . ويمكن أن تكون الفرائض هى الحساب جملة ، فإن الفرائض فى الإسلام كثيرة ، فهى تدخل فى قسم الفىء والمغانم ، ومعنى هذا أن الرجل كان ماهراً فى الحساب كذلك ، قال رسول الله ﷺ : « أفرض أمتى زيد بن ثابت » ، وروى ابن سعد فى الطبقات بسنده قال : ماكان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة ، وروى ابن سعد خبراً آخر يقول : خطب عمر بن الخطاب بالجابية فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، وروى أيضاً أن عمر بن الخطاب استعمل زيد بن ثابت على القضاء وفرض له رزقاً ، وقال : كان عمر يستخلف زيد بن ثابت فى كل سفر يسافره ، وكان يفرق الناس فى البلدان ويوجهه فى الأمور المهمة ويطلب إليه الرجال المسلمون فيقال له : زيد بن ثابت يريد أنهم كانوا يطلبون زيداً بالاسم ، فيقول عمر : لم يسقط علىّ مكان زيد ، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما لا يجدون عند غيره ، وروى ابن سعد عن شيخه الواقدى بسند صحيح : كان زيد بن ثابت مترأساً بالمدينة فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلىّ فى مقامه بالمدينة ، وبعد ذلك بخمس سنين حتى ولى معاوية سنة أربعين ، فكان كذلك أيضاً حتى توفى زيد سنة خمس وأربعين (٦٦٥ م) فكأن زيداً توفى عن ست وخمسين سنة هجرية ، فقد سبق أن ذكرنا أن سنه عند الهجرة كان إحدى عشرة سنة ، وممن أخذ العلم عنه سعيد بن المسيب ، وكان سعيد يقول : لا أعلم لزيد بن ثابت قولاً لا يعمل به مجمع عليه فى الشرق والغرب ، وكان عبد الله بن عمر يسميه عالم الناس . . .

هذا هو الرجل الذى عهد إليه أبو بكر فى جمع القرآن ، فهل تظن أن وجوده إلى جانب الرسول صلوات الله عليه وخلفائه الراشدين وقيامه بجمع القرآن كان مصادفة . لقد قال الله سبحانه فى قرآنه إن عليه جمع القرآن و إقراءه الناس

وتبيينه لهم . وله سبحانه حكمة تخفى علينا فى إنفاذ مراداته .

يقول أبو داود السجستانى فى كتاب « المصاحف » وأبو عمرو الدانى فى كتاب « القراءات » وغيرهما من الحجج فى تاريخ القرآن إن زيداً دون القرآن كاملاً فى صحف ، وجعل الصحف مصحفاً ، وقد حاول نفر من المستشرقين ممن اجتهدوا فى البحث عن أشياء يشككون الناس بها فى صحة النص القرآنى من أمثال نولدكه وشغالى وبرجشتريس وأجناس جولد تسيهر وكازانوفا وريجى بلاشير . جعل هؤلاء وغيرهم يفحصون ويدرسون ويحللون دون جدوى ، واضطروا فى النهاية إلى الاعتراف بصحة تدوين زيد وميلاد المصحف الأول .

فرغ زيد من عمله وأودع هذا المصحف عند حفصة أم المؤمنين وهى بنت عمر بن الخطاب ، وكثر عدد القراء وحفظة القرآن ، فلما كان فتح أرمينية أيام عثمان بقيادة حذيفة بن اليمان استمع هذا الصحابى الجليل إلى جنده فى صلواتهم وأحاديثهم فراعه اختلاف النص القرآنى على ألسنتهم ، فكتب إلى عثمان بن عفان يستغيث ويسأله فيما يصنع . فأدرك عثمان خطورة المسألة ، فاستشار الصحابة ، واستقر رأيهم على ضرورة تثبيت النص القرآنى فى صورة واحدة حتى لا يختلف الناس فى حرف من حروف كتاب الله الكريم ولا لفظ ، ولم يجد عثمان أقدر على القيام بهذه المهمة من زيد بن ثابت ، وكان بعض الصحابة قد كتبوا مالديهم من حفظهم ، واعتبروا ماعندهم مصاحف ، وكان بينها وبين مصحف زيد بن ثابت الأول خلاف فى بعض الألفاظ وترتيب الآيات والسور ، ومن هؤلاء أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود . فعهد عثمان إلى زيد فى القيام بمراجعة النص الذى كتبه من سنوات قليلة ، وضم إليه ثلاثة من أوثق الناس إيماناً وحفظاً ، وهم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث . وهناك روايات أخرى فى تكوين هذه « اللجنة » ولكننا نأخذ هنا بما يقوله الإمام البخارى فى باب فضائل القرآن من صحيحه . وقد بذلت هذه الجماعة أقصى

جهدها فى القيام بهذا العمل الجليل ، فأخذ زيد وأصحابه الصحف التى كانت عند السيدة حفصة وراجعوها على حفظ من كان لديه شىء من القرآن ، ومازالوا يجتهدون حتى فرغوا من مهمتهم على خير وجه ، وأخذ عثمان هذا المصحف وراجعه مع من رأى من الصحابة وانتهى أمرهم إلى إقراره . وهنا قام عثمان بالعمل الأكبر الذى يخلده فى التاريخ ، ويكتب الله له به الجنة ، استنسخ من هذا المصحف أربع أو ست نسخ وأرسلها إلى الأمصار ، وجمع ماعدا ذلك مما كان يتمسك به أبى بن كعب ، وماكان يعتز به عبد الله بن مسعود وأحرقها جميعاً حتى لا يكون فى أيدى الناس إلا هذا المصحف الواحد الذى سمى من ذلك الحين بالمصحف العثمانى الذى لا شك فى أنه يضم كلام الله سبحانه حرفاً حرفاً ولفظاً لفظاً ، بل ثبت فيه ترتيب الآيات والسور ، وقد لج عبد الله بن مسعود لجاجاً شديداً فى الاحتجاج لما كان يسميه مصحفه ، ولكن عثمان والصحابة ثبتوا على هذا المصحف ، وعندما نقرأ أمثلة من اختلافات ماكان عند عبد الله بن أبى أو عبد الله بن مسعود مع مصحفنا العثمانى عند رجل مثل السيوطى صاحب الإتقان فى علوم القرآن نجد أنها لم تكن بذات بال .

وهكذا صدق الله سبحانه وحفظ قرآنه .

وقد بدأت هذه المقالات بآيات الله سبحانه التى تبشر المسلمين بحفظ كلامه وقراءته وبيانه ، لأن القرآن هو أساس الإسلام الحاوى لمنهج الله سبحانه .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُوَ اللهُ الَّذى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهادة هو الرَّحمن الرَّحيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة الحشر : الآية ٢٢]

الإيمان بالله تعالى ووحدانيته وتفرده بالخلق والقدرة هى لباب الإسلام وقاعدته الكبرى التى تتفرع عنها كل فضائله وخصائصه .

ولا تكاد تخلو سورة قرآنية من آيات تتحدث عن تفرد الإسلام بالقول بالوحدانية المطلقة للحق سبحانه ، لأننا سنرى بعد قليل أن وحدانية الله هى ضمان الأمن والسلام والسلامة للبشر . ولو أن البشر اجتمعوا على الوحدانية ولم تتفرق بهم السبل لما كانت هناك حروب أو فتن أو مجاعات ، لأن الوحدانية الإلهية هى العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، ولو آمنا بها جميعاً وأدركنا معناها ومغزاها لكنا اليوم فى دنيا غير دنيا الشقاء والمتاعب والشرور التى نحياها . ومن أجمل مايقرأ الإنسان فى هذا المعنى وأحفله بالحكمة قول الله جل جلاله فى سورة الزمر :

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعبُدْ وكُن مِن الشَّاكِرِين وَمَاقدَرُوا اللهَ حق قدرهِ والأرضُ جمِيعاً قبضتُهُ يَوَمَ القِيامةِ والسَّماواتُ مطوِياتٌ بِيمِينِهِ سُبحانهُ وتعالى عما يشركون ﴾ . [الزمر ٣٩/ ٦٦ ـ ٦٧]

وهى آيات لم يحسن السلف تفسيرها ، لأنهم قصروا نظرهم على يوم القيامة ومايسبقه ومايكون فيه ، كأن سلطان الله على الدنيا بما فيها من أرض وسماوات مقصور على يوم الساعة ، والحق أن الأرض جميعاً فى قبضة الله من يوم خلق هذا الكون وكذلك السماوات بيمينه أزلاً وأبدا ، وقد غاب عنهم كذلك الإعجاز البلاغى فى تصوير قدرة الله فى هذه الآيات ، وشغلوا أنفسهم برواية أحاديث فى نزول هذه الآيات هى أو هى من نسيج العنكبوت ، وما حملهم على ذلك إلا ولعهم بالماضى ونظرهم إليه وضيق الآفاق التى كانوا ينظرون إليها ، فكان الماضى هو عالمهم الذى عاشوا فيه ، والعلم عندهم كان رواية ما قال البزار والطبرانى وعبد الرازق والحاكم ومن إليهم من أقطاب العلم السابقين عليهم مع إجلالنا للسابقين من علماء هذه الأمة فإننا نقول : إننا اليوم نعيش فى عالم اتسعت فيه آفاق العلم واتسعت معها آفاق النظر والتفاؤل بالمستقبل ، ومامضى من العلم هو أقله ، أما معظمه فهو فى الحاضر والمستقبل ، وهذه بعض دوافعى إلى كتابة هذه المقالات ، فأنا أنظر إلى كل شىء حولى بعين الحاضر وأمل المستقبل ، وهكذا أحب أن ينظر الشباب ليكون لهم مستقبل أزهى مما نحن فيه وأريد أيضاً أن أربط تفكيرهم بالإيمان بالإسلام والقرآن وسيرة المصطفى صلوات الله عليه ، وتحضرنى بهذه المناسبة عبارة جميلة قرأتها لواحد من كبار أهل اللاهوت فى عصرنا موجهاً الحديث للشباب : « إن الله يا أبنائى ينظر إليكم ويشملكم برحمته ويرعاكم فى طريقكم إلى عالم أسعد ، أما نحن فحسبنا ماأكرمنا الله به من رعايته وأفضاله ، فأنتم الغد ونحن الأمس ، أنتم يشرق عليكم نور النهار ونحن نختفى شيئاً فشيئاً فى ليل التاريخ » .

وقد اخترت الآيات التى قدمت بعضها للحديث عن الوحدانية ، لأنها تتحدث عن الله وصفاته ، وهو موضوع شغل الماضين من أهل الفكر عندنا وأدخلهم فى متاهات ومتاعب وأزمات ماكان أغناهم عنها لو أنهم نظروا فى

القرآن بالقلب والعين جميعاً واستمعوا إلى صوت العقل والقلب معاً : وهذه الآيات المباركات من سورة الحشر تقول :

﴿ هُو اللهُ الذِى لا إِلـه إلا هُـو عـالِمُ الغيبِ والشهادةِ هُوَ الرحمن الرحيمُ . هُو اللهُ الذِى لا إِلـه إِلا هُو الملكُ القُدوسُ السلامُ المُؤمِنُ المُهيمن العزِيزُ الجبارُ المتكبِرُ سُبحان اللهِ عَما يُشركُون . هُو اللهُ الخالِقُ البارِئُ المصُور له الأسمَاءُ الحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لـه مـا فى السَّمَواتِ والأَرْضِ وهـو العزيزُ الحكيم ﴾ .

[سورة الحشر ٥٩/ ٢٢ـ ٢٤]

وهذه الآيات التى تروع النفس ببلاغتها وحسن مساقها تجمع بين وحدانية الله سبحانه وتعالى وجانب من صفاته التى يتفرد بها جل جلاله .

وأحب أن أقف عند بعض هذه الصفات الإلهية لأستلفت نظر القارىء إلى مايتفرد به الله فى عقيدة الإسلام .

فالله هنا قدوس لا مقدس كما يوصف فى الأديان الأخرى ، لأن صفة القداسة الإلهية النابعة منه سبحانه ، ولو قلنا مقدس فمعنى ذلك أن أحدا أعطاه صفة القداسة وتعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

والإسلام أقل الأديان استخداماً لصفة القداسة ، لأنها عندنا مما يتفرد به الله دون سواه حتى القرآن ــ وهو كلام الله ـ فنحن لا نصفه بالقداسة فنقول القرآن المقدس بل نقول الكريم والمجيد ، والحرم المكى لا يوصف عندنا بالحرم المقدس لأن الله سبحانه خلع عليه القداسة فهو قدس بذاته ، واستعمال مصطلح الأراضى المقدسة حديث ، ولا أذكر أن القدامى استعملوه عندنا ، وفى سورة البقرة تقول الملائكة مخاطبة رب العزة : **﴿ نَحنُ نُسَبِحُ بحَمدِكَ ونُقدس لَكَ ﴾** [٢/ ٣٠] ولم تقل ونحن نقدسك ، لأن الله أجل من أن يخلع عليه أحد من

خلقه صفـة من صفاتـه ، وفى المعجم الوسيط تقـرأ : قدس الـرجل : زار بيت المقدس ، وقدس قـدساً أى طهر أو طهَّر ، وقـدس لله تقديسا : طهر نفســه له وصلى له وعظمه وكبره ، وقدس فلان الله : نزهه عما لا يليق بالألوهية ، وقدس الله فلانـاً طهره ، وتقـدس تطهر ، وتقـدس لله ونزه فهـو متقدس ، والقـداسة الطهر والبركة (محدثة) والقـدس وروح القدس جبريل أى روح الطهر (إلى هنا ينتهى كـلام المعجم) وقد ورد روح القدس بمعنـى جبريل ثلاث مـرات متصلاً بعيسى ابن مريـم عليه السلام ومـرة واحدة بهذا المعنى فى القرآن فى الآية ١٠٢ من سورة النحل ﴿ **قلْ نَـزلهُ رُوحُ القدُسِ من رَّبـكَ بالحق ليُثبِّت الذيـن آمنُوا وهُدى وبُشرْى للمُسْلمِينَ** ﴾ .

وبمناسبة كلامنا على الآيات التى جعلتها موضوع الحديث عن وحدانية الله أقـول كلمة أنبـه بها إخوانـى المسلمين إلى مدخل من مـداخل الأذى والتعصب يستعملـه الكثيرون من أعداء الحق والإسـلام ، فقد قـرأت فى تفسير ابن كثير فى كلامه عن لفظ الجلالة سبحانه : الله اسم على الرب تبارك وتعالى يقول إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات (ثم يـورد الآيات التى نحن بصددها) ثم يقول : فأجـرى الأسماء الباقية كلهـا صفات لـه (ابن كثير : التفسير جـ ١ ص ٣٥ فى تفسير الفاتحة) وهذا كــلام طيــب مقبـول . ولكـــننا نقـرأ فى قاموس لاروس Islem Allah : dieux unigue del'

فكأنهم يستعملون لفظ الجلالة على أنه اسـم على علم إله المسلمين خاصة وهذا يخالف مانحن عليه من أنه إله العالمين ، وعندما نقرأ ماورد فى دائرة المعارف الإسلاميـة بطبيعتها نجدهم يقولـون كلاماً كثيراً لا يليق ولا أجيـز لنفسى هنا أن أنقلـه ، وأسوأ من هـذا مـاتجده عند كبـار بعض المستشرقين فى أمثـال جودفـروا ديموبينى Yavde Brog Demomlgnes وهو من كبـار المستشرقين وأعتاهم ، وقد أبى هذا الـرجل إلا أن يختم حياته بـأسوأ ماتختم بـه حياة ، فقد ألف كتـاباً عن

رسول الله ﷺ لم يدع شيئاً مما امتلأت به نفسه من كراهة الإسلام ونبيه إلا قاله ، والكتاب قسمان :

الأول : سيرة لرسول الله ساقها على هواه .

والثانى : زعم أنه يعرض فيه أفكار الرسول ونظراته إلى الكون والوجود ، وفيه فصل خبيث عن الحق جل جلاله ، زعم أن رسول الله ﷺ اخترع صورة الله سبحانه وتعالى وصاغها كما تصوره ، وهو يتحدث عن الحق كأنه يتحدث عن بوذا مثلاً ، تعالى الله سبحانه عما يشركون . وهذا يدعونى إلى أن أرجو إخوانى المسلمين الذين يكتبون عن الإسلام فى لغة غير العربية ألا يقولوا مثلاً Allah Segs أو Allahbit أو Allah Sogt وأرجوهم أن يقولوا بدلاً من ذلك God Sags أو Dievx dit أو Gott Sogt وذلك حتى يستقر فى عقول من يقرءون لهم المعنى الحقيقى للفظ الجلالة فى الإسلام .

وفى تلك الآيات اثنا عشر اسماً من أسماء الله الحسنى سأورد معانيها هنا كما أوردها ابن كثير حتى تستقر هذه المعانى فى النفوس كما يراها أهل السنة والجماعة :

الرحمن الرحيم : المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمن الدنيا ورحيمها ، وقد قال تعالى : ﴿ **ورَحمتى وسِعتْ كُل شىء** ﴾ [الأعراف ٧/ ١٥٦] وقال : ﴿ **كَتَبَ ربكم على نَفسِه الرحمة** ﴾ [الأنعام ٦/ ٥٤] وعندما فسر ابن كثير البسملة قال فى معنى الرحمن الرحيم كلاماً جميلاً جداً يتجلى فيه أن الإسلام حقاً دين الرحمة قال : الرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة فى رحيم . . وفى تفسير بعض السلف مايدل على ذلك ، كما تقدم فى الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال : والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة . ونقل عن ابن جرير الطبرى قوله فى تفسيره : الرحمن لجميع الخلق والرحيم للمؤمنين ولهذا

قال : ﴿ **الرحمن على العَرْش استوى** ﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته ، وقال : ﴿ **وكَانَ بالمؤمِنِينَ رحيماً** ﴾ فخصهم باسمه الرحيم . قالوا : فدل على أن الرحمن أشد مبالغة لعمومها فى الدارين لجميع خلقه ، والرحيم خاصة بالمؤمنين ، ولكن جاء فى الدعاء المشهور : رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أ. هـ وفى كلام الطبرى فى تفسيره لمعنى الرحمن كلام كثير يختلط معه المعنى ويلتوى ، وقد أشار إلى ذلك محمود شكرى الألوسى فى تفسيره الجامع المسمى روح المعانى .

ونعود إلى تفسير ابن كثير لنستكمل منه كلامه عما ورد فى الآيات فى أسماء الله الحسنى :

وقال ـ يريد الحق سبحانه ـ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك : أى المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة أو مدافعة .

وقوله « **القدوس** » قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد وقتادة : أى المبارك . وقال ابن جريج : تقدمه الملائكة الكرام .

« **السلام** » أى السالم من جميع العيوب والنقائص بكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فكأن ابن كثير يفسر السلام هنا بمعنى السلامة ، وربما كان هذا جائزاً ، ولكن الأشبه بالله سبحانه أن يكون المراد هنا هو الأمن والأمان ، أى الذى يملأ القلوب أمناً وسلاماً ، ويظل هذا الكون كله بأمنه وسلامه ، والدعاء المشهور اللهم أنت السلام ومنك السلام وبك السلام ، ومن آيات الله سبحانه الجارية على كل لسان ﴿ **أَلَا بذكر اللهِ تطمئِنُّ القُلُوبُ** ﴾ [الرعد ٣/ ٢٨] .

وقوله : « المؤمن » قال الضحاك عن ابن عباس . أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدق عبادة المؤمنين فى إيمانهم به . وهذا كلام ابن كثير وغيره من فقهاء السلف .

وقوله : « **المهيمن** » : قال ابن عباس وغير واحد : أى الشاهد على خلقه

بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقـــوله : ﴿ **والله على كُل شيءٍ شهيدٌ** ﴾ [البروج ٨٥/ ٩] وقوله ﴿ **ثُم الله شهيدٌ على مايفعلُون** ﴾ [١٠/ ٤٦] . وأرى أن المعجم الـوسيط هنـا أدق من ابن كثير فقـد قال هيمن فـلان : قـال آمين ، وهيمن على كـذا : سيطر عليـه وراقبه وحفظـه ، وهيمن الطـائر على فراخـه : رفـرف ، والمهيمن مـن أسماء الله تعـالى بمعنى الـرقيب المسيطــر على كل شيء الحافظ له ، وفى التنزيل العزيز ﴿ **مُصدقاً لِما بين يديـهِ مِن الكتِاب ومُهيمناً عليهِ** ﴾ وتمام الآية ليكتمل فهـم القارىء لها : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدقاً لما بين يديهِ مِن الكتاب ومُهيمناً عليهِ** ﴾ [المائدة ٥/ ٤٨] .

وقوله « **العزيز** » أى الذى عز كل شيء فقهـره ، وطلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال : **الجبار المتكبر** ، أى الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمتـه كما تقدم فى الصحيح « العظمة إزارى والكبريـاء ردائى فمن نـازعنى واحداً منهما غلبتـه » . وقـد علق على ذلك نـاشر طبعـــة دار الشعب من تفسير ابن كثير بأن هـــذا الحديث وارد فى كتـاب اللباس من سنن أبـى داود ، باب ماجـاء فى الكبر . وسنن ابن ماجـة : كتاب الزهـد . باب البراءة من الكبر والتـواضع الحديث ٤١٧٤ : ٢/ ١٢٩٧ ومسند أحمد بن حنبل عن أبى هريرة ٢/ ٣٧٩ و ٤١٤ و ٤٢٧ و ٤٤٢ .

ولنا فى الاستشهاد بأمثال هذه الأحاديث نظر .

فإننا إذا تأملنا ماسلف وما سيجىء من صفات الله فى القرآن وجدناها كلها تعود بـالخير على البشر ، كما رأينا فى الرحمن الـرحيم والسـلام والمؤمن والمهيمن ، وهذا التفسير العزيز تفسير يخرج عن هذه القاعدة ويجعل الله سبحانه يتعالى على الناس بعزته وكبريائه ، ولا حاجة بالله إلى شيء من ذلك ، فليس من الضرورى أن يخاف الإنسان من الله لكى يؤمن به ، بل لابـد أن يكون الإيمان بالله تابعاً من محبته ، حتى الخوف من الله ليس فى الحقيقة خـوف منه ، بل خوف من العقاب

فى حالة الخطأ المقصود والعصيان الجاحد . وقد آن الأوان لأن نتخلى عن هذه النظرة التى أولع بها نفر من الفقهاء القدامى ، وخير لنا ألف مرة أن نقول إنه سبحانه العزيز أى رمز العزة ، فهو يريدنا أن نكون من أهل العزة ، وما نقول هذا من عندنا . ولكننا ننظر إلى قول الله تعالى فى سورة المنافقين :

﴿ يقُولُون لئِن رَّجعْنا إِلى المدينة ليُخْرِجَن الأعز مِنها الأذلّ ولله العزةُ ولرسُوله وللمؤمِنين ولكِنّ المنافِقِين لا يَعلمُون ﴾ [المنافقون ٦٣ / ٨] .

فهنا ، وفى أثناء غزوة المريسيع الحافلة بالأحداث والعظات ، نرى أن المنافقين من أهل المدينة يسعون فى الفساد بين المؤمنين ، ويحسبون أنهم أعز من المؤمنين لأن المدينة بلدهم ، فذكر الله المؤمنين بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فهنا يرتفع المؤمن بإيمانه ويكون له نصيب من عزة الله سبحانه ، وتؤكد الآيات أن المنافقين لا يعرفون هذه العزة لأنهم لا يؤمنون .

ويؤكد هذا المعنى قوله جل جلاله فى سورة فاطر : **﴿ مَن كان يُريد العزةَ فَلِله العِزة جَمِيعاً إلَيهِ يَصْعد الكَلِمُ الطَّيبُ والعَمل الصالِحُ يرْفعُه ﴾** [فاطر ٣٥/ ١٠] فهنا ترى كيف أن العزة لله كلها ، ولكنه يشرك فيها من عباده أصحاب الكلم الطيب والعمل الصالح .

وغياب هذه المعانى الجميلة عن أهل العصور الإسلامية المتأخرة ، هو الذى هبط بهم وأذلهم ومكن من رقابهم العبيد والمماليك ، ولو أخذت أهل هذه العصور العزة بإيمانهم لما رضوا بأن يتحكم فيهم ويذلهم رجال مثل كافور وبكتمر وبليغاً وأمثالهم .

بل لقد آن أن نغير هذه النظرة ومايتصل بها من تطامن إلى الأرض وتهافت الهمم ، لأن الإيمان بالله عزة والإيمان بالوطن عزة والإيمان بالعمل الصالح عزة لأنه يرفع مقام الإنسان ويجعل له نصيباً من عزة الله وهى عزة مابعدها عزة . . .

ومن أمثلة هذه النظرة القديمة قول قتادة فى كلام ابن كثير الذى نتابعه هنا

الجبار الذى جبر على مايشاء . وأفضل من هذا قول ابن جرير الطبرى : الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم (التفسير ٢٨/ ٣٦) وكبرياء الله سبحانه شبيهة بعزته ، وهو عندما يصف نفسه بالمتكبر يريد أن نرى فيه رمز العزة والترفع عن الدنيا والاعتزاز بالايمان والفضائل . . .

ثم يقول ابن كثير : وقوله ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البارِئُ المصَوِّرُ ﴾ الخلق : التقدير ، هو **الخلق** برءاً وبروءاً . برأ الله الخلق : خلقهم فهو بارىء (المعجم الوسيط) . .

والمصور : أى الذى ينفذ مايريد على الثقة التى يريدها ، وهنا أيضاً نرى ابن كثير يضيف إلى المعنى لمحة لا لزوم لها ، وكان أولى به أن ينظر إلى قول الله سبحانه فى سورة الانفطار :

﴿ يَآ أَيُّهَا الإِنسَانُ ماغَرَّك بِربكَ الكرِيمِ الذِى خلقكَ فسواك فَعدلكَ فِى أىِ صورةٍ ماشاءَ ركَّبكَ ﴾ [الانفطار ٨٢/ ٦ ـ ٨] .

فهنا نجد أن معنى جميلاً لوصف الله سبحانه لنفسه بالمصور .

والمسلمون يصفون أنفسهم بأنهم أهل التوحيد وهم بالفعل أهل توحيد الله وسنرى بعد قليل حكمة الله فى الأمر بتوحيده المطلق الذى لا تشوبه شائبة من شرك أو نسبة الولد إليه ، والمعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد وهم الذين جعلوا التوحيد علماً ، وفى أثناء النزاع بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة والجماعة ظهر علم التوحيد على مذهب أهل السنة والجماعة ، وتطور مع الزمن ، ولكننا إذا نظرنا إلى كلامهم فى هذا العلم وجدنا فيه غموضاً وتكلفاً لا معنى له حتى رجل استنار ذهنه بما عرف من العلم الحديث واشتهر بما ميزه الله به من الذكاء وحسن الفهم نقرأ رسالة التوحيد التى وضعها كما قال للتلامذة نقرؤه فلا نفهم منه لماذا أراد الله من عباده أن يوحدوه التوحيد الكامل ؟ مع أن الله سبحانه ليس فى حاجة إلى شىء من أحد ، فلابد أن يكون هذا التوحيد راجعاً علينا نحن

بالخير ، وهذا هو الحق ، لأن الله سبحانه يـريد أن نلتف حوله لأنه المثل الأعلى فى كل شىء ، وما أوقع أهل الأديان فى البلاء والشقاء قبل الإسلام إلا الاختلاف فى الله سبحانه وطبيعته واختلافهم فى طبيعة عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهل هو إنسـان أم إله ، وهل لـه طبيعة أم طبيعتان ؟ ومـا نسبة الطبيعـة للبشرية إلى الإلهية فيـه ؟ مع إيمانهم جميعاً بأنه سبحـانه الخالق البارىء المصور ، فما حـاجته بعد ذلك إلى أن يشركه أحد فى خلقه أو يتفق مع جلال الخالق أن تكون له علاقة أبوة أو قرابة مع أحد ؟ .

والحق أن الإسلام بتـوحيده المطلق قـد أخرج البشر من بـلاء عظيم ، وأراد لهم أن يجتمعوا على كلمة سـواء ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفـرقوا ولننظر فى قول الله سبحانه .

﴿ قُل ياأهل الكِتـاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بَيننـا وبينكم ألَا نعبُد إلا اللهَ ولا نُشرك بهِ شيئـاً ولا يتخِذ بعضنـا بعضاً أَربابـاً مِن دُون اللهِ فإن تَولواْ فقُولوا اشهدُوا بِأَنا مُسلمُون ﴾ [آل عمران ٣ ـ ٦٤] .

وهل كان عسيراً على أهل الكتـاب أن يستجيبوا لدعوة الله الكـريمة لينجوا بأنفسهم من بلاء الخلاف فى الله ؟ وصدق الإمام محمد عبده عندما قال فى رسالة التوحيد : والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانـه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كلٍ بعمله قاض عليه فى صوابه وخطئه (ص ١٨) . .

ولكننـا اختلفنـا فضللنـا وجـاء وقت على المسلمين اختلفـوا فى أسماء الله وصفاته وسـاورتهم نزعات الشياطين وشهـوات السلاطين فكان مانـرى مما جرى عليهم من بلاء .

ومـا كـان بحـاجـة إلى خـلاف فإن القـرآن أوضح مـن الشمس فى هـذا

الخصوص فهو سبحانه الخالق الحق وهو وحده مصدر كل شيء وضمان كل خير وكل صفة حسنة للإنسان فإن مصدرها الله ، فالفضائل لنا صفات ولكنها في الله أسماء ، فالإنسان يمكن أن يكون كريماً ولكن الكريم هو الله والإنسان يمكن أن يكون رحيماً ولكن الرحيم هو الله ، أو قوياً ولكن القوى هو الله ، وخير مانختم به هذا الفصل عن التوحيد وفضائله على البشر هو قوله سبحانه :

﴿ ولله الأسماء الحُسنى فادعوهُ بِها وذرُوا الذين يُلحِدُون فِي أسمائِهِ سيُجزون ماكانُوا يعملونَ ﴾ . [الأعراف ٧/ ١٨٠] .

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إنّا أَرْسَلنَاك شَاهِداً ومُبَشّراً وَنذِيراً وَدَاعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة الأحزاب : الآيتان ٤٥ و ٤٦]

فى حديث نبوى شريف أذكره بمعناه دون نصه يقول الرسول الأكرم لعمر ابن الخطاب : إنك لن تؤمن حتى أكون أحب إليك من نفسك ، وفهم عمر مراد الرسول واجتهد فى العبادة والعمل وخدمة الإسلام وأمته ونظر إليه الرسول مرة وقال الآن أمنت ياعمر !

وطوال السنوات التى أنفقتها فى خدمة سيرة المصطفى أحسست إحساساً متزايداً بحب له أعمق فأعمق يوماً بعد يوم ، لأن نواحى الجمال فى شخصيته ونفسه وفكره وكلامه لا تحصى ، وأبسط ماأقوله لك : إنه كان بالفعل من أجمل الرجال هيئة . فقد كان وضىء الوجه باهر الهيئة وما رآه إنسان إلا أحبه ، لقد وهبه الله عينين واسعتين فيهما دعج وعمق فى النظرة ، وشعراً كثيراً كان يمشطه ويرسله خلفه وأحياناً يرسل بعضه على منكبيه ، وقد وصفه لنا على بن أبى طالب وأنس بن مالك وأبو هريرة ، والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين وغيرهم كثيرون وهؤلاء كانوا أكثر الناس احتكاكاً به ، وكلهم أجمعوا على اكتمال صورته ، وقالوا إنه كان وسطاً فى طول قامته عريض المنكبين أبيض اللون مشرباً بحمرة وافر الشعر جميل الصوت كثيف اللحية ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم

أصغت إليه الآذان والقلوب ، وكان خطيباً بليغاً ، وكان واسع الجبين ومن أجمل ماقرأت عن أوصافه أنه كان له نور يعلوه ترتاح العين لمرآه ، والذى استوقف نظرى هو أن الذين وصفوه وقفوا طويلاً عند شعره الجميل الوافر ، وقد روى ابن إسحق عن البراء بن عازب فقرة فى حجم صفحة كلها عن شعر الرسول الأكرم .

وعندما تطيل القراءة فى سيرة المصطفى تحس بهذه الخصائص الشكلية ، وأنا عندما أكتب عن الرسول فإننى أراه فعلا ببصرى وبصيرتى جميعاً ، أجل ، أراه وأتحدث إليه دون صوت ، وأشكو له همومى ، وأسأله بعد الله العون والمشورة ، ويخيل إلى أننى أرى بعين البصيرة وجهه الكريم يبتسم ، وعندما نزلت بى نازلة قاصمة ، وطال بى السهر وضاقت بى الدنيا جلست منهد الحيل ، وأحسب أننى غفوت ، وأحسست كأن يداً كريمة تربت ظهرى ، وصوتاً رقيقاً عميقاً بالغ الحنان يقول انهض يافلان فلا بأس عليك ، الله سبحانه أعطاك ثم أخذ منك ، وقد أحسن إليك عندما أعطى ، وأحسن إليك عندما أخذ ، فما يحزنك من ربك الودود ذى الرحمة ؟ انهض إلى عملك وضع ثقتك كلها فى الله ، وأنا معينك إن شاء الله . . وصدق أو لا تصدق ، لقد نهضت وكأننى عوفيت من مرض طويل ، وسرت فى طريقى شيئاً فشيئاً خف مابى وزال كربى ، ومن ذلك الحين لا أذكر أنه مر بى يوم لم أقرأ فيه شيئاً من القرآن وشيئاً من السيرة ، وكان أبى يقول إنه رأى الرسول الأكرم فى منامه فقلت له صفه لى ، فقال لا أستطيع لأننى فى الحق لم أره رؤية بصر بل رؤية بصيرة ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك : إننى رأيت نوراً باهراً أحسستُ وأنا نائم أننى أمام رسول الله صلوات الله عليه . . .

وبالإضافة إلى جمال الشكل وجلال الصورة كان عليه الصلاة والسلام فى الغاية من النظافة وحسن المظهر ، يغتسل ويغير ثوبه مرة ومرتين فى اليوم ، وكان

يحب أن يغسل ثوبه بيده ويكنس بيته بيده ، وكان يتطيب ويحب ألا يظهر للناس إلا فى أبهى صورة ، ومن جميل ماأحكيه لك فى هذا المقام أن الرسول ﷺ عندما رتب أمر هجرته إلى المدينة طلب إلى عبد الرحمن بن عوف أن يشترى له ولأبى بكر ثوبين أبيضين وينتظره بهما على بعد من المدينة ، وفى صباح يوم دخوله صلى الفجر وسبح الله ماشاء له التسبيح ثم اغتسل مرة أخرى ولبس ثوبه الأبيض وتعمم بعمامة بيضاء جميلة ، وكذلك فعل أبو بكر وعلى هذه الصورة الجميلة لقى أهل المدينة ، ولم يعرف الناس من رسول الله ومن أبو بكر إلا عندما رأوا أبا بكر يظلله ويمنع عنه الشمس فعرفوا أنه رسول الله ، وكان آخر شىء طلبه قبل أن يدخل فى سياق الموت هو السواك أشار إلى أم المؤمنين عائشة فناولته إياه فغسل أسنانه ثم مضى للقاء ربه .

***

والآيات التى اتخذتها محوراً لهذا الحديث ، تحدد لنا صفاته الأساسية ورسالته وحدودها ، وماينبغى علينا نحوه ، والإسلام يقوم أساساً على وحدانية الله ، والوحدانية الإلهية موصوفة ومحددة بأجلى بيان فى القرآن الكريم . وقد تحدثنا عن الله سبحانه وعن القرآن الكريم ، وهذه المرة نتحدث عن رسول الله الذى اختاره سبحانه ، وأعده للرسالة ، وكمله بالفضائل والملكات والمواهب والقوى التى تمكنه من حمل الرسالة وإبلاغها الناس على خير وجه ، وهنا وعندما نتحدث عن رسول الله ﷺ نجد أن القرآن معجزة الله الكبرى ، ومحمد نفسه معجزته التالية ، فأنت كلما قرأت عنه زدت له حباً به وإعجاباً ، وتبينت شيئاً فشيئاً أنه صلوات الله عليه معجزة حملت معجزة ، وقامت بمعجزة كما سنرى ، والآن نأتى بالآيات على تواليها لنرى مصاديق ذلك : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً** ﴾ [الأحزاب ٣٣/ ٤٥ ـ ٤٧] .

ولفظ « شاهد » الذى بدأ به الله سبحانه وصف رسوله من الألفاظ القرانية أى تلك الألفاظ التى تأتى فى القرآن بمعان إسلامية متعددة كلها تحمل شيئاً من التقى أو معنى من معسانيه مثلـه فى ذلك مثـل الإيمان واليقين والبينـة والقلب والنفس والروح .

والشاهد فى القاموس الوسيط هـو من يؤدى الشهادة والدليل ، ولكننا نقرأ فى تفسير ابن كثير ، وقوله : شاهداً أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيـامة « وجئنا بك على هؤلاء شهيـداً » كقوله ﴿ **ولتكُونوا شُــهداءَ على الناسِ ويكُــون الرسول عليكُم شهِيداً** ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣] (تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢١) وأرى أن ابن كثير لم يضع يـده هنـا على المعنى المراد فى تلك الآيات وإلا فكيف سنكـون نحن المسلمين شهداء على النـاس ؟ وأقرب إلى المعقول أن يكـون الشاهـد هنا بمعنى الدليل والمثل . فيكـون الرسـول دليلنا والمثل الذى نقتدى به ، ونكون نحن أدلة للناس ومثلاً ، وبقية الصفات الواردة فى الآيـة واضحة ، ولكننـا نقف لحظـات عنـد قولـه : « سراجـاً منيراً » فإن الله سبحانه يريـد منا أن نتخذ الرسول سراجاً ينير لنـا سبيل الحياة ، وهو إذا كان فى حياته مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه ، فهـو بعد وفاته وإلى آخر الدهر سراجنا المنير الذى نتبع هداه وخطاه ونتخذها مثلاً (شاهداً) فى كل مانعمل .

وهذه هى الصفات التى اختارها الله لرسوله وهى الأشبه به ، فلا يجيئنا بعد ذلك رجل ويصف رسـول الله ﷺ بأنـه رئيس دولة ، لأن هـذه وظيفـة سياسيـة ورئيس الدولة فى الغالب يهوى الرئاسة ويسعى إليها ، وهو قد يخطىء أو يميل مع الهوى ورسـول الله أرفع من هــذا كلـه ، وكـذلك لا يجوز أن نقـول : محمـد السياسى أو الدبلوماسى ، لأن السياسـة فيها خداع وسعى إلى غايات دنيوية ، والدبلوماسية تدخل فيها المداهنة والكذب والخداع ، وكل شىء جائز فى سبيل الغايـة عند أهـل السياسـة والدبلومـاسية ، ولا يصح أن نقول : محمـد القائد

العسكرى أو عبقرية محمد العسكرية ، لأن وظيفة القائد هى تحطيم الأعداء وتهديم ديارهم والحصول على النصر بأى سبيل ، ورسول الله بعيد عن هذا كله . ومن يقرأ حياته يجد أنه قاد الناس فى الحرب ولكن فى حدود خصائصه كشاهد ونذير وبشير وداع إلى الله بإذنه .

حتى بشرية الرسول ﷺ مشروطة دائماً برسالته ﴿ **قُلْ إنما أَنَا بشرٌ مثلُكُم يُوحَى إِلى أَنَمَا إلهُكُم إِلـهٌ واحدٌ. فمن كَان يرجُو لِقاء ربـهِ فليعمل عملاً صَالِحاً . ولا يُشرِكْ بعِبادةِ ربهِ أَحداً** ﴾ [الكهف ١٨/ ١١٠] .

فالبشرية هنا مرتبطة فى محمد بالوحى الذى يتلقاه ، والوحى الذى يتلقاه لبابه أن إلهنا واحد ، ويقول بعد ذلك « فليعمل عملاً صالحاً » وأصلح العمل عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به .

وفى سورة الإسراء نقرأ : ﴿ **قُل سُبحان ربى هَلْ كُنْتُ إلا بَشراً رسُولاً** ﴾ [الإسراء ١٧/ ٩٣] ولكن اقرأ معى هذه الآيات ﴿ **قُلِ لا أملِكُ لنفسِى نَفْعاً ولا ضَراً إِلا ماشاء اللهُ . ولو كُنت أعلمُ الغَيب لا سْتكْثرت من الخيرِ ومامَسنى السُوء . إِن أنا إِلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يُؤمنُون** ﴾ [الأعراف ٧/ ١٨٨] .

فهنا يقرر الرسول أنه لا يعلم الغيب ، لأن معرفة الغيب لله وحده ، والرسول لا يشرك الله فى صفة من صفاته ، وهو يقول ببساطة تروع النفس ﴿ **لو كُنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاسْتكْثرتُ من الخيرِ ومامَسنيِ السُوء** ﴾ وإنه لا يملك لنفسه نَفْعًا ولا ضراً وإنه نذير وبشير لقوم يؤمنون ، فتعجب معى كيف أن تاريخنا وعالمنا الإسلامى حافل بناس وضعوا أنفسهم فوق مرتبة الرسول حاشا لله وزعموا أنهم يعلمون الغيب ، وأنهم يحمون أنفسهم وغيرهم من السوء ، لأن لهم عند الله سبحانه مكانة تجعلهم أصحاب شفاعة ، وتدخل فى المشيئة ، ومنهم من قال إنه يمشى على الماء أو يطير فى الهواء . وهم يستنزلون من الله البركات ،

ويصنعون المعجزات ، وما من قرية فى عالمنا الإسلامى إلا وفيها ضريح لرجل أو أكثر لإنسان من هؤلاء ، وكلهم كان يزعم أنه يأتى من الخوارق والمعجزات مالم يتحدث به الرسول عن نفسه ، ومن المؤمنين غير المتقين طبعاً من يزعمون أن الشيخ الفلانى يرعى الوجه البحرى ، والشيخ العلانى يحمى ببركاته الوجه القبلى ولولاه لسقطت السموات على الأرض ، بل هناك من يزعمون أن لرسول الله ـ وحاشا ـ حديثاً يقول فيه ما معناه : « إن لله عباداً أعز عند الله مكاناً من الرسل والأنبياء بل يحسدهم الأنبياء والشهداء والصديقون لمكانهم من الله » ، ونتيجة لهذا أن عالمنا الإسلامى هذا يحكمه هؤلاء الأموات ، واقرأ ياسيدى طبقات الصوفية للشعرانى لترى أنهم يقولون ـ ضمناً لا صراحة ، أعز مكاناً عند الله سبحانه من رسول الله ، فإن الله لم يكشف لرسوله ومصطفاه الغيب ، ولكن حضراتهم يعلمون الغيب ، واسمع هذه الحكاية التى لا تصدق عن نظرة هؤلاء المسمون بالأولياء إلى أنفسهم ، ورفعهم مكانهم فوق مكان المصطفى صلوات الله عليه ، والحكاية فى كتاب أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد وهو أبو سعيد بن أبى الخير الميهنى ، وهو من صوفية فارس من أهل القرن السادس الهجرى ، وكانت فارس إلى ذلك الحين أهل سنة (ص ١٢٨ ـ ١٢٩) ، وقال أبو عثمان الحيرى : « رأيت فى منامى ذات ليلة أن الشيخ أبا سعيد يتحدث فى زاويتى ، وكان صاحب الشرع المصطفى صلوات الله عليه جالساً على الجانب الآخر من المنبر ، ولم يكن الشيخ يلتفت إليه وجال بخاطرى أنه لأمر عجيب ألا ينظر الشيخ إلى صاحب الشرع ، فالتفت إلى الشيخ فى الحال ، وقال لى ليس هذا وقت النظر إلى الأغيار هذا وقت الكشف والمكاشفة » أعاذك الله وأعاذنا من بلاء هذا وأمثاله .

***

ولقد نسب أهل العصور الماضية إلى الرسول الكريم معجزات كثيرة . ولكن

معجزته الكبرى فى رأيى هى إتمامه عمله الذى غير وجه التاريخ على النحو الذى أتمه فى عشر سنوات هجرية تقريباً ، لقد أوحى عليه الرسالة وقال له :

﴿ فإن تَولوْا فإنَّما عليك البلاغ المبينُ ﴾ [النحل ١٦/ ٨٢] .

﴿ فِإنك لا تُسمعُ الموتَى ولا تُسمع الصُم الدُعاء إِذا ولوا مُدبرِين وَما أنت بهادِ العُمى عن ضـلالتِهم . إِن تُسمُع إِلا من يُـؤمن بِـآيـاتِنـا فهُم مُسلمُون ﴾ [الروم ٣٠/ ٥٢ ـ ٥٣] .

﴿ من يُطع الـرسُـول فقد أطـاع الله ومن تـولَّى فمَا أرسلنـاك عَليهمْ حَفِيظاً ﴾ [النساء ٤/ ٨٠] .

﴿ قد جاءكم بَصَائِرُ من ربكُمْ ، فمَنْ أبَصَر فلِنفسِه ومن عَمى فَعليْها وما أنَا عَليْكُمْ بحفِيظٍ ﴾ [الأنعام ٦/ ١٠٤] .

﴿ فذكر إِنما أنت مُذكرٌ . لسْت عَليهمْ بمصَيطِرٍ ﴾

[الغاشية ٨٨/ ٢١ ـ ٢٢] .

﴿ فلعَلكَ باخِعٌ نفسَك على آثارِهِم إن لمْ يؤمِنُوا بهذا الحدِيثِ أسَفاً ﴾ [الكهف ١٨/ ٦] .

وآيات أخرى كثيرات حددت رسالة الرسول بالبلاغ . إن عليه البلاغ وعلى الله الحساب .

وهذه هى حدود رسالة محمد صلوات الله عليه .

وكل الأنبياء قبل رسول الله وقفوا عند حد التبليغ إلا محمدا .

فقد أبت نفسه العظيمة إلا أن يبذل أقصى جهد فى إقناع الناس بالحق . وإذا قرأت أخبار جهاده مع أهل الشرك فى مكة زدت بهذا الرسول إعجاباً له ومحبة ، فهذا رجل لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً ، إنه لا يدع أحداً إلا ذهب

إليه ودعاه . ودخل مرة على عبد الله بن أبى بن سلول ، وطفق يقرأ له القران فيقول هذا الجلف القاسى : يامحمد ابق مكانك فى دارك ، ومن أحب أن يسمع منك فليذهب إليك ، ولكن لا تدخل على الناس وترغمهم على سماعك ، وكان رسول الله يستطيع أن يخسف به الأرض ، ولكنه صمت ثم نهض وسار .

وكان المكيون يؤذونه ، وهو يستغفر لهم ويستمر فى الدعوة حتى يحار أعداؤه فى أمره وهو واحد ، وهم كثيرون وعساك لا تحسب أن المكيين المكابرين كانوا كلهم أغبياء ولا رجالاً صغاراً ، فقد كان فيهم فى الحق رجال ذوو عقول وأفهام وأحلام : وكانوا يجادلون الرسول جدلاً يدل على ذكاء ، فما زال بهم حتى ألجأهم إلى الحائط وملأ قلوبهم رعباً منه مما يقول ، وأبو جهل الذى يزعم الناس عندنا أنه كان أحمق معتوهاً ما كان فى الحقيقة إلا سيداً جاهلياً واسع العقل ، وكل عيبه أنه كان يخشى على مركزه وماله من الإسلام ، ورسولنا ﷺ أرهقه بإصراره على دعوته ، والرسول كان يسأل الله أن يعز الإسلام بأحد العمرين ، وعمر الأول هو ابن الخطاب الذى أكرمه الله بدخول الإسلام ، والثانى هو أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المشهور بأبى جهل ، وهذا الرجل الذى طبع الله على قلبه انتهى به الأمر إلى الخوف من رسول الله مخافة أن يدعوه ، وفى النهاية وقرب الهجرة إلى المدينة يراه الرسول فيسرع إليه ويقول : أما آن لك ياأبا الحكم أن تفتح للإيمان قلبك ، ويكون رد الرجل المفزوع : أما تريد أن نقول إنك بلغت فقد بلغت وولى هارباً وهل قرأت قول الله فى سورة المدثر :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر ٧٤/ ٤٩ ـ ٥١] .

وهل سألت نفسك من هم الحمر المستنفرة النافرة التى ولت هاربة ؟

هم عتاة مكة الأغنياء المستكبرين ، ومن هو القسورة ؟ من هو الأسد الذى فروا أمامه ؟ إنه ياسيدى محمد رسول الله ﷺ . إنه محمد الذى زلزل قلوب

الأغنياء بإيهانه وبسالته وإصراره وذكائه وبلاغته .

إنه يضرب لنا بهذا مثلا فى الشعور بالواجب والقيام به .

فأين نحن من هذا المثل العظيم ؟ ولكننا نزعم أننا على سنة محمد وأين نحن من سنة محمد ؟

ثم تكون الهجرة إلى المدينة ويبدأ العمل الشاق فى بناء الأمة وهدايتها وضرب المثل الأعلى لها ، وهنا يبذل محمد من الجهد مالا يصدقه عقل ، فخلال عشر سنوات غزا محمد أو أرسل أربعاً وثمانين غزوة وسرية وبعثاً ، أى بمعدل أكثر من ثمان من المغازى فى السنة الواحدة ، ولا تتصور أن أصدر مرة أمراً إلى أحد بالاشتراك فى المغازى ، لقد كان يضرب للناس المثل بنفسه فيستعد للغازية ، ثم يخرج بنفسه وينتظر خارج المدينة يوماً ليتلاحق به الناس ، وفى سراياه لم يكره أحداً على الخروج . . بل كان يختار قائد السرية ويعطيه تعليماته ويكله بعد ذلك إلى نفسه ، فإذا خرجت السرية ظل رسول الله قلقاً عليها مترقباً أخبارها ، وأحياناً كان الاهتمام بالمجاهدين يدفعه إلى أن يخرج إلى خارج المدينة يستطلع أخبار جند الإسلام ، وفى أثناء ذلك كان يتعهد أهل الخارجين فى السرية بالعناية والرعاية ويوحى إلى أهل المقدرة من أصحابه بأن يرسلوا لأهل الرجل وأولاده الطعام ، فإذا عادت السرية وعرف الرسول من استشهد ومن جرح ، ذهب للتعزية والمواساة بنفسه . وأحياناً تخرج سريتان فى وقت واحد فيكون تفكيره فى الاثنتين ، وعندما أصيب أهل سرية بئر معونة وجد الرسول عليهم وجداً شديداً حتى كان يبكيهم فى صمت ، ولم يزل حتى عاقب من قتلوهم .

وفى أثناء ذلك كان يتلقى الوحى ويبلغه للناس ، ويملى الآيات على كتابه ويشرح للناس معانيها ، فإذا كانت فى الوحى عبادات قام معلماً وشارحاً ومبيناً للناس حدود الله . وكان يقضى الوقت كله فى حركة دائمة ، فما كان محمد ينفق دقيقة من وقته دون عمل ، فهو دائماً فى شغل بشأن من شئون الإسلام وأمته ،

ومامرض مؤمن إلا عاده ، ومامات منهم واحد إلا مشى فى جنازته وحضر دفنه.

وفى أثناء ذلك كله كان ذهنه فى كل ركن من أركان الجزيرة وفى كل ناحية من نواحى الدنيا ، لأنه كان يحس أن واجبه هو إدخال أهل الأرض جميعاً فى دين الله وهذا كله فرض عليه أسلوباً من الحياة لا يقتدر عليه إنسان إلا بعون عظيم من الله . فقد كان منظماً إلى أقصى مايمكن أن يكون عليه البشر من تنظيم الوقت والمحافظة على الدقائق ، والذين يصورون لك رسول الله جالساً ساعات ومن حوله أصحابه لا يعرفونه . والذين ينسبون إليه الكلام الكثير يعرفونه أقل ، فقد كان رسول الله يحسن الكلام ويحسن الصمت ، ويصمت طويلاً جداً ليصغى ويسمع ويعرف ، وكان إذا تكلم قصد إلى الغاية بأقل لفظ . أما بلاغته فى الكلام فأنت تعرف عنها أكثر منى ، والذى أحب أن أضيفه هنا هو بلاغته فى الصمت وهى بلاغة لم يعرفها المسلمون .

وهذا الرجل الذى لم ينم منذ وصل المدينة أكثر من ثلاث ساعات أو أربع فى اليوم كان أملك الناس لنفسه . فى حياته ماشكا ولا ركن إلى راحة أو تشهى طعاماً بل كان يأكل ماحضر دون تكلف ، والذين يقولون إنه خرج من الدنيا دون أن يشبع من خبز الشعير زهداً فيه يتحدثون عن رسول آخر لا عن رسول الله . ولقد حكى خادمه أنس بن مالك أنه لم يرفع صوته على أحد طوال حياته

ولا نطق بكلمة تجرح شعور أحد ممن حوله ، وكان الناس يثقلون عليه وينادونه من خارج حجراته ، وهو مستريح فى غرفته فلا يغضب ويخرج إليهم فيطعموا ثم يظلوا فى البيت ، وكان لفرط حيائه لا يأذن لنفسه فى أن يلفت نظر أولئك الناس إلى سوء فعلهم حتى حباه الله بفضله من ذلك كله بآيات كريمة فيها تهذيب أولئك القوم وتهذيب للأمة كلها ، والذين يزعمون أنهم يتبعون سنة المصطفى ينسون أن رسول الله ﷺ لم يطلق امرأة فى حياته حتى عندما كان نساؤه يغضبنه لم يفكر فى الطلاق وعمر طلب إليه أن يطلقهن جميعاً ، ولكن رسول الله

صبر وكظم غيظه حتى أتاه الله بالحل الأمثل .

وهذا كله كلام أسوقه لأولئك الذين يزعمون أنهم أهل السنة السمحاء وأنهم على نهجها ليعلم الكثيرون منهم أين هم من السنة التى يتحدثون عنها وربما عاشوا منها .

و إليك حكاية عن رسول الله أحكيها لك عن الواقدى لتعرف أى رجل كان وكيف كان منهجه فى إقناع الناس بفضائل الإسلام ؟ لا بالكلام ولكن بالقدوة الصالحة يضربها فتكون أبلغ من كل مقال .

كلنا نعرف صفوان بن أمية وماكان من سوء موقفه من الإسلام وخاصة يوم الحديبية ، حتى ليعد من أئمة الكفر والعناد ، فلما فتحت مكة أيقن الرجل بالهلاك على يد الرسول فهرب إلى الشعيبة ليفر إلى الحبشة ، وذهب صاحبه وهب ابن عمير ، وكان أيضاً من عتاة أهل الكفر ، ولكن رسول الله عفا عنه فأسلم ، وأكد وهب بن عمير لصفوان أن رسول الله سيعفو عنه إذا جاءه ، وقال مخاطباً صفوان جعلت فداك ! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس ! وأكد له أن رسول الله وعده بأن يؤمنه ، وأتى معه صفوان و إنه لخائف يرعد ، فلما وصل مكة كان رسول الله يصلى بالمسلمين العصر . فجلس ينتظر ، فلما لقى رسول الله قال : يامحمد ! إن وهب بن عمير جاءنى ببردك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك : فإن رضيت أمراً و إلا سيرتنى (أمهلتنى) شهرين . فقال : انزل أبا وهب (كنية صفوان) قال : لا والله حتى تبين لى ، قال : بل تسير أربعة أشهر (كان قد طلب مهلة شهرين فأعطاه الرسول أربعة) فنزل صفوان ، وخارج رسول الله ﷺ إلى معركة هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر ، وأرسل إليه الرسول يستعير سلاحاً (وكان من حق رسول الله أن يأخذ منه كل سلاحه) فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها فقال (صفوان) طوعاً أم كرهاً ؟ قال رسول الله ﷺ عارية مؤداه . فأعاره ، فأمره رسول الله أن يحملها إلى حنين .

فشهد حنيناً والطائف ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة بعد نصر حنين فبينما رسـول الله ﷺ يسير فى الغنائم ينظـر إليها ومعـه صفوان بن أميـة ، جعل صفوان ينظر إلى شعب (حظيرة صغيرة) ملىء نعما وشاء رعاء ، فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يـرمقه ، فقال : أبا وهب ! يعجبك هـذا الشعب ؟ فقال نعم ! قال : هو لك بكل مافيه . فقال صفـوان عند ذلك : ماطابت نفس أحد بمثل هـذا إلا نفس نبى . أشهـد أن لا إله إلا الله وأن محمـداً عبـده ورسولـه ! وأسلم مكانه (مغازى ٢/ ٨٥٤ـ ٨٥٥) .

أعرفت الآن من هو محمد ؟ إننى لو أمضيت أحكى أياماً ماأنتهيت ولا أنت شبعت ، فإن حديث محمد ﷺ أجمل حديث وأحفل حـديث بالموعظة والحكمة والخير. وخير ما أختم بـه هذا الحديث عن رسول الله الرحمة المهـداة تلك الآيات التى خاطب الله بها رسوله الكريم : ﴿ **فبما رَحْمةٍ من اللهِ لنْت لهُم ولَو كُنت فظـاً غليـظ القلب لانفضـوا مِن حـولِك فـاعفُ عنهُـم واستغفـرْ لهُمْ . وشاورهم فِى الأمرِ فإذا عزمت فتوَكل على الله إِن اللهَ يُحبُ المُتوكلِين** ﴾

[آل عمران ٢/ ١٥٩] .

الآن وأنا أختم هذا الحديث أحس اليد الكـريمة تربت ظهرى ، ويخيل إلىّ أننى أسمع الصـوت الرقيق العميق بـالغ الحنان يقـول : انهض يافـلان لا بأس عليك وربك الكـريم أعطاك ، وربك الكـريم أخذ منك ، وقـد أحسن إليك عندما أعطى ، وأحسن إليك عندما أخذ فما يحزنك من ربك الودود ذى الرحمة ؟ انهض وضع ثقتك كلها فى الله ، وأنا معينك إن شاء الله !

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقلنا اهْبطُوا بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عَدوٌّ وَلَكُمْ فى الأَرض مُسْتَقرٌّ وَمَتَاعٌ إلىٰ حين.فتَلقىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كلماتٍ فتَابَ عَليهِ إنّهُ هو التَّوّابُ الرَّحيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة البقرة : الآية ٣٦،]

حديثنا هذه المرة عن آدم عليه السلام وخروجه من الجنة ــ عالم الخلد وهبوطه إلى الأرض ـ عالم الصراع والتعب والشرور والموت .

والحكاية واردة فى التوراة والعهد القديم .

ولكن شتان ما بين الصورتين .

فهنا فى القرآن وفى كلام موجز بديع ، نرى الوجه الجميل لمأساة الهبوط على الأرض ، هنا نجد الله الرحيم يرفق بآدم ولا يغضب عليه ، وإنما يتوب عليه ويزوده بكلمات مباركات ، فيهبط إلى الدنيا مغفوراً له مرضيًّا عليه من ربه .

وعندما يضل بنو آدم ويفسدون فى الأرض وتشاء رحمة ربك أن تطهر الحياة

على الأرض بالطوفان الذى أهلك الفساد وأهله ، واستبقى نوحاً لكى يكون تجديد الحياة على الأرض على يديه يقول سبحانه :

﴿ قِيل يانُوحُ اهبطْ بسلَام مِنا وبركاتٍ عَليكَ وعَلى أُممٍ ممَّن مَعك . وأُمم سنمتِعهُم ثم يمسهُم منا عذابٌ أليمٌ ﴾ .

[هود ١١/ ٤٨]

فهنا أيضاً يرفق الله على بنى آدم مرة أخرى ، فيعم نوحاً ومن نجا معه فى الفلك بالبركات .

أما هناك فى سفر التكوين من العهد القديم ، الذى يضم قسماً كبيراً من التوراة فنجد الغضب الإلهى يهبط على البشر ، وآدم وزوجه ينزلان إلى الأرض ملعونين هما وذريتهما يحملان على كتفيهما وزر الخطيئة التى ارتكبا ، وخطيئة آدم تلزم البشر أجمعين حتى يريد ربك ـ حسن الأناجيل ـ أن يرفع اللعنة عن بنى آدم فتكون قصة تجسد الله ـ (حاشاه) ـ ومايتصل بذلك من القول بالصلب وخلاص أولئك الذين يتبعون عيسى عليه السلام من اللعنة ، أما الباقون فمكتوب عليهم الخلود فى الشقاء ـ، وهنا ـ على طول سفر التكوين ـ نجد الغضب واللعنات والجنس والخطيئة ، وفى أواخر هذا السفر تجىء حواء وتوضع على كتفيها ، وعلى رأسها تحل اللعنة الكبرى ، فهى التى وسوس لها الشيطان وهى التى وسوست إلى آدم ، وأغرته بالأكل من الشجرة ، وهى إذن صاحبة المصيبة كلها ، وهنا أيضاً تدخل الحية ، والحية وحواء والحيا (الجنس) من أصل واحد أو هى كلها شىء واحد . . .

وهذا الشقاء كله لماذا ؟

لأن آدم وامرأته أكلا من الشجرة .

وماهى هذه الشجرة ؟

وهنا أيضاً وفى القصص الكثير الذى حيك حول ماورد فى سفر التكوين ، نقرأ أنها شجرة المعرفة ، وأن الله حرم على آدم وزوجه أن يقرباها ، لأنه كان يريد أن يتفرد بالعلم ، وآدم عندما أكل من الشجرة تخطى حده ، وأراد بوسوسة من إبليس أن يشرك الله فى علمه ، فحلت عليه اللعنة وطرد من الجنة ، وهبط إلى الأرض ملعوناً شقيًا .

وهنا أيضاً ـ مع الأسف ـ نجد بعض أصحاب التفاسير يحفنون من سفر التكوين وماحوله حفنا ، ويشوشون أذهاننا بإسرائيليات تخرجنا عن صفاء السياق القرآنى البديع ، وخير مانقرأ عن الأكل من الشجرة نجده عند ابن كثير إنه اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم ، أما نوع هذه الشجرة ، فأمر ثانوى لأن الشجرة هنا رمز إلى واجب الطاعة المطلقة لله وعدم الإصغاء إلى همسات الشيطان وهمسات الشيطان هى باب البلاء كله .

وقد كان آدم وامرأته يسكنان الجنة فى ظلال الرحمن ، والجنة هى عالم الخلود وكان آدم وزوجه يعيشان فى الجنة لا يعرفان شيئاً اسمه الموت ، لأن الموت أرضى ، ومادام لم يكن هناك موت فى الجنة فلا لزوم للإنجاب أو للمحافظة على النوع ، ولهذا فإن آدم وحواء لم ينجبا فى الجنة ، فلم يكن لديهما إحساس بالجنس إنما هما أحسا بذلك بعد أن أكلا من الشجرة ، ولهذا فإننا نقرأ فى سورة طه :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا . وإذ قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما

سوءاتُهما وطَفقا يخصِفانِ عَليهما من ورقِ الجنة وعصى آدمُ ربَّهُ فغَوى ثم اجتباهُ ربُّه فتاب عليهِ وهدى . قالَ اهبطا منها جميعاً بعضُكم لبعضٍ عدُوٌّ فإما يأتِينكُم مِنى هدى فمنِ اتبع هُداى فلا يَضِلُ ولاَ يشْقَى . ومن أعْرضَ عن ذِكرى فإن له مَعِيشَةً ضنكاً ونحشُرُهُ يوم القيامة أعْمَى﴾ .

[طه ٢٠ / ١١٥ / ١٢٤] .

وهذه هى حكاية الهبوط من الجنة وكل مايتصل بها مسوقة أجمل سياق وأعذبه وأحفله بالحكمة والمعانى . فالآيات تبدأ بالتماس العذر لآدم فى خطئه لأنه بشر لا عزم له ولا قوة على الصمود لاحتيال إبليس ، ثم هى تقص حكاية إبليس الذى أبى أن يسجد لآدم ، والغربيون يقولون هنا إن إبليس تحدى الحق سبحانه ، ولكنه فى الحقيقة تحدى الإنسان ، لأن الحق سبحانه لا يتحداه أحد ، ودليلنا فى هذا أن القرآن يحكى الحكاية نفسها فى سورة البقرة ، وهنا نقرأ فيما يتصل بعصيان إبليس :

﴿ إلا إبليس أبى أن يكُون مع الساجدين . قال يا إبليسُ ما لك ألا تكُون مع السّاجدين . قال : لَم أكُن لأَسْجُدَ لبشرٍ خَلقتهُ مِن صَلصَالٍ مِن حَمَاءٍ مسنُونٍ . قال فأخرج مِنها فإنك رجِيمٌ . وإن عليك اللعنة إلى يومِ الدينِ . قال ربِ فأنظِرنِى إلى يوم يُبعثُونَ . قال فإنك مِن المنظرِين . إلى يومِ الوقتِ المعلوم . قال رب بمَا أغويتنِى لأزينن لهُم فِى الأرضِ ولأغوينهُم أجمَعِين . إلاَ عبادك مِنهُمُ المخلَصِينَ ﴾ .

[سورة الحجر ١٥/ ٣١ـ ٤٠] .

ونجمع الآيات بعضها إلى بعض فيتجلى لنا عمق الحكمة الإلهية ، فآدم كان فى الجنة يحيا حياة لا جوع فيها ولا ظمأ ولا عرى ولا حرور ولا جنس أبضعاً ،

وإبليس أكلتـه الغيرة من آدم لأن الله عهد إليـه ، ولكن آدم لم يملك العـزم على الوفـاء بالعهـد ، وهذا أمـر كان إبليـس يعـرفه فأبى واستكبر لأنـه كان يـرى أنه أفضل من آدم ، لأن الله خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون أو من تراب ، أما إبليس فقد خلق من مـارج من نار ، وهو يحسب أنـه بهذاأطهر وأعلى من آدم .
وكارل بارت أعظم اللاهوتيين البروتستـانت فى عصرنا يسأل هنا : من أى تراب خلق الله آدم ؟ إننا فى الجنة وملك الله واسع . وكان قديراً أن يهبط آدم إلى المريخ أو المشترى أو أى كـوكب آخـر من خلقه ، ثم يجيب قـائلاً : من تـراب الأرض طبعاً ، لأن الله كـان يعلم فى غيبه أنـه سيهبط آدم إلى الأرض ، فينبغى أن يكون مخلوقاً من ترابها حتى يستطيع أن يأكل من نباتها وحيـوانها ، وعندما يموت يعود جسده إلى التراب الذى خلق منه ، ونستطرد مع كارل بارت لكى نضيف إلى علم القـارىء أشياء تخرج عن نطـاق مايعـرفـه تقليداً ، فنجـده يقول : إذا كـان آدم يعيش فى الجنة حياة فردوسية لا أكل فيها ولا شرب ، فكيف أكل من الشجرة ؟ والجواب أن آدم عندمـا استمع إلى وسوسة الشيطـان وأقبل على معصية ربـه بدأ يخرج عن طبيعته الفـردوسية ، ونبض فيـه عرق الأرضية التـى خلق من ترابها ، وبدأت مسيرتـه إلى الأرض فعرف الأكل ، وعنـدما أكل تحول إلى بشر هـالك ، ومادام قد تحول إلى بشر هـالك فقد دب فى كيانه الجنس لكى يستطيـع المحافظة على نوعه فى الأرض التى سينزل فيها ، وبدت لـه ولامرأته سوآتهما وأحسا بالحياء فطفقتـا يخصفان عليهما من ورق الشجـر ، ومادام قـد عـرف الجنـس فقد عـرف العـداوة ، لأنها ظـاهرة أرضيـة ، وفى أثنـاء ذلك وجـد نفسـه على الأرض وسط السباع والوحوش والآلام والصراع .

ويتناول الموضوع كله كاتب عبقرى هو يـوهان فولفجانج جيته فيجعل منه رواية شعـرية مـن أجمل وأبدع ماخطـت يد إنســان ، لأنه يأخـذ موضـوع إغواء إبليس لآدم وينتقل به إلى الأرض ويصور لنا مـأساة الإنسان مع الشيطان المركب

فى كيانه ، وجيته هنا يأتى بمعنى جديد لأنه يجعل الشيطان جزءا من كياننا نفسه ، والعالم المسن فاوست الذى قضى عمره فى مكتبته باحثاً عن العلم والمعرفة لم يكن يعرف أن الشيطان راكد فى كيانه ، والعلامة نفسه اسمه مفيستوفيلبس فاوستوسى ، فانشطر كيانه نصفين وأصبح مفيستوفيلبس هو الشيطان وفاوست هو الإنسان ، ويبدأ الشيطان فى إغراء الإنسان العلامة ذى اللحية البيضاء المسترسلة والجسد البالى ويخاتله بفتاة جميلة فى عز صباها هى هيلينا ، ويسقط العلامة فى الشرك ويتعلق قلبه بالبنت ، وهنا يعقد معه الشيطان صفقة ، يشترى منه بها روحه فى مقابل أن يرده إلى شبابه ويمكنه من هيلينا . ويستسلم الإنسان للشيطان ، فيرده إلى الشباب فعلاً وتدب فى جسده العافية ويأخذ فى السعى وراء البنت ـ التى هى الدنيا وتكون النتيجة أن يعتدى على البنت ثم يقتلها ، والشيطان يدفعه فى حمأة الرذيلة أبعد فأبعد ، وينتهى الأمر بموته على أسوأ صورة لأنه باع روحه واتبع خطوات الشيطان .

وهذا هو مصير الإنسان إذا هو باع روحه واستسلم للشيطان . والحقيقة أن حياة الإنسان على الأرض تحد للإيمان والفضيلة فيه ، فإذا هو أفلح فى التغلب على الشيطان الكامن فى نفسه أفلح ونجح وإلا فشل وأمه هى الهاوية .

ثم يأتى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى فيفسر التاريخ كله على أنه تحد ورد على التحدى Challengedond responce ومستقبل الإنسان أو الجماعة متوقف على نوع الاستجابة ، فهناك استجابة سلبية ، وهى الاستسلام للظروف والقعود عل السعى ، وهنا يتوقف التقدم وتتعطل مسيرة الحضارة ، وهذا النوع من الشعوب هى الشعوب المتأخرة المستضعفة المستعمرة ، وهناك الاستجابة الإيجابية ، وفيها يقف الإنسان أو الشعب على قدميه ، ويثبت للتحدى ثم يتغلب عليه ، وهنا ينجح الإنسان أو الشعب ويتقدم الإنسان أو يقوى الشعب ، ويثبت وجوده وتتقدم الحضارة ، وتوينبى يقول إن الشعوب الناجحة شعوب فاوستية أى أنها

تستجيب للتحدى وترد عليه رداً إيجابياً ، والحضارةالأوربية فى نظره حضارة فاوستية .

ونعود إلى الآيات القرآنية التى اتخذناها أساساً لهذا الحديث عن هبوط الإنسان إلى الأرض ، وهذا الهبوط فى الإسلام مبارك ، لأن الله سبحانه غفر لآدم ذنبه وتاب عليه وخلصه من وطأة مايسمى فى بعض الأديان الأخرى بالخطيئة ، فالمسلم يخرج إلى الدنيا حراً طليقاً صافى النفس مرتبطاً بالله الذى رحمه ورفق به وتاب عليه ، ثم رسم له طريق الفضائل وهو الهدى ، وأرسل إليه معلمين وهداه يقودونه فى طريق الصراع الذى فرض عليه منذ هبط إلى الأرض ، وقد ميزه الله على غيره من المخلوقات بالعقل أولاً . ثم بالعلم ثانياً ، فأما العقل فأمره معروف ، وأما العلم فإن الله سبحانه ميز آدم منذ كان فى الجنة بجانب من العلم يمكن له من اكتشاف طريق الخير ويفتح عينيه إلى أن لعلم هو سبيل الإنسان لمعرفة الله ، ومعرفة الله سبحانه هى أساس كل فلاح وبداية لكل تقدم ، والملائكة عندما سألت الله سبحانه كيف يفضل آدم عليها ويجعله فى الأرض خليفة مع أن الملائكة تسبح بحمده وتقدس له كان الجواب أن الله فضل آدم بالعلم قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنِي أعلمُ مَالا تَعَلمُونَ.وَعلم آدَمَ الأسماء كُلها ثُم عرضَهُم على الملائِكةِ ، فَقَالَ أَنَبئونِي بأسماءِ هؤلاءِ إن كُنتُم صادِقِين قالُوا سُبحَانك لَا عِلم لنَا إلا مَاعَلمتنَا إنَك أَنت العلِيمُ الحكِيمُ قَال : يَا آدم أنبئهُم بأسمائِهِم ، فَلما أنبأهُم بِأسمائِهِم قَال أَلَم أَقُل لكُم إِنِي أَعلم غيب السمَواتِ والأرضِ وأَعلم ماتُبدُون وَمَا كُنتُم تكتُمُون ﴾ .

[البقرة ٢/ ٣٠ ـ ٣٣] .

وللفقهاء آراء شتى فى المراد بالأسماء ، وكلها ترتبط بحرفية اللفظ فهى أسماء

الملائكة أو أسماء كل المخلوقات ، ومن أمثلة أقوالهم فى ذلك قول زيد بن أسلم أن آدم قال : أنت جبريل . . أنت ميكائيل . . أنت إسرافيل ، حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب .

وهذه كلها تفسيرات لا تشفى الغلة ، والصواب فيما نظن أن الله ألقى فى صدر آدم شيئاً من علمه ووصفه بذلك عن طريق العلم ، ودفعه إلى طلب العلم وإلى أن العلم هو الطريق إلى معرفة الله ، وهذا الطريق هو الدين ، فإن الدين نفسه لا يستقيم إلا بالعلم ، بل الدين كله علم .

وفى القرآن الكريم آية تعطينا حلا لمشكلة كبيرة تعرض لنا كل يوم ، وهى المسألة التى أثارها متالس داروين عندما تحدث فى كتاب « أصل الأنواع » عن التطور وقال : إن المخلوقات تتطور أى تتغير وتتشكل بحسب الظروف والبيئات وداروين لم يقل قط إن الإنسان منحدر من القرد ، وإنما قال بذلك الداروينيون

وفرق بعيد بين داروين والداروينية ، فإن هؤلاء الأخيرين هم الذين أخذوا نظرية داروين وذهبوا فى تطبيقها مدى بعيداً . خرج بهم عن الحد المأمون ، والآيات التى أقصدها هى قوله تعالى فى سورة التين : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ . أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [التين ٩٥/ ٤ـ٨] .

فالله سبحانه خلق الإنسان فى أحسن تقويم وأدخله الجنة ، وفيها كان مخلوقاً فردوسياً جميلاً طاهراً نقياً وعابداً لله ، ثم وقع فى الخطيئة فأخرجه الله من الجنة وأهبطه إلى الأرض ورده أسفل سافلين فى الأرض ، وهنا أصبح حيواناً أرضياً استيقظت فيه الشهوة وعرف الجوع والعطش والخوف ، وكان عليه أن يتخذ أساليب الحياة على الأرض ، وهى أساليب عند وصراع عنيف ونبت له

شعر طويل لكى يحميه من البرد وأظافر طويلة وأسنان حادة أى أنه أصبح شيئاً آخر غير آدم الجنة ، وهنا يلتقى آدمنا الأرضى البشع بآدم الذى تصوره دراسات ماقبل التاريخ والانثروبولوجيا ، وهنا تلتقى نظرة الدين بنظرة البشر ، ويبدأ آدم الأرضى هذا فى تسلق سلم الحضارة فى بطء بالغ .

وفى الجنة لم يكن آدم يستخدم عقله بل قلبه ، فهذا عالم طاهر بلا مشاكل هنا يسبح الخلق جميعاً لله . أما عندما أهبط إلى الأرض فقد انقضت قرون قبل أن يَتَنَبَّه الإنسان إلى أن له عقلاً يستطيع أن يحل لـه مشاكله ويسهل له الحياة وسط الكواسر والوحوش وعوامل الطبيعة القاسية ، فبدلاً من أن يجرى ساعات وراء حيوان ليصيده يستطيع أن يرميه بحجر أو يصنع حربة تعينه على التغلب عليه ، وهو عندما اكتشف العقل وتمكن من الاهتداء إلى الاختراعات الأربعة الأولى ! وهى استخدام النار وعمل الفخار والزراعة والنسيج تحرر من جانب كبير من المتعب والأخطار التى كانت تحيط بـه ، وانتقل من عالم الخوف والصراع المرير والرحلة الدائمة والنوم فوق الأشجار أو فى الكهوف إلى مرحلة الاستقرار ، ومع الاستقرار يسرع مسير الحضارة ، وهنا وعندما تمكن من إنشاء كوخ يأويه هو وأسرته وسط قطعة أرض يزرعها هو وامرأته وأولاده واختزن الحبوب والمياه فى الجرار والخوابى ، اتسع وقته للتفكير وارتقى سمعه وبصره الحيوانيان إلى سمع وبصر إنسانيين ، فرأى الجمال وعرف الحب والفن والجمال ، وهنا أيضاً نبض فيه الضمير فبدأ يحس بالرحمة والمودة ، وهذا كله وارد فى القرآن ، واقرأ معى الآيات الأولى من سورة الإنسان :

﴿ هل أتَى على الإنسانِ حينٌ مِن الدَهرِ لَم يكُن شَيئاً مذكُوراً . إنا خَلقنا الإنسانَ مِن نُطفةٍ أَمشَاجٍ نَبتليهِ فَجَعلناهُ سمِيعاً بصَيراً ﴾ .

[الإنسان ٧٦/ ١ ـ ٢]

وهنـا ، وقد نضج عقل الإنســان شيئاً أعـانـه الله فأنبض فى قلبه الشعـور بالخير والشر ، ﴿ **إنا هدينَاهُ السَبيلَ إما شَاكِراً و إِما كُفوراً** ﴾ .

[الإنسان ٧٦/ ٣] .

وفى سورة البلد نقرأ : ﴿ **لَقد خَلقنا الإِنسانَ فِى كَبدٍ** ﴾ [البلد ٩٠/ ٤] .

ونقرأ بعـد ذلك : ﴿ **أَلَم نَجعَل لهُ عَينينِ ولِسَـاناً وشفتينِ وهَـديناهُ النَجدينِ** ﴾ [البلد٩٠/ ٨ ـ ١٠] .

أجل . فأمام الإنسـان الآن نجدان أى طـريقان ، طريق الضياع والارتداد إلى الجاهليـة الحيوانيـة وطريق الصعـود فى معارج الإنسـانية ، وهـذا هو طـريق العودة إلى الجنـة ، طريق العـودة إلى الله . عندمـا هبط آدم إلى الأرض أعطاه الله كلمات وتاب عليه ثم تركه يشق طريقه فى عالم الأرض والصراع فى سبيل البقاء ، والآن وقد هذاه إلى عقلـه ، والعقل ثبته على الأرض وأشعره بالقـوة والأمان ، ثـم استقوى وبدأ يطغى ، وهنا ينبهه الله إلى سوء مغبة الطغيان والغرور ويضعه أمام الاختيـار الصعب بين نجد الغـوايـة ونجد النجـاة والاتفـاع إلى المستوى الـذى يستطيع بـه أن يعود إلى الجنـة ، وهو طـريق طويل عسير فيـه تضحية بـالمال أو النفس ، فيه التخلى عن الأنانية ، وفيه الرحمة والجود بالمال فى سبيل الله :

﴿ **فَلا اقتحَمَ العَقبـة ومَا أدراكَ ما العَقبة.فكُ رقبـةٍ أو إِطَعامٌ فِى يومٍ ذِى مسَغبةٍ.يتيِماً ذا مَقربةٍ أوَ مسكِيناً ذا متربةٍ** ﴾ .

[البلد ٩٠/ ١١ـ ١٦] .

هنا يبدأ طريق العودة إلى الله و إلى الجنة والتى أخرج نفسه منها إذ استمع إلى الشيطان وعصى ربـه ، وطريق العـودة إلى الله والجنة هو طـريق رسالات الله إلى خلقه طـريق الدين والهدايـة والنور ، وأول الرسـالات التى تلقاهـا الإنسان هى

رسالة نوح عليه السلام :

﴿ شَرَعَ لكم مِن الدينِ ماوصَى بِهِ نُوحاً والذِى أَوحينا إِليك وما وصيْناً بِهِ إبراهِيمَ وموُسىَ وعيسَى أنْ أَقِيموا الدِين ولا تتفرقوا فيهِ كبُر على المشرِكِين ماتدعُوهُم إِليهِ الله يجتبِى إِليه من يشاءُ ويَهدِى إِليهِ مَن يُنيبُ ﴾ [الشورى ٤٢/ ١٣] .

ولنلاحظ هنا أن الله ذكر رسالته إلى نوح ثم أتبعها برسالته إلى محمد .

نوح هو البداية ومحمد هو النهاية فى رسالات الله . وبين نوح ومحمد أرسل الله أنبياء ورسلاً كثيرين بعضهم نعرفهم وبعضهم لا نعرفهم :

﴿ ولقد أرسلنا رُسُلا من قبلِك مِنهُم من قصَصنا عليك ومنهُم من لَم نقصص عليكَ وَما كان لِرسُولٍ أَن يأتى بِآيةٍ إِلا بإِذنِ الله ﴾ .

[غافر ٤٠/ ٧٨].

وهذا الآيات ترد على الذين يتساءلون : ولماذا لم يرسل الله رسلاً وأنبياء إلى أهل الصين أو الهند أو أهل العالم الجديد قبل الكشوف الجغرافية ؟ .

إنهم أنبياء ورسل كثيرون ، كلهم بشروا بدين واحد هو دين الله . أما الأديان فمن اختراع البشر ، لأن الله سبحانه واحد ورسالته واحدة والطريق إليه واحد هو طريق الإسلام ، وكل أنبياء الله مسلمون ، وكيف يكون نبياً أو رسولا من لم يسلم إلى الله وجهه ؟ ومن هؤلاء الأنبياء نجد الخمسة العظام ، وهم أولو العزم وهم نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليه ، ورسالته هى هذا القرآن كلام الله والطريق إليه ، و طريق العودة إلى الجنة .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة آل عمران الآيتان : ١٠٢ و ١٠٣]

فى حديثنا السابق تكلمنا عن خروج آدم من الجنة وعودته إليها إذا عمل لها عملها واستحقها .

وهذه المرة نتكلم عن الأمة ، أمة الإسلام أمة الله عندما يكون الإنسان عضواً فإن صلة الإنسان بخالقه لا تكون فى أكمل صورها إلا عن طريق الأمة ، أى فى جماعة المسلمين المعتصمة بحبل الله ، وإذا أنت قرأت القرآن ملياً لاحظت أنه حيثما ورد ذكر الإنسان المفرد كان ذلك فى معرض اللوم وبيان أوجه النقص فى خلق الإنسان وما يستتبعه ذلك من التحذير والإنذار .

وحيثما ورد ذكر الإنسان فى صورة الجماعة أو الأمة كان ذلك فى معرض التوجيه والهداية والرضا وبيان سبيل الرشاد .

ولله فى ذلك حكمة وحكم اختص بها دينه الذى أرسل به رسله واحداً بعد واحد ، ثم ختم بسيد المرسلين حامل الرسالة الصافية الكاملة ، ومبلغها إلى

الناس فى أكمل صورة يمكن أن يبلغها بشر ، لأن الإسلام ذروة رسالات الله للبشر . ورسول الإسلام ذروة الكمال الإنسانى : صفاء وطهارة و إخلاصاً وبلاغاً وذكاء وقدرة على القيام بالمسئوليات ، ولهذا فإن دين الله واحد كما أنه هو جل جلاله واحد . أما الأديان بالجمع فمن صنع الناس .

و إليك البراهين . فاقرأ هذه الآيات التى يجيء فيها ذكر الإنسان المفرد .

﴿ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وخُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفاً ﴾ .

[النساء ٤/ ٢٨] .

﴿ وإذا مَسَّ الإِنسانَ الضُّرُّ دَعَانا لِجَنْبِه أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فلما كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّه مَرَّ كأن لَّمْ يَدعنا إلى ضُرٍّ مَسَّه كذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ماكانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس ١٠/ ١٢] .

﴿ وإِنْ تَعُدُّوا نعمة اللهِ لا تُحْصُوها إِن الإِنسان لظلوم كفارٌ ﴾

[إبراهيم ١٤/ ٣٤] .

﴿ خَلَقَ الإِنسان مِن نُطفةٍ فإِذا هُو خَصِيمٌ مبِينٌ ﴾ [النحل ١٦/ ٤] .

﴿ وَيَدْعُ الإِنسانُ بالشَّرِّ دُعاءه بالخير ، وكان الإِنسانُ عجُولاً ﴾

[الإسراء ١٧/ ١١] .

﴿ وإذا مسكُم الضُّرُّ فى البحرِ ضَلَّ من تدْعون إلا إِياهُ ، فلما نجاكُم إلى البر أعرضتُم ، وكان الإِنسانُ كفُوراً ﴾ [الإسراء ١٧/ ٦٧] .

﴿ وإذا أنعمنا على الإِنسانِ أعرَض ونأى بِجانِبِه ، وإِذا مَسّه الشر كان يئُوساً ﴾ [الإسراء ١٧/ ٨٣] .

﴿ قُل لو أنتُم تملكُون خزائِن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خَشية الإِنفاقِ وكان الإِنسانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء ١٧/ ١٠٠] .

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآنِ للناس مِن كُلِ مثلٍ ، وكان الإنسانُ أكثر شَىءٍ جَدلاً ﴾ [الكهف ١٨/ ٥٤] .

﴿ ويقول الإنسان أءِذا مامت لسوف أخرج حياً . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يَكُ شَيئاً ﴾ [مريم ١٩/ ٦٦ ـ ٦٧] .

﴿ خُلِق الإنسانُ من عجلٍ سأُورِيكُم آياتِى فلا تستعجِلُون ﴾

[الأنبياء ٢١/ ٣٧] .

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السَمَواتِ والأرضِ والجِبال فأَبين أن يحمِلنها وأشفقن مِنها وحَملَها الإنسانُ إنهُ كان ظَلوماً جهُولاً ﴾ .

[الأحزاب ٣٣/ ٧٢] .

﴿ وإذا مس الإنسان ضُرٌ دعا ربه مُنيبا إليه ثم إذا خوله نِعمة منه نسِى ماكان يدعو إليه مِن قبلُ وجعل لله أنداداً ليُضل عن سبيلِه قُل تَمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحابِ النارِ . أمن هُو قانِت آناء الليلِ ساجِداً وقائِماً يحذرُ الآخِرة ويرجو رحمة ربهِ قل هل يستوى الذين يعلمُون والذين لا يعلمُون إنما يتذكرُ أولُو الألبابِ ﴾ [الزمر ٣٩/ ٨ ـ ٩] .

وأظن أن هذا يكفى فالغالبية العظمى من الآيات التى تخاطب الإنسان المفرد على هذه الشاكلة .

أما غالبية الآيات التى يرد فيها الكلام عن الإنسان أو إليه بصيغة الجمع « أناس » و « ناس » فإن الكلام لا يصل إلى هذا العنف ، وإنما يصلنا الحديث فى مثل قوله تعالى فى [سورة الزمر ٣٩/ ٦] **﴿ خلقكُم مِن نفس واحدةٍ ثُم جعل مِنها زوجَها .. ﴾** وفى مجال الحديث عن نعمة الله قوله **﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبِيين مبشِرين ومُنذِرين وأنزل معهُم الكِتاب بالحق ﴾** [البقرة ٢/ ٢١٣] وذلك فى مجال الرسل والرسالات قوله

جل وعــــلا فى حـــــديث لـوط : ﴿ **ومـاكان جـواب قومـهِ إلا أن قالـُوا أخرِجُوهمُ مِن قريتِكُم إنهُم أناسٌ يتطهرُون** ﴾ [الأعراف ٧/ ٨٢] .

أمـا فى حديث الله سبحـانه إلى النـاس بالجمع ، فهـو فى الغالب حـديث نصح وتوجيه وأمر كريم ورحمة : ﴿ **يَٰٓأَيُّهاَ الناسُ قد جَآءَكُمُ الرسُولُ بالحِق مِن رِبكُم فآمِنـُوا خيراً لكم** ﴾ [النســـاء ٤/ ١٧٠] و ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا النـاسُ قد جاءكمُ برُهان مِن ربكمُ وأنزلنا إِليكمُ نُوراً مُبيناً** ﴾ [النساء ٤/ ١٧٤] .

أما إذا كان الحديث مـوجها للمؤمنين فى صيغة « يا أيها الـذين آمنوا » فهنا تجد الخير كله والحدب كله ورحمة الله كلها .

بماذا نخرج من هذا كله ؟

لقـد سبق أن قلت : إن القـرآن كلام الله لا يمكن أن يكـون شىء فيـه إلا بحساب . فالله سبحانه عندما يقول : ﴿ **يَٰٓأَيُّهاَ الإنسانُ ماغَرك بربك الكريمِ الذِى خلقك فسواك فعدلـك فِى أِى صُورةٍ ماشاءَ ركَبك** ﴾ [الانفطار ٨٢/ ٦ ، ٧ ، ٨] موجها الحديث إلى الإنسان لائماً ، قد صاغ الآية فى هذه الصورة لأنها أنسب ماتكون للمعنى المراد ، وهى تختلف تماماً عن الصورة المناسبة لقوله تعالى مخاطباً الإنسان بصيغة الجمع ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا الناسُ اتقُوا ربكم إِن زلـَزلة الساعة شىء عظِيمَ** ﴾ (الحج ٢٢/ ١) فهنـا موقف نصـــح وتوجيـه فيه حـدب إلهى عظيم .

وذلك كله راجع فيما أرى وهو رأى أرجو ألا يـؤخذ إلا فى هذه الحدود ـ هو أن الله سبحـانه أراد أن تكـون آخـر رسالاتـه إلى البشر مـوجهة فى صميمهـا إلى البشرية كلهـا وإلى أمة المؤمنين فى مجموعهـا ، لأن الأمة هى مستـودع الخير كله وهى العاصمـة للإنسان من الزلل ، وهـى سبيل الخير ـ أما الإنسان المفـرد فإنه ضعيف متخوف أنـانى بل بدائى ، ومـن ثم فإن الخير الذى ينتظـر منه قليل ،

وهنا تتضح لنا مرادات الله العليا من وراء رسالة الإسلام ، فإن دارسى التاريخ يعرفون أن الأمة أو الجماعة هى مهد الحضارة ، أما الإنسان المفرد الهائم على وجهه فى البرارى فلا يقيم حضارة ، ولا يخطو خطوة تقدم واحدة ، وحيث إن الإسلام فى ذاته حضارة لا قاعدة حضارية كما يقولون ـ فهو دين الجماعة ودين الأمة ، ومحمد رسول الإسلام كان يكفيه أن يبلغ رسالته ثم ينزوى وينفرد بنفسه أو مع طائفة من الذين اتبعوه ويعبد الله ، وهكذا فعل كل الأنبياء والرسل الذين سبقوه ، أما هو فكان همه الأول هو إنشاء الجماعة الإسلامية أو الأمة الإسلامية ، والأمة هى التى تطبق الدين وتحفظه وترعاه وهى التى تنشره بين الناس . والشعور بأن الأمة أو جماعة المؤمنين هى القاعدة هو الذى حفز رسول الله ﷺ على دخول دار الأرقم والدعوة فيها ، فهنا فى سكون بيت مقفل يكون اتصال الجماعة برسولها على أمته ، وهنا يرى المؤمنين رسولهم وقدوتهم ، وكيف يعيش وكيف يتصرف فينشئوا على مثاله ، ورسول الله دخل دار الأرقم ودعا فيها فى أوائل السنة الثالثة للبعثة ، ولم يكن على المسلمين خوف إذا ذاك ، فإن كفار مكة الذين نصبوا أنفسهم لعداوة الإسلام لم يكونوا قد تنبهوا بعد إلى خطورة الدعوة التى يدعو بها رسول الله ، وعندما انتهت فترة دار الأرقم قرابة نهاية السنة الخامسة للبعثة على أثر إسلام عمر وشعور المسلمين بالقوة أى بقوة الجماعة إلى جانب قوة الإيمان خرجت الأمة من معتصمها ، وقد صنعت على يد الله ورسوله أقوى من الحديد وعندما اتجهت جماعة المسلمين الصغيرة إلى مجلس القوم عند الكعبة يتقدمها رسوله صلوات الله عليه وأبو بكر وعمر وحمزة ، وأقامت صلاتها تحت نظر المكيين كان المصير قد تحدد : قامت الأمة حاملة الدين ، ولن يثبت لها أحد ، وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وبينما كان يبنى المسجد لكى يكون دار عبادة للأمة ومجمعاً لها ، بادر إلى إنشاء الأمة إنشاء سياسياً يفهمه الناس ، وهذه الأمة لا تقوم بأمر من محمد بل بالتشاور مع أصحابه ، لأن النص المكتوب لابد أن

يصدر من القلوب حتى تتبعه القلوب ، وهنا تقرأ سطوراً مثل :

ـ هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين فى قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس .

ـ وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (مثقلاً بالدين أو أسيرا) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

ـ لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

ـ وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .

ـ إن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن .

ـ وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم .

ـ وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض من دون الناس .

ـ وأنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

إلى آخر مواد هذا الدستور الفريد الذى صنعه الله على يد رسوله وأمته . حقا إن آيات القرآن الكريم ستتنزل بكل ماتتضمنه هذه الوثيقة . ولكن القرآن ينزل نجوماً على نحو قدرة الله ونحن الآن فى حاجة إلى إعلان قيام الأمة ، لأن شجرة الإيمان تنمو على أصح نمو وأكمله فى ظلال أمته ، والمؤمن يريد أن يشعر أن أمته لا قرابته ولا عصبيته ولا ثروته هى الحصن الذى يؤويه ، هنا فى ذلك الحصن ينمو أفراد الأمة بروح الأمة والجماعة أى بروح الحضارة ، هنا وداخل

حصن الإيمان سيعيش النـــاس جماعــة ، والخيــة في الجماعــة الفــاضلــة تهذب الأخــلاق وتعين الإنسان على التخلـق بأخلاق الجماعــة ، وهى شىء آخــر غير أخلاق الفرد .

ثم حكمة الله فى مخاطبة الإنسان المفرد على النحو الذى رأيناه ، لأنه إيمانياً وحصـارياً لا يعنى شيئـاً ، وقبل أن أخطـو خطوة أخـرى من تحليل الآيـة التى جعلتها محوراً لهذا الحديـث أذكرك بحقيقة غـابت عن السلف ولكنهـا على ضوء التطور التاريخى الراهن لا أظنها تغيب عن السلف .

من البـديهى أن الإنسان إذا صلى وحـده هادئاً آمنـاً فى سرب بيته تكـون صلاته أصفى وأخلص ، فلا أحد يشغله ولا صوت يقطع عليه قنوته .

ولكن الله سبحانه فضل على صلاة الفرد صـلاة الجماعة مرات بعد مرات ، مع أن الإنسان إذا قام يصلى فى المسجد أو فى جماعة الناس لا يسلم من التشاغل بأمر من حـوله مهما بذل من جهـد فى الانعزال بنفسه عن النـاس ، وكلنا نصلى أفرادا ونصلى جماعات ، وكلنا يعرف هذه الحقيقة ، ولكن الله أعلم بشئون عباده فهو يـريدنا أن نصلى جماعـة وإن انتقصـت الجماعة فى خـلاص النفس واطمئنان الفؤاد

لأن الجماعة والامـة هى حصن الإسلام ومعقل الإيمان ، ألم يقـل رسول الله ﷺ أحاديث مجمع عليهـا فى معنى أن صبر أحدكم على مجالس المسلمين سـاعة خير من صلاة أو عبادة كذا سنة ؟ فهذه هى الحقيقة الكبرى التى تتمثل فيها قوة الإسلام ، وبـدون الأمة وروح الأمـة نقرأ تـاريخ الإسلام وكأننـا نقرأ تـاريخ أمة أخرى .

فإذا كنت معى فى أن الأمة والجماعة هى سر قوة الإسلام وفضيلته الكبرى ، فلنعـد إلى المصحف ، ونقرأ معـاً بقية هـذه الآيات الكـريمات التى اخترتها محوراً

الحديث اليوم فنقرأ فى سورة آل عمران : ﴿ **واعتصِموُا بِحَبل اللهِ جميعاً ولا تفرقُوا واذكُروا نِعمة اللهِ عليكم إذا كُنتُم أعداء فألَّف بَين قَلُوبِكُم فأصبحتم بنعمتِهِ اخواناً وكُنتم على شفا حُفرةٍ مِن النارِ فانقذكُم مِنها كذلِك يُبيِن اللهُ لكُم آياتِهِ لعلكُم تهتدُون** ﴾ [آل عمران ٣/ ١٠٣] .

والآن خذ هذه الآيات فى ذهنك وتأمل حالة عالم الإسلام من حولك وقل لى أترانا مسلمين ؟ أو بتعبير أخف : أترانا على الإسلام القويم ؟

هل نحن معتصمون بحبل الله جميعاً غير متفرقين ؟

وهل كنا كذلك بالأمس أو أول أمس ، وهكذا راجعين إلى أيام الراشدين ؟

لا والله وماعرفنا غير الفرقة والخلاف ، والله سبحانه أنقذنا من حفرة النار فعدنا إلى التردى فيها ، يخيل إليك أحياناً أن الكثيرين جداً منا يقرءون القرآن ليعملوا بضده ، ولقد تفطنت إلى فضائل الاتحاد أمم هى أبعد ماتكون عن الإسلام ونجحت . فإن الروس فوق الثلاثمائة مليون والهنود فوق الستمائة والصين فوق الألف مليون . والأمريكيون فوق الثلاثمائة ، وكل واحدة من هذه أمة متماسكة معتصمة بحبال أوطانها وبالوحدة تواجه الدنيا وتتخطى العقبات إلا المسلمين إلا العرب !

لم يعرفوا فى تاريخهم أو أمسهم إلا الخلاف والتفرق والحروب ، والمأساة مستمرة إلى يومنا هذا . وقد أمرنا الله ألا نركن إلى غير أهل ديننا ، وانظر إلى الوفود العربية التى تحج إلى واشنطن وموسكو ولندن وباريس تلتمس الحلف والمعونة والتأييد ، وقل لى كم وفداً عربياً إسلامياً يقبلون على العواصم العربية ، لحل الخلافات ، وأى البلاد العربية صديق من أو حليف من ؟ لا شىء غير الفرقة والخلاف ، لا شىء غير العداوة والبغضاء ، ولقد فتح المسلمون بلاد فارس ولكنهم لم يتتبعوا آل كسرى بالقتل والتشريد ، ولكن الأمويين يتولون الخلافة ،

فلا يكون لهم هم إلا إذلال العرب ومعاوية بن أبى سفيان ـ على رجاحة عقله ـ يأمر بسب على بن أبى طالب وآله على منابر الإسلام ، وهو هنا ينسى أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة نهى الناس عن سب أبى جهل إكراماً لابنه عكرمة ، وقال :

« لا تسبوا الأموات فإن السب لا يصل إلى الميت ، ولكنه يؤذى الأحياء » .

وبنو العباس يتولون الخلافة بعد الأمويين فيجعلونها بحار دم ، ويقترفون من الجرائم مايأنف منه أبعد الجاهلين عن الإسلام . وهل يعقل أن يكون الإنسان مسلماً ثم يقترف جناية بشعة مثل مذبحة أبى فطرس حيث ذبح داود بن على عم الخليفة أبى العباس السفاح فوق المائة أموى فيهم الصبيان والصبيات ، ثم مد النطع أى مفرشاً من الجلد وجلس وأمر بالطعام وأكل هو وأصحابه على جثث الموتى ! .

ثم نشكو من أعداء الإسلام ! .

ثم يتحالى بعضنا ويؤلف كتباً يرد بها على مايسميه بمكايد المستشرقين !

وهل للإسلام أعداء إلا أهله ؟

إننى هنا لا أسمى ، ولكن أدر بصرك فى عالم الإسلام من حولك ، وقل لى ماذا ترى هل نحن ــ فى أى بلد إسلامى ــ معتصمون بحبل الله أم بحبل الشيطان ؟ وهل أعجب من أن هناك عرباً مسلمين اليوم يؤيدون الروس فى مذبحة أفغانستان ؟

ثم نتعجب من المأساة الطويلة التى هى تاريخنا وما تتضمنه من مذابح المسلمين بعضهم لبعض وخياناتهم بعضهم لبعض ، كأنهم لم يقرءوا القرآن أو كأن القرآن أنزل لقوم غيرهم ، إن كل الذى يطلبه إلينا القرآن هو أن نعتصم جميعاً بحبل الله ولا نتفرق ومع ذلك فيبدو أن هذا أكثر مما نستطيع .

ثم نستطرد مع الآيات المباركات فنقرأ :

﴿ ولتكُن مِنكُم أمةٌ يدعُون إلى الخيرِ ويأمرُون بالمعروف وَيَنْهَوَن عنِ المنكر وأُولئك هُم المفلحُون ﴾ [آل عمران ٣/ ١٠٤] .

لقد حيرنى موقف فقهائنا من هـذه الآيات . إنها هنا فعل أمر واجب النفاذ وهى فيها أتصور قاعدة أساسية من قـواعد البناء والتنظيم الأساسى لأمة الإسلام وتفسيرها نجده فى السيرة النبـوية . لأن القرآن هو الشرع والقـانون ، والسنة هى التطبيق والتفسير .

نقرأ فى سيرة ابن إسحـق برواية ابن هشـام بعد تمام بيعـة العقبة « وقـد قال رسول الله ﷺ : أخـرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونـوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (١/ ٨٥) وبعد انتخاب هؤلاء يقول الرسول : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، وأنا كفيل على قومى . قالوا : نعم .

ولنلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ لم يقم بـاختيار النقباء بنفسه ، بل طاب إلى الأوس والخزرج أن يختاروا بأنفسهم نقباءهم وبعد أن اختاروهم قال إنه هو يمثل قومـه يعنى القرشيين المهاجـرين ، أى أنه نقيبهم والمتحـدث باسمهم ، ثم يلى ذلك حـديث جـرى بين الأنصـار فى أهميـة البيعـة التى عقـدوهـا مع الـرسـول ومسئولياتهم فيها ، وعلى طول تاريخ الإسلام فى المدينة أيام الرسول نحس بوجود هذه الهيئة وأثرها . وابن حزم نفسه ، وهو رجل ذو حس تاريخى صادق كلما مر بواحد من النقباء أضاف فى أوصافـه أنه عقبى نقيب . أى أنه حضر بيعة العقبة وكـان من بين النقباء الـذين انتخبوا ، فهـى لم تكن هيئة شكليـة بل أساسيـة . ورسول الله ﷺ يأخذها مأخذ الجد ، والصحيفة التى كتبها الرسول بين مؤسسى أمة الإسلام ، وقـد أشرنا إليها إنما هى ثمرة حوار النبى ﷺ مع أصحـابه فى هذا المجلس الذى نستطيع أن نسميه مجلس الأمة .

وهذه أيها الإخوة هى الأمة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . هى جماعة تختارها الأمة اختياراً حراً لتتولى شئونها .

وعلى العادة نجد أن الله سبحانه يشرع . والرسول يطبق ويرسم طريق التنفيذ ونحن ننسى ، ثم تكون الكوارث .

لقد خلق الله أمة الإسلام أمة شورية ، أمة تحكم نفسها بنفسها . أمة تختار أولئك الذين يسيرون أمورها اختياراً حراً . أمة تُحترم فيها قيمة الإنسان وكرامة الإنسان ورأيه ، وإليكم سيرة الرسول ﷺ فاقرءوا فيها كيف كان يعامل أصحابه كيف كان يحترم رأى أصغر واحد منهم ويعطيه حقه ومكانه .

ثم مضى رسول الله ﷺ وجاءت الخلافة بعد رسول الله ، وكانت على أيام الشيخين خلافة شورية ، وأبو بكر وعمر على جلال قدرهما كانا يستشيران ويأخذان برأى الجماعة وقد حدث فى أيام أبى بكر أن رجلاً من أهل الردة عاد إلى الأمة ثم ارتد مرة أخرى فغضب أبو بكر ، وفى سورة غضبه أمر بإحراقه حياً . فظل بقية عمره نادماً على الغفلة « وعلى فراش الموت سأل الله أن يغفرها له » .

وأمة الإسلام أمة واحدة : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ [الأنبياء ٢١/ ٩٢] وفى هذه الآية حكمة بالغة ، لأنها تقول إن هذه الأمة الواحدة هى أمة الله التى تعبده حق عبادته ، فهى أمة الإيمان الواحد لا السلطان الواحد ، فقد تتعدد الوحدات السياسية فى نطاق أمة الإيمان فلا يتأتى من ذلك أى ضرر ، وقد أقر رسول الله ﷺ ذلك فقد كتب إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى شيخى عمان : أسلما تسلما « فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل » وكتب إلى هوذة بن على شيخ اليمامة : « سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » لأن وحدة الإسلام

والإيمان هى الأساس ، أما الوضع السياسى فى أى ناحية من نواحى أمة الإسلام فهو صورة للحكم لا يشترط فيها الإسلام إلا التراضى والعدل وإقامة الدين ، والناس بعد ذلك أحرار تحت راية الإسلام فى أن يقيموا ملكاً أو سلطاناً أو جمهورية أو مايشاءون ، لأن الإسلام لا يهتم إلا بروحه وصلبه . أما خضوع أمة الإسلام كلها لسلطان سياسى واحد فأمر ابتدعناه ورجعنا به إلى استبداديات ماقبل الإسلام ، وقلنا إنها خلافة لرسول الله ، ولكننا جعلناها ملكاً وقطعنا رقاب الناس ، وانصرف اهتمامنا الأول إلى الخليفة دون الخلافة ، إلى الإنسان صاحب الملك الزائل دون خلافة الرسول ذات الجاه الدائم ، وفى كتب الفقه الإسلامى فصول بعد فصول عمن يستحق الخلافة ، وهذا كله كلام سياسى بعيد عن صلب الإسلام .

وفى القرآن آية نرددها دون أن نتدبر معناها ، هى قوله سبحانه فى سورة آل عمران : **﴿ كنتُم خيرَ أمة أُخرِجت لِلناسِ . تأمُرونَ بالمعروفِ وتَنهون عنِ المنكر وتؤمَنون بِالله ﴾** . [٣/ ١١٠] .

ونحن فى العادة نستشهد بنصفها الأول مع أنه نصف جملة ، فهو جواب الشرط أما جملة الشرط فقوله تعالى : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . فإن أنتم فعلتم ذلك كنتم خير أمة أخرجت للناس ولو أن الله سبحانه أراد أن يقول إنكم خير أمة أخرجت للناس لمجرد أنكم مسلمون لقال أنتم خير أمة أخرجت للناس ولكن العبرة هنا فى « كنتم » وهى جواب الشرط .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللهِ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[آل عمران : الآية ٦٤]

موضوعنا هذه المرة هو حقيقة الإسلام وعلاقته بالأديان السماوية الأخرى .

والحقائق والأحكام والحكم تأتى ـ فى الغالب ـ فى القرآن الكريم منثورة نثراً جيلاً وفى نظام يعلمه الله سبحانه ، وقد زعم بعض علماء السلف أنهم يعلمون حكمة النسق القرآنى ، وألفوا فى ذلك كتباً واهية لا تقوم على برهان مقنع ، ومن هؤلاء السيوطى وغيره ، وأنت لا تفيد شيئاً من قراءة هذه الكتب ، والأفضل دائماً أن نقرأ القرآن كما أنزله الحق سبحانه ، وتوجه همك إلى الفهم والإدراك دون الاستشراف إلى ما لا يمكن أن يكون لك أو لغيرك به علم ، لأن القرآن كلام الله لا يقبل السفسطة ولا حديث الهباء الذى لا يتحصل من ورائه شىء .

ولكن أحياناً يأتى القرآن بنسق متصل من الآيات ، يستوفى قول الحق فى موضوع ما ، وذلك لتبيينه على وجهه للرسول وأمته من ورائه ، وذلك لا يمنع من ورود نفس الحقائق منجمة فى صور شتى وفى سُوَرٍ شتى ، فى مقامات

يقتضيها سياق المعانى ، لأن القرآن لا يعرف التكرار فى ألفاظه أو معانيه ولو بدت لنا متقاربة بل متطابقة ، ولكن العبرة فى كل حال بالسياق والسياقات تعطينا معانى جديدة لنفس الحقائق .

ومن المواضع التى يأتى فيها القرآن بنسق متصل من الآيات تستوفى موضوعاً واحداً مانجده فى سورة آل عمران ابتداء من الآية التى جعلناها ـ والتى تليها ـ محوراً لهذا الحديث عن حقيقة الإسلام وعلاقته بالأديان السماوية الأخرى .

والموضوع هنا خطير ، ولا يمكن إلقاء الكلام على عواهنه فيها .

ونحن إذ نكتب فيه لا نقصد إلى إقناع غير المسلم بأنه مخطىء ، وأن عليه أن يراجع نفسه ويعود إلى الحق ويدخل الإسلام ، لأن الهدى هدى الله ، وكلما كان الإنسان جاهلاً كان أشد تمسكاً بدينه ، لأنه ولد على هذا الدين ولا يعرف غيره ، وتعود على مدى حياته أن يأخذ ما قاله له أبواه أو القس الذى يتردد عليه قضية مسلمة ، على هذا نشأ وتعود ، وهو يجد الأمان والثقة والاطمئنان فيما تعود القول به ، فإذا كان يقول بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ابن الله أو هو الله أو هو أبونا الذى فى السموات والأرض فهو لن يتحرك عن ذلك القول قيد أنملة مهما قلت له ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة فى آيات من التى نحن بصددها وذلك حيث يقول ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران ٣/ ٧٥] والأميون عند اليهود والنصارى فى القرون المسيحية الأولى:

مصطلح كانوا يستعملونه فى الكلام عمن ليس على دينهم ، فالنصارى أميون فى نظر اليهود ، وكذلك اليهود فى نظر النصارى ، أما فى القرآن فلفظ أمى يستعمل بمعنيين :

الأولى : هو هذا الذى تكلمنا عنه فى معرض الكلام عن النصارى أو اليهود وفى الآية السابقة نجد النصارى واليهود يقولون إنه لا سبيل علينا من الأميين أى

أننا لا نصغي إلى ما يقول أولئك الذين ليسوا على ديننا ، والقرآن يستعمل هذا المصطلح في هذا المعنى في مقام التبكيت لأهل الكتاب - من اليهود خاصة - الذين كانوا يزعمون أن النبوة لا تكون إلا في أسباطهم أي قبائلهم الاثنى عشر لأن مَنْ عدا ذلك فأميون ، أي أقوام لا يختار الله منهم رسولاً ، والقرآن يقول لهم : ماذا تقولون الآن وقد شاءت إرادته أن يصطفي نبياً خارج الحدود التي وضعوها لرحمة الله ، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة :

﴿ يُسبح لِلهِ ما في السَّموات وما في الأرضِ الملِكُ القُدُوس العزيز الحكيم . هو الذي بعث في الأميين رسُولاً منهُم يتلو عليهِم آياتِهِ ويُزكيهم ويُعلمهُمُ الكِتاب والحِكمة وإن كانُوا من قبلُ لفي ضلالٍ مُبين ﴾ .

[الجمعة ٦٢/ ١ - ٢] .

وأما المعنى الآخر الذي يستعمل فيه مصطلح أمي في القرآن المجيد فهو معنى خاص برسول الله ﷺ ، فإن إرادة الله لم تقف عند اصطفائه نبيه عند اختياره من غير الخط الذي حدده اليهود ، بل اختاره أمياً لا يقرأ توكيداً لمعنى حكمة الله في اختياره ، فقد كان عيسى ابن مريم في نظر اليهود أمياً لأنه نجم في غير أنساب الأسباط ، ولكنه كان يقرأ ويكتب ، وهنا يأتي محمد أميا لا يقرأ ولا يكتب ، والله سبحانه علمه الكتاب والحكمة وكل شيء ، واقرأ هنا قول الله سبحانه في سورة الشورى : **﴿ وكذلِك أوحَيْنا إليك روحاً من أمرنا ماكُنت تدري ما الكِتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناهُ نوراً نهْدي بهِ من نَشاءُ من عِبادِنا وإنك لتهدِي إلى صِراطٍ مستقيم ﴾** (الشورى ٤٢/ ٥٢) وتوكيداً لهذا المعنى القرآني الخاص برسول الله ﷺ يقول تعالى في سورة العنكبوت :

﴿ وما كُنت تتلو من قبلهِ من كِتابٍ ولا تخُطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ (العنكبوت ٢٩/ ٤٨) .

وهنا نفهم حكمة الله في أمية نبيه . فإن المبطلين (أي أهل الباطل) لم

يدعوا طريقاً للتشكيك فى نبوة محمد إلا سلكوه ، فهنا وتأكيداً لإرادته سبحانه فى وضع رسالته حيث يشاء يضعها فى رجل لم يكن يكتب ولا يقرأ ، وهذا كلام يقال لناس عرفوا الرسول قبل البعثة وبعدها ، وهو كان قبل البعثة تاجراً يتعامل مع الناس ، ولو كان قارئاً كاتباً لشهد بذلك واحد ممن عاملوه وما أكثرهم ، ولكننا على رغم اجتهاد الكفار فى التماس السبيل على رسول الله لا نجد واحداً منهم يقول : لقد عاملته وهذا إيصال أو كتاب منه ، لأن الحجة هنا كانت تكون فاصلة .

ونعود إلى الآيات التى جعلناها محور هذا الحديث لنقول : إنها أصدق وأوضح دعوة إلى اجتماع الكلمة حول الله الواحد الذى لا إله غيره ، لأن اجتماع الكلمة على عبادة الله الواحد هو الضمان الأكبر للسلام والأخوة بين البشر كما قلناه .

ذلك أن أهل الكتاب جميعاً يقولون إنهم يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً وما قرأت لنصرانى أو يهودى على أى مذهب من مذاهب هاتين الديانتين إلا وهو يؤكد ذلك ، ولكن النصارى جميعاً لا يمكن أن يتخلوا عن القول بالثالوث فى أى صورة من صوره ، ولا ذكر لعقيدة الثالوث فى الأناجيل أو فى العهد القديم ، إنما هو الله الواحد ، والمسيح كلمته التى ألقاها فى مريم بنت عمران فحملت بعيسى ، كما يقر الله سبحانه كل إنسان فى رحم أمه ، وفى الآية السادسة من سورة آل عمران نقرأ : ﴿ **هُو الذى يُصوركُم فى الأرحامِ كَيف يَشاء . لَا إله إلاّ هو العزيزُ الحكيمُ** ﴾ وليس فى الإنجيل فيما يتعلق بعيسى ابن مريم إلا هذا المعنى القرآنى ، وعيسى ابن مريم لم يقل قط إلا أنه رسول الله إلى البشر ، وعبارة « أبى » التى ترد على لسانه فى الأناجيل لا تعنى بالضرورة البنوة المباشرة ، بل إن المسيح عيسى ابن مريم يقول فى خطبة الجبل وفى كل حديثه إلى الإسرائيليين : إن إلهنا واحد ، ولكننا لا ينبغى أن ننسى أن المسيح

بعث فى عصر اختلاف عقائدى شديد ، وكانت الآراء الفلسفية التى قال بها فلاسفة الفكر الهليسنستى وخاصة فى الإسكندرية تملأ الجو وتلقى الشكوك فى القلوب . وقد قرر اثنان من أشهر أساتذة تاريخ الأديان هما أدولف فون هارناك Adolfh Von Harnach و F.C. Baur فريدريش باور أن القول بالثالوث كان ثمرة تأثر الفكر المسيحى بالفكر الهيلنى ، لأن القول بالثالوث أو ثلاثية المعبود نشأ فى مصر القديمة ، ولقى قبولاً فى الكثير من عقائد العصور القديمة والعصر الهيليسنستى ويذهب فريدريش شلا يرماخر Friederich Schleiermacher Sxhlaiermacher أن عقيدة الثالوث نشأت عن محاولة للتوفيق بين المسيحية والآراء الشائعة خلال القرنين المسيحين الأولين ، وفى أيامنا هذه يرجع تمسك الكنائس البروتستناتية بالقول بالثالوث إلى اجتهادات كارل بارث Carl Barth وسلطانه الواسع على الفكر البروتستانتى فى عصرنا ، أما بالنسبة للكنيسة المصرية فإن القول الفصل فى الثالوث تحدد بما تقرر فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية من أنه لابد أن تكون هناك علاقة بنوة بين الله والمسيح عيسى بن مريم لأن الابن ـ كما قالو ـ ينبغى أن يكون من طبيعة الأب ، والأب فى هذه الحالة هو الله ، وهذا هو القول الذى ثبت عليه الانبا اثناسيوس واضع أسس العقيدة المسيحية على المذهب القبطى القائم على القول بوحدانية الله مع عدم إنكار البنوة فى حين تأثرت العقيدة الكاثوليكية بآراء لاهوتيين من أمثال باسيل وجريجورى النازيانسى ، ولهذا فإن للكاثوليكية عقيدة فى الثالوث تختلف اختلافاً بيناً عن قول الكنيسة القبطية فيها ، وهذا الخلاف هو الذى أدى إلى طرد الأقباط المصريين من مجمع فلقيدونية سنة ٤٢٥ م ، وهو مجمع مخرب ، فرق المسيحيين أحزاباً ، وأقباط مصر يسمونه مجمع اللصوص .

وهذه آراء أذكرها لا لكى أشكك مسيحياً فى مسيحيته ، ولا لكى أفتح الطريق أمام مسلم لكى يقول فى دين آخر شيئاً لا يليق ، فقد سبق أن قلت إن

شأن الإنسان مع دينه شأن وراثة ، فنحن نرث أدياننا كما نرث لغاتنا عن ابائنا ، ثم نتمسك بعقائدنا التى ورثناها تمسكنا بأصولنا التى نفخر بها ، ولا فضل لنا فى هذه الوراثة ، ونحن نصر على أن تراثنا هذا هو أساس شخصياتنا ولباب وجودنا فكيف نتحول عنه ، ولا يحدث إلا فى القليل النادر جداً أن يبلغ إنسان منا سن الرشد فيقول : الآن إدرس الأديان جيعاً لكى أختار لى الدين الذى أرى أنه الحق

فليطمئن أصحابنا الذين يغالون فى حماستهم الدينية ويزعمون أن لهم فضلاً فى إيمانهم بالإسلام مثلاً ، وكل الذى نطالبهم به هو أن يكونوا مسلمين صالحين ، أو يكونوا على خير ما يكون عليه المسلم ، وهذا هو مايقوله الله سبحانه وتعالى فى الآيات التى جعلناها محوراً لهذا الفصل :

﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : أشْهَدُوا بأنا مسلمون ﴾ .

أجل ! إذا لم يسمعوا لك فكل ماعليك هو أن تشهد الناس على أنك مسلم وهنا ينتهى واجبك بحسب مايقرره القرآن ، ولنلاحظ هنا أن الكلام موجه إلى أهل الكتاب ، أى النصارى واليهود ، لأن للإسلام موقفاً آخر من الكفرة عباد الأوثان ـ فإذا تطرق مسلم إلى ما وراء ذلك فى حديثه مع أهل الكتاب فقد تجاوز حده الذى رسمه الله تعالى له فى هذه الآيات ، وبودى لو قرأ كلامى هذا بعض شبابنا ممن لم يتلقوا ثقافة إسلامية صحيحة ، فيحسبون أن الإسراف فى الحماسة والتعدى على أصحاب الديانات الأخرى من أهل الكتاب فضيلة إسلامية ، وهو فى خروج على مارسم لنا القرآن ، فإن قوة العقيدة الإسلامية تأتى دائماً من منطقيتها ومن أخلاقياتها ، فنحن مطالبون بأن ندعوا لدينا بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالعنف والغلظة ومظهر التدين الخارجى من هيئة وملبس أو جهامة أو عناد وأولى بنا أن نذكر دائماً أن الإسلام واضح بين ، وما إلى ذلك مما يمكن أن

يخدع النـاس ، ولكنـه لا يجوز على الله سبحـانـه ، وأولى بنـا أن نـذكـر دائماً أن الإسلام واضح بين ، وأن كل ماعلينا حياله ـ إن كنا نؤمن به حقاً ـ هو أن نتخلق بأخلاقه ، ونتبع مـا يأمر به من سلامة النية والطـوية وحب الخير للناس والبعد عن الأنـانية ومخالقـة النـاس بخلق حسن ، كما كان رسـول الله ﷺ يعمل حتى نكون نحن خير دعـاية للإسـلام ، ونعرف الناس بـديننا بهذه الطريقـة وندعهم وشأنهم ، فإن الهدى هـدى الله وهو سبحـانه أدرى بعبـده ، ولا يذكر التـاريخ حالة تعصب دينى واحدة أدت إلى خير أو خدمت المتعصبين أو عقيدتهم .

ثم تتجـه الآيات القرآنيـة من سورة آل عمـران التى نتابـع دراستها الآن إلى أصول عبادة الله الواحدة ، وهى عند إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء ، فهو أول من قال بعقيـدة التوحيد الخالص بعـد نوح عليه السـلام ، وقد قال بـه فى كلام صريح واضح لا يداخله شك :

﴿ ياأهل الكِتاب لِم تُحاجُون فى إبراهِيم وما أُنزِلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلا من بعدِهِ ، أفلا تعقلون . هـا أنتم هؤلاءِ حاججتم فِيما لكُم بِهِ علمٌ فلم تحاجُون فِيما ليس لكم بـهِ علمٌ ، واللهُ يعلمُ وأنتُم لا تعلمُـون . ماكـان إبراهيمُ يهودِياً ولا نصرانِياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المُشرِكِين. إن أولى الناسِ بإبراهيم للذِين اتبعُوه وهذا النبِيُّ والذِين آمنُوا واللهُ ولى المؤمِنِين ﴾ [آل عمران ٣/ ٦٥ ـ ٦٨] .

وهـذه الآيـات تعطينـا مثالا ممـا كـان رسـول الله ﷺ يلقـاه من عنف أهل الكتاب ، ومـا كانـوا يواجهـون به الـرسول من مزاعم لا تقـوم على علم أو فهم حقيقى ، وهنا يعنينا الحافظ ابن كثير فى تفسيره لمعرفة الظروف التى أوحيت فيها هذه الآيات إلى رسول الله ، وهى ظـروف يمكن أن يلقاها أى مسلم فيستعين بها على مـايواجـه بـه ، ولقد قـرأت من كـلام بعض غلاة المستشرقين فى تعـرضهم للإسـلام كلاماً كثيراً فى هذا المعنى وخاصـة اليهود منهم من أمثال إبراهام جايجر

وهورفيتز Abraham geuger Horovitz و هـ . هير شفيلد H. Herschfeld و A.J. Winsinch وتعجبت من تحاملهم على الإسلام دون روية ، وعذرت اليهود منهم فى هـذا البغض للإسـلام لأنـه بغض تقليدى لا يـرجع إلى نـزاعنا معهم حـول فلسطين ، ومن أمثلـة ذلك أن أشد حملات اليهـود على الإسلام تجدهـا فى دائرة المعارف اليهودية The Jewisch Eneyclopedia طبعـة ١٩٠٦ ، وكل مـوادهـا أعدت قبل ذلك بسنوات ، ولم تكن بيننا وبين اليهود فى ذلك الحين أى عداوة ، ولكنها شىء غـريب مركب فى طبعهم ، واقرأ فيهـا مواد : محمد وإسـلام ومكة والمدينة والعرب وتعجب من عنف الهجوم والافتراء دون مبرر .

ولكنى كما قلت لك تعجبت من عنف رجل مسيحى هولندى هو فانسينك Wensinck فى نقد الإسلام وعـداوة رسوله ، ولم أجد قط مايدعـو إلى الرد عليه ، لأنك ترد على شىء منطقى بمنطق مثلـه ، ولكنك لا تدرى كيف ترد على شىء عاطفى إلا بالأسلوب الذى أمرنا الله به وهو إهماله ، لأنه لغو أو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأحيانا تجد الحملة على الإسـلام ترجع إلى أسباب سياسية ، كما تجد عنـد الكونت ليـونى كايتـانى Leona Caeteni وخاصـة فى كتابـه المسمى بحوليات الإسلام Annali dell Islam فقد كتبـه الرجل بينما كـانت إيطاليـا قد استولت على ليبيا ، ومضت تحاول تحويلها إلى بلد مسيحى ، فكتب هو يهاجم الإسلام ويهون أمـره ، وقد انتهت المعركة السيـاسية بانتصار الإسـلام نصراً مؤزراً على أيدى السـنوسيين الذيـن اجتهدوا فى الدعـوة ومدوا رواق الإسـلام على كل وسط الصحراء الكبرى وإقليم تشـاد ، ومادام الإسـلام قد رد عليـه أبلغ رد فقد انتهينا من أمر كاتيانى وأمثاله .

وينفعنا فى فهم هذه الآيات المؤرخ المحدث ابن كثير ، فهو يقول هنا ـ راوياً بسنده إلى ابن عبـاس ـ اجتمعت نصارى نجران وأحبـار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعـوا عنده ، فقالت الأحبـار ماكـان إبراهيـم إلا يهودياً ، وقـالت النصارى

ماكان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله على عبده هذه الآيات التى تدحض مايقولون بالحجة البالغة ، فإن التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ ونزيد نحن كلام ابن كثير بياناً فنقول إن اليهود منسوبون إلى يهودا أو يهوفا ، وهو عندهم اسم الله الذى تصوروه وصوروه على هواهم ، فهو إلههم وحدهم دون غيرهم من أصناف البشر ، أما النصارى فمنسوبون إلى يسوع الناصرى أو المسيح ، ومن ثم فلا يمكن أن ينسب إبراهيم إلى شىء كان بعده ، أما الإسلام فهو اسم عقيدة إسلام الإنسان وجهه لله وتسليمه نفسه لمشيئته ، وهو لا ينسب إلى محمد ﷺ ونحن لا نحب أن نوصف أو نسمى بأننا محمديون Muhammedans وإنما نحن ومحمد أتباع الحق سبحانه ، وتأمل قول الله سبحانه فى الآيات التالية ، لتعرف حقيقة طريقة الإسلام فى الدعوة : ﴿ **إن أَوْلَى النَّاسِ بإبراهِيم لَلَّذِين اتبعوهُ وهَذا النَّبِى والذِين آمَنُوا واللهُ وَلِىُّ المؤمِنِينَ** ﴾ .

ويستوقف نظرى فى هذا المقام أننى قرأت الكثير من كلام اللاهوتيين اليهود والمسيحيين فما وجدت عندهم انتساباً حقيقياً إلى إبراهيم عليه السلام ، أما اليهود فقصاراهم التوراة والبحث عنها وعن أصولها والرجوع إلى موسى وتتبع أخباره والانتهاء بعقيدتهم عنده ، ومن غريب مايلاحظ فى دراسات كتابات أحبار اليهود Tabbinical literature هو أن إبراهيم عندهم سابق على موسى وممهد له ولا زيادة ، وبعد ذلك تنتهى رسالة إبراهيم لأن الله فى رأيهم أوحى إلى موسى الألواح وهى جزء من التوراة ، ثم أكمل التوراة بما تجده عند أنبياء بنى إسرائيل سواء فى الكتابات اليهودية أو العهد القديم ، أما اللاهوتيون المسيحيون بمن فيهم الكاثوليك فجهدهم كله موجه إلى الأناجيل وما لدينا من أخبار عيسى ابن مريم ؛ لأن رسالة إبراهيم وكل الأنبياء من بعده رسالة ناقصة ، فهى الوعد والتمهيد لمجىء عيسى ابن مريم بالبشارة على الصورة التى يحكونها ،

ومن غريب ماأذكر هنا آن أوْفَى أخبار عيسى ابـن مريم نجدها فى القرآن الكريم لا فى الأنـاجيل ، لأن الأناجيل لا تقص علينـا من أخبار عيسى ابن مـريم إلا شهـوراً وربما أسابيع فحسب ، فكلهـا تبدأ بـأخباره منـذ بدأ يـدعو عنـد بحيرة طبرية ، وكيف بدأ الحواريون ينضمون إليه ومن غريب ما تقرأ عندهم أن عيسى ابن مريم كان يحس بقرب منيته فنقل كل مـا منحه الله إياه من قوى على الإتيان بالمعجزات إلى الحواريين ، قال أحد كبار شراح إنجيل مرقص « ثم صعد - يريد المسيح عيسى ابن مـريم - إلى الجبل ودعـا إليه هناك الـذين أرادهم ووقع عليهم اختياره من بين أتبـاعه الكثيرين ليكـونوا تلاميـذه الأحقاء الملازمين لـه ليؤهلهم بتعاليمه و إرشـاداته ليكونوا رسلا لـه وليكرسوا أنفسهم لخدمة بشـارته ، فجاءوا إليه فأقـام منهم لهذه الغاية اثنى عشر رسـولاً ، وقد منحهم سلطانـاً لأن يشفوا المرضى ويطردوا الشياطين أى أنه منحهم سلطانه الذى خوله الله إياه ليستخدمه فى صنع المعجزات ، فأصبحوا ممثلين له ونوابـاً عنه ومنفذين لمشيئته ، وقد جعل عددهم اثنى عشر ليكـونوا بعـدد أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر ، إذ أنـه دبر بحكمته أنهم فى يـوم الدينـونة يـدينون أسباط بنى إسرائيـل الاثنى عشر ، وكان أولئك الرسل هم سمعان الذى لقبه بطرس ، ويعقوب بن زيدى ، ويوحنا أخو يعقوب اللذين لقبهما بوا نرجس أى ابنى الرعد ، لحماستهما الشديدة ، وأندراوس ، وفيلبس ، وبـرقلماوس ، ومتى ، وتومـا ، ويعقوب بن حلفى ، وتـداوس ، وسمعان القانوى ، ويهوذا الأسخريوطى الـذى خانه فيما بعد وسلمه لأعدائه ، ثم يلى ذلك تصميم أحبـار اليهود على القضـاء على عيسى ابن مـريم خوفـاً من دعوته ومحاولة حوارييه وآله وأتباعه إنقاذه من أذاهم ، ثم القبض عليه ومحاكمته والحكم بموته ثم صلبه فى قولهم .

وهـذا كلام لا أقـوله ليستعملـه المسلمـون فى الحجاج ، وإنما لكى يتأملـه المسلمـون ويقـارنوه بما عنـدهم ، وقـد يحدث أن يـوفق الله أحـدهم إلى الخروج

للدعوة للإسلام فى بلد أفريقى أو آسيوى ، فهناك سيجد قطعاً مبشرين نصارى فيكون على علم بما عندهم ، وهذا كله ينفعه فيما هو قد رصد نفسه له من الدعوة للإسلام ، وأحب أن أذكر أولئك الإخوة إلى أن كل اليهود والنصارى متمسكون بدينهم ولا معنى لمجادلتهم فيه ، فلايكونن همنا الإساءة إلى الناس فى أعز مالديهم ، وهو أديانهم ، وكما نعتز نحن بديننا فإن غيرنا حقيق بأن يعتز بدينه ، وعلينا احترام هذا الاعتزاز ، لأن الله سبحانه إذا كان قد خلقك مسلماً فهذه نعمة لا يد لك فيها ، وإنما أنت تشكرها بأن تكون على مستواها وأهلاً لها وإذا كان سبحانه قد خلق غيرك على غير الإسلام فإن له من وراء ذلك حكمة ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، والهدى هدى الله ، وإنما هذه كلها معلومات تنفع الداعى للإسلام بين عبدة الأوثان أو عبدة الأرواح أو المجسمين من البدائيين ممن يراهم على غير دين ، ولا أجد ماأؤيد به كلامى فى هذا المقام إلا الآيات التالية من نفس نسق آيات آل عمران التى نتابعها الآن :

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهُدى هُدى الله أن يؤتى أحدٌ مِثل ماأوتيتم أو يُحاجُوكُم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاءُ والله واسعٌ عليمٌ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٧٣] .

وهذا هو نهج الإسلام فى الكلام مع أهل الكتاب : حكمة وموعظة حسنة وطهارة فى القول دون استعلاء أو غرور أو عدوان ، لأن الهدى بيد الله لا بأيدينا واللجاجة فى الدين لا تؤدى إلى خير أبداً .

وعسانا لا ننسى أبدا أن الدين لله وأن الوطن للجميع ، وأن الله سبحانه إذا كان قد جعل الهدى بيديه فإنه جعل أوطاننا بين أيدينا ، فلندع ما لله لله ولنهتم بما ألزمنا به الله ، ولنجتهد فى الحفاظ على وحدة أوطاننا ، لأن أعداء هذه

الأوطان كثيرون ، والله سبحانه عندما قال لرسوله : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يَهدى من يشاءُ** ﴾ كان يريد أن يزيده بصيرة بحدود مسئوليته ، والآيات بتمامها فى سورة القصص وسأتلوها عليك فهى ترسم لك حدود كلامك فى الدين :

﴿ **وإذا يُتْلى عليهم قَالُوا آمنا بِهِ إِنه الحق من ربنا إنا كُنا من قبلِهِ مُسلمِين . أولئِك يُؤتَوَن أجرهُم مرتين بما صبرُوا ويدرأون بالحسنةِ السيئة ومما رزقناهُم يُنفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنهُ وقالُوا لنا أعمالنا ولكُم أعمالكُم سلام عليكُم لا نبتغِى الجاهِلين . إنك لا تهدِى من أحببت ولكن الله يهدِى من يشاءُ وهو أعلمُ بالمهتدين** ﴾ .

[القصص ٢٨/ ٥٣ ـ ٥٦] .

وهذه الآيات الكريمات ترسم لك المنهج الذى ينبغى عليك اتباعه فتأملها ملياً واعمل بها ، ولا تأخذنك الجاهلية فتتخطى حدودك وتظلم نفسك ودينك ووطنك ، واذكر أنك إذا استطعت أن تكون مسلماً صحيح الإيمان والطوية ، سليم دواعى الصدر ، خالص النية لله ، كافاً عن الناس أذاك ، فهذا حسبك ، وليتنا كلنا كنا كذلك إذن لكنا فى حال غير الحال .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[سورة إبراهيم : الآية ٣١]

فى هذا المقال ومايليه نتحدث عن عبادات الإسلام : فضائلها ومراميها ونواحيها الحضارية ، فإن هذه العبادات جميعاً تنشىء بين العبد وخالقه علاقة مباشرة تنفع العبد أكثر ماتنفع ، وترفع قدره وتفتح أمامه آفاقاً واسعة للخير والأمل .

وسنبدأ هذه المرة بالكلام عن الصلاة والزكاة فنلاحظ أنهما تردان فى الغالب متلازمتين ، فإذا ذكرت الصلاة جاء معها ذكر الزكاة لحكمة رفيعة أرادها الخالق فإن الصلاة حق الله على عباده ، والزكاة حق المؤمن على أخيه المؤمن ، والله سبحانه يربط بين حقه جل وعلا وحق العباد ، حتى يشعر الإنسان أن الإسلام فى بعض معانيه علاقة شاملة بين المؤمنين فى جملتهم وتضعهم على صلة دائمة ، فالله سبحانه خالقهم ، والصلوات المفردة تربط بين الإنسان وربه ، وصلوات الجماعات تربط الأمة كلها إلى خالقها ، وتوقف أفرادها صفوفاً متراصة متساوية تخاطب ربها ، وتعلن إليه خضوعها ، وتسأله الخير والبركة ، والإمام هنا لا يقوم

بـدور القس أو الـوسيط وإنما هـو ضـابط لـوحـدة المسلمين فى الصـلاة ، لأن الإسلام عندمـا حلت بركاته على الخلق أراد أن يجمعهم فى وحـدة إيمانية ، وهى روحية وشكلية معاً ، فنحن نصلى على نسق واحد حدده رسـول الله ﷺ وقال : « صلـوا كما رأيتمـونى أصلى » بل إن الله سبحـانـه وتعـالى يـربط بين التنظيم العسكرى لجماعـة المؤمنين وإعدادهم الروحى ، فهـو يرينا فى آيات كـريمة من سورة المائدة كيف نصلى صلاة الخوف ، لأن إعداد الأمة للجهاد كان من مرادات الله من وراء نعمة الإسلام .

فإن أمة الإسلام فى تقديره لابد أن تكون أمة مجاهدة ، وكل مسلم قادر على حمل السلاح ينبغى أن يتأهل للحرب ويقوم بواجب الدفاع عن الأمة ويشارك فى إبلاغ كلمة الحق إلى ملايين الخلق ممـن ينتظرونها ، وخلال السنوات العشر التى قضاها رسول الله عامـلاً فى المدينة كان تحويل الأمة إلى جيش مجاهد فى سبيل الله من أوليات غايـاته ، وهو لم يقصد من وراء الغـزوات النيف والثمانين التى قادها أو أرسلها لم يقصد إلى الغزو أو الغلب أو الغنيمة بقـدر ماقصد إلى فتح المسالك للإسلام إلى بلاد الناس وقلوب الناس ، وهو لم يقصد قط إلى إنشاء جماعة صغيرة من المحاربين المدربين يقومون بواجب الجهـاد وبقية الأمة قعود ، لأن ذلك كان من شأنـه أن ينشىء أقلية عسكـرية قـويـة منفصلة أو متميـزة عن بقية الأمـة . وذلك كان يؤدى من تلقاء نفسـه إلى سيادة الأقوياء على المستضعفين داخل أمة الإسلام ، وهـذا يتنافى مع روح الإسـلام ولا يتفق بحال مع روح البـذل والعطاء والجهاد التى ينبغى أن تعم أمة المؤمنين وتميزهـا عن غيرها من الأمـم ، وإنما قصد رسول الله إلى تحويل الأمة إلى أمـة مقاتلة ، ومن النتائج البـاهرة التى حققها قبل وفاته أنه بمواصلته المستمرة للجهـاد وحرصه على أن يشارك الناس كلهم فيه أنه جعل أمة الإسلام كلها أمة جيشاً أو جيشاً أمة .

وآتيك بآيات صلاة الخوف لكى تتبين الـربط الدقيق بين الصلاة والجهاد

وهذه الآيـات حافلة بالحكم والمعـانى الإسلامية ، فلنقـرأها على مهل ، فإن للقرآن أعماقـاً لا يدركها إلا القـارىء المتمهل المتدبر ، والإسـلام كما نعرف دين القلوب ودين العقول جميعاً .

﴿ وإذا ضَربْتُم فِي الأرضِ فليْس عَليكُم جُناحٌ أن تقصُروا من الصَّلاةِ إن خِفتُمْ أن يفتِنكُمُ الذِين كفرُوا إِن الكَـافِرِين كانوا لكُـم عـدُواً مُبِيناً ﴾

[النسـاء ٤/ ١٠١] .

وهنا نلاحظ أن الله لم يحل للمؤمنين أن يرجئـوا الصلاة عند خوف العدو ، لأن إرجاءها معناه أنها عند الله شىء آخر غير الجهاد ، فهى عنده سبحانه وتعالى جهاد من نـوع آخر ، وإنما الذى شرع للمـؤمنين فى هذه الحالة هـو أن يقصروها فحـسـب ويصلـوهـا فى وجـه العـدو وفى ميـدان الحرب وسـاعـة الخوف ، وأول ماصليت صـلاة الخوف كان فى غزوة ذات الـرقاع فى المحـرم سنة ٥ هـ / يـونيو ٦٢٦ م ، وهى إحدى الغزوات التى قادها ﷺ أو السرايا التى بعثها على أعراب نجد ممن غدروا بالمسلمين فى مأساتى بئـر معونة والرَّجِيع ، وكان أولئك الأعراب أو الأعاريب قـد اجتاحهم خوف مـن قوة أمة المدينـة ، فقد تعودوا أن يفـرضوا أنفسهم على الجماعات المستقرة فى شمال الحجاز ، أو على طرق التجارة الصادرة إلى العراق وجنوبى الشام ، فجاءت أمة المدينة وفرضت نفسها على شمال الحجاز كله ، وانتدبت نفسهـا لتحرير العباد من سلطان أولئك البـدو وفرض الإتاوات على الناس وإرهابهم بـالغلظة والقسوة وأساليب الغـارة والسلب ، فدعتهم أمة الإسـلام إلى دخول الإسـلام ، ورفضت أن تـؤدى لهم إتـاوة أو خفـارة ، وكانـوا يأملون أن تستطيع مكة قهر أمة المدينة فى غزوة أحد ، ولكن أمة المدينة خرجت من محنة أحد قوية ظافرة ، وأبو سفيان زعيمها أحجم عن لقـاء المسـلمين فى « بدر الموعـد » كما وعد ، وأقام المسلمون سـوق بدر عشرة أيام باع النـاس فيها

واشتروا فى أمان أمة المدينة .

وهـذا الغيظ من أمـة المدينـة كـان وراء غدرتى بئـر معـونـة والـرجيع التى احتملت وزرهـا بعض قبائل عـاليـة نجد من لحيـان ومحارب وعـامر ، فخـرج الرسول إلى ذات الرقاع وسط منازل هذه القبائل المتمردة بل فى منازل أقواها وهى أنمار وثعلبة ، فتهارب رجـالها أمام قوات المسلمين واختفوا يـرقبون المسلمين من وراء آكـام الرمـال ، وإن قلـوبهم لترعد وهـم يـرون المسلمين يستـاقون أنعـامهم ويأسرون من قـدروا عليه من أهلهم ، وهنـا وتحت بصر أولئك الجامدين الـذين ذلوا لعزة الإسلام يقوم المسلمون بصلاة الخوف وسط ميدان القتال ويصلونها على النحو الذى أمرهم به الله سبحانه فيما يلى :

﴿ وإذا كُنتَ فِيهِمْ فـاقمتَ لهُم الصـَلاةَ فلتقُم طـائفـة منهُم معكَ وليأخُذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فَليكُونُوا من ورائِكُم ولتأتِ طائِفَةٌ أخرى لم يصلوا فليصلُـوا معكَ وليأخُذُوا حِذرهم وأسلحتهم . ودَّ الـذين كفرُوا لـو تغفلُون عن أسلحتكُم وأمتِعتكمْ فيميلـونَ عليكُم ميلةً واحـدةً . ولا جُنـاح عليكُم إن كـان بكم أذَى مِن مطـرٍ أو كُنتم مـرضَى أنْ تَضَعُـوا أسْلِحَتكُمْ وخُذوا حِذْرَكمْ إن الله أعد للكافرِين عذاباً مُهيناً ﴾ .

[النساء ٤/ ١٠٢]

وهكذا أدى المسلمون صلاتهم فى نحـر العدو وهو يتأملهم فى ذعر الخائف ورعب المتلصص الذى يخشى أن يـدركه العقاب ، وقـد تركت هذه الصـلاة أثراً عميقاً جداً فى نفـوس أولئك المعربدين ، فقد رأوا أنـه لا قبل لهم بأمة الله ، وإن أوان العربدة وإرهـاب الناس ونهبهم قد انتهى ، ولم يعد أمـامهم إلا الدخول فى أمة الإسلام والإيمان والنظام والعزة أو الفناء ، هنا وعلى ضوء هذا الربط التاريخى يتجلى لك معنى جـديـداً من معـانـى الصـلاة ، فهى ليست معـرضـاً لـلإيمان

فحسب بل هى معرض للقوة ، وهى بهيئتها ونظامهـا وترتيبها مظهر من مظاهر عزة المؤمنين .

وقد درجنا على أن نفصل فى دراستنا بين العقيدة والشريعة ، مع أن الإسلام كل واحد فى ذاتـه ، فعقيدته أخـلاق وحضارة كما رأينـا فى كلامنا عن التـوحيد ومعانيـه الحضـاريـة ، والشريعة (وتدخل فيهـا العبادات) أخـلاق وحضارة ، والصلاة التى نحن بصددها هى رأس العبادات ، ولكنك لا تستطيع النظر إليها على أنها مجرد فرض مقرر على المسلم ، وأن المسلم يقوم بها لأن الله سبحانه أمر بها ورسول الله ﷺ نظمهـا ووقتها ، وتطيل كتـب الفقه الكلام عـن تفاصيل إقـامة الصلاة ، حتى إن باب الصـلاة فى كتاب مثل موطأ مالك يقـع فى مجلد كامل ، ومسنـد أحمد عنـدمـا يـورد أحـاديـث الصـلاة يسترسل فى الكـلام والـروايـات والأحاديث والآثار حتى يحسب الإنســان أنه لن يفرغ ، وهذا كله عظيم ولكنه لا ينبغى أن يشغلنـا عن الحكمـة الكبرى من فـرض الصلاة ، وهى أنها تـربيـة وتهذيب وأخـلاق وتكوين لشخصيـة المسـلم والجماعـة المسلمين ، وعندمـا أرى المسلمين يهرعون لأداء الصلاة فى وقتها خطفاً كأنها واجب يتخلص منه الإنسان لينساه يتملكنى العجب ، ويقع فى خاطرى أننا ينبغى أن نعيد النظر فى الصلاة لكى يزداد استمتاعنا بها وانتفاعنا منها .

وأنا عندمـا أنهض للصلاة أشعر بفرحـة ، لأننى سأقف لحظات بين يدى خالق الكون أدعوه وأناجيه لأن الصـــلاة فى أصـلها الدعـــاء أو طـلب الرحمة وما قضيت فريضة الصلاة مرة إلا أحسست بعد أن أسلم منها أننى أحسن حالاً بعدهـا ، وقد تعجبت مـرة وأنـا فى الحرم النبـوى من رجل واقف يصلى فى ركن المسجد وقيل لى : إنه يصلى كل يوم مائة ركعة بين الظهر والعصر ، ومائة أخرى بعد صلاة العشاء ، وقلت فى نفسى كيف يعـد الركعات المائة ، وهل هو يصلى أو يحسب ؟ هل هو مؤمن أو عداد ؟ ومثل هذا الرجل لم يقرأ قول الله تعالى :

﴿ ليس البرَّ أن تُولـوا وجُوهكُم قِبل المشرِق والمغـرِب ولكنَّ البَّر من آمن بالله واليـوم الآخرِ والملائِكة والكِتـاب والنبِيين . وآتى المال على حُبه ذوِى القربـى واليتامى والمساكِين وابـن السبِيلِ والسائِلِين وفى الـرقاب وأقام الصلاة وآتى الـزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهـدوا والصابرِين فى البأساءِ والضراءِ وحِين البأسِ أولئك الذِين صدقُوا وأولئك هُم المتقون ﴾

[البقرة ٢/ ١٧٧].

فهنـا نجد الصـلاة فى إطار عـام إنسانى أخـلاقى شـامل يصـور لنا لبـاب الإسلام عقيدة وشريعة ومكارم أخـلاق مجموعة بعضها إلى بعض على نحو تحس معه أن صـلاتك جزء من أخلاقيات وسلـوكيات شاملـة لا يصح إسلامك على الـوجه الأكمل بـدونها ، فأنت تصلى لأنك تـزكى ، وتـزكى لأنك تصلى ، لأن العبادة الـواجبة عليك لله سبحـانه وتعالى لا تتم إلا إذا قمت بـالعبادة الـواجبة عليك نحو أخيك المسلم المحتاج وهـى الزكاة ، ثم إن البر ـ وهو الـوفاء بعهدك مع الله ـ لا يتم بمجرد تـوجهك فى الصلاة نحـو المشرق أو المغرب ، وإنما هـذا الـوفـاء لا يكتمل إلا إذا قـام على أســاس متين من الإيمان بـالله واليـوم الآخـر والملائكـة والكتاب ـ والمراد به هنـا كل كتب الله الصحيحـة ـ والنبيين . وهـذا الإيمان الشامل بالله وكتبه ورسله لا يكتمل إلا إذا تخلقت بخلق إسلامى إنسانى صحيح ، فأعطيت المال على حبه ـ أى دون نظر إلا إلى رضـا الله سبحانه ـ وكان عطـاؤك شامـلاً لكل المحتـاجين من حولك على قـدر طـاقتك . والعطاء هنـا إسـلامى أى أنـه لا يقتصر على المحتـاجين بـل يشمل ابن السبيل ، وهـو الأخ المسلم الضارب فى الأرض منقطعاً عن أهله وناسه ، فأصبح مسئولية أمة الإسلام كلها ، لأن الإسلام دين ووطن ، ولابد كـذلك من أن تفكر فى أسارى المسلمين والذين يقعون منهم فى ضيق وشدة . والأسير فى الإسلام لا يقتصر على من يقع فى أسر العـدو بل يشمل كل من وقع فى أسر المرض أو الحاجـة أو الهموم ، وقـد

سمع الصوفى المشهور أحمد الرفاعى عن امـرأة ركبتها الهموم بسبب ابن لها اغتاله اللصـوص على الطـريق ولم يكن لها غيره ، فنهض إليهـا مع نفـر من أصحـابـه ليـواسوهـا بالمال والصحبـة ، وأوصى بها واحـداً من أتباعـه وقال لـه : لا تنس الأسيرة ، لقد أوصانا الله سبحانه بها عندما أمرنا بأن ننفق المال فى الرقاب ، فكوا رقبة الثاكلة الأسيرة .

بل إن البر لن يتم بذلك كلـه فلابـد من الوفاء بـالعهود ، وقد قـال الإمام الغزالى فى الإحيـاء : عجبت ممن ينقض العهد ويعد نفســه فى أهل التقوى ، بل إن البر لا يكتمل إلا بالصبر فى البأساء ، والإمام الجوينى يفسر البأساء هنا بأنها الصبر فى الجهاد فى سبيـل الله ، لأن الله ذكر الصابـرين فى البأساء هنـا ثم فسره بقولـه تعالى (وحين البأس) أى عند عدوان المشركين على دار الإسـلام أو خروج المؤمنين للجهاد فى سبيل الله .

وهذه كلها أخلاقيات وسلوكيـات إسلامية مترابطة يكمل بعضها بعضا ، والله سبحانه يختتم هذه الآية العظيمة بقوله ﴿ **أولئك الذين صَدقوُا وأولئك هُمُ المتقُونَ** ﴾ .

هنا ترى أن إقام الصلاة هو فى الـواقع جزء من واجبات ومطالب وخصال كثيرة جداً لا يكتمل إيمان المؤمن ولا يكـون من الصادقين المتقين إلا بها جميعاً ، ولكن الصــلاة تتميز من بين واجبـات المسلم هنا بأنها العبـادة التى تضعك بين يدى الله سبحانه وتعالى ، فتشعـر أثناء قيامك بها بمكانك من الله ومكانك من الإسلام ، ولذلك فقـد جعلها الله خمس صلوات موزعة على سـاعات النهار من الفجـر إلى الليل ، حتى يكـون حضـورك مع الله مستمرًا ، ويكـون حضـور الله سبحانه وتعالى فى قلبك جزءاً من كيانك .

وهذا هو جانب الجمال فى الصلاة فى الإسلام ، إنها تهب المصلى راحة نفسية

وترفع عن كاهله أعباء الحياة ، لأنه مادام مقيم الصلاة فهو لا يشعر أنه يقف وحده فى مواجهة الحياة ، فإن الله دائماً معه ، وإذا نزل به ضيق فإن الله معينه على الخلاص ، ولهذا يحتاج الانسان إلى الصبر مع الصلاة ، ولهذا يقول الله سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذين آمنُوا استعينُوا بالصَّبرِ والصَّلاة إن الله مع الصَابِرين ﴾ [البقرة ٢/ ١٥٣].

والصبر هنا ليس هو صبر الكسالى الذين يحسبون أن الصبر إنما هو التواكل وقعود الإنسان خاملاً حتى يأتى الفرج من عند الله ، وإنما هو صبر المؤمنين المتقين الذين يبذلون أقصى الجهد فى السعى والعمل ، ويتوكلون على الله بعد ذلك ، وكان هذا هو مذهب رسول الله ببذل أقصى وسعه فى أداء رسالته ويستعين بالصبر والصلاة ، وكان يجد فى الصلاة راحة نفسية ويسميها قرة عينه وأحياناً كان يستطيل الوقت بين الصلاتين ويشتاق إلى الوقوف بين يدى ربه فيقول : أغثنا بها يا بلال .

والصلاة من العبد دعاء إلى الله ، وصلاة الله سبحانه على العبد رحمة منه به :

﴿ وبشرِ الصَّابرِينَ . الذِين إِذا أَصَابتهُم مصيبةٌ قالُوا إنَّا لله وإنا إليه راجعون ، أولئِك عليهِم صلواتٌ مِن ربِهم ورحمة وأولئِك هم المهتدون ﴾. [البقرة ٢/ ١٥٥ ـ ١٥٧] .

وهذا من أجل معانى الصلاة فى الإسلام ، والله سبحانه يؤكده فى آيات أخرى مثل قوله :

﴿ يَأَيُّهَا الذِين آمنوا اذكُروا الله ذِكراً كثِيراً ، وسبحُوهُ بُكرةً وأصيلاً ، هو الَّذِي يُصلِّ عليكُم وملائِكته ليخرِجكم من الظلماتِ إلى النور وكان

بالمؤمنين رحيماً . تحيتهم يوم يلقونه سلامٌ وأعد لهُم أجراً كريماً ﴾.

[الأحزاب ٣٣/ ٤١ ـ ٤٤].

والمراد هنا ذكر الله فى الصلاة وخارجها ، ونحن نرفع أقدار أنفسنا بالوقوف بين يدى الله ونستعين بالمولى جل وعلا ، وهو يشملنا بعطفه ويصلى علينا وملائكته ، وذلك جانب آخر من جوانب جمال الصلاة فى الإسلام ، فهى رابطة ولاء وإيمان ورحمة وسلام بين الإنسان وخالقه ، ونحن فى الحقيقة عندما نصلى لا نقوم بواجب نحو الله فحسب ، بل نقوم بواجب نحو نفوسنا . فنحن نتطهر بها ونعتز ونلتمس بها من الله قوة وعزماً ورشاداً .

ولهذا فنحن لا نقوم للصلاة إلا إذا كنا على طهارة ، وقد أمرنا بالوضوء عند كل صلاة ، إلا إذا كنا واثقين من أن وضوءنا لم ينقض ، وكان رسول الله على طهارة أبداً لأنه كان مع ربه دائماً ، وقد فصل الله سبحانه أمر الوضوء ، لأنه أراد أن يضيف إلى طهارة النفس قبل الصلاة طهارة البدن .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إذا قُمتمْ إلى الصَّلاة فاغسلُوا وُجُوهكُمْ وأيديكمْ إلى المرافِق وامْسحُوا برُءُوسكمْ وأرجُلكُم إلى الكعْبَيْنِ وإنْ كُنتمْ جُنباً فاطَّهرُوا وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكمْ من الغائِط أو لامستمُ النساء فَلَمْ تجدُوا ماء فتيمموا صعِيداً طيباً فامْسَحُوا بوجوهكم وأيديكم منهُ ما يُريد الله لِيجعَل عليكُم مِن حرجٍ ولكن يريد ليطهركُمْ وليتمَّ نعمتَهُ عليكُم لعلكُم تشكُرُونَ ﴾ [المائدة ٥/ ٦].

وأنت ترى هنا أن الله ينص نصاً واضحاً على الطهارة مع الصلاة ، حتى تكون الصلاة طهارة ونظافة فى نفس الوقت ، وهو يفصل الأمر هنا لكيلا يستهين الناس بأمر النظافة والطهارة ، والنظافة كما نعرف مظهر من مظاهر الحضارة ، ومن عجب أننا مع كثرة تشدقنا بالدين لا نرعى جانب النظافة حق

رعايتـه ، وكأن علينا أن ننتظـر قرونـاً حتى يأتى أهل الغرب ويعلمـونا النظـافة وكيف تكون ، بل هـم الذين اخترعوا وسـائل جلب المياه إلى البيـوت ، وتنقيتها وتطهيرها وتيسير أمـور الحمامات ، ونحن مع ذلك لا نستحى ، وإلى يومنـا هذا مازال الكثير جداً من مســاجدنا فى حاجـــة إلى النظافة ، فى بلاد الغرب حيث لا تتطلب الصلاة نظافة أو طهارة لا تدخل الكنيسة إلا وجدتها آية فى النظافة .

وفى كل حى من أحيـاء المدن وفى كل قرية جمعيـة من الناس رجـالاً ونساء يهتمون بنظافة الكنيسة ، حتى المساجد الكبرى عنـدنا تجد لكل واحد منها فرقة من الخدم ومع ذلك فإنك تجد المسجـد فى حـاجـة إلى نظـافـة ، وإنما كل همنـا شقشقة اللسان ، وما أكثر المخادعين الذين يتمسكون بظاهر الدين دون لبابه ، وعرفت واحـداً من أولئك المنافقين إذا حـدث أن اضطرته الظـروف إلى لمس امرأة صدفة أسرع يتوضأ مع أن الله سبحانه لم يقل : ﴿ **إذ لمستم النساء** ﴾ بل ﴿ **إذا لامستم** ﴾ وفرق بين مجرد اللمس دون قصد والملامسـة التى تطول بعض الوقت وربما أثارت فى النفس شيئاً .

والصلاة صلاتان : صلاة المرء فى بيته أو **مفرداً** فى أى مكان ، وهى أداء الفرض مع ما لابد لذلك من خشوع وإحساس صادق بأن الإنسان مع ربه وبين يديه حتى يسلـم من صلاته ، **وصلاة الجماعة** ولها معان ووظـائف أخرى إلى جـانب فضائل الصـلاة التى نعرفهـا ، فهنا يجتمع المسلمـون بعضهم إلى بعض ليقيموا الصلاة حتى يشعروا بقوة الجماعة ويذكروا أنهم أعضاء فى الأمة الإسلامية الكبرى ، والإسلام ـ كما قلنـا فى فصول سابقة أمـة وجماعة وجيش ، ورسول الله ﷺ ربى أمتـه فى المدينـــة فى الصلـوات وفى المغـازى ، ولهذا فنحـن نطـالـب فى صلوات الجماعة بالتزام نظام يشبه نظام الجنود ، فنحن نصطف صفوفاً مستقيمة متجهة بـوجوهها وقلوبها نحـو الكعبة ، وهنا تأخذ الصـلاة معنى وحدة الهدف ووحدة الغـاية ، وهذه فضيلة ينفـرد بها الإسلام : إنه دين جماعـة ، ويد الله مع

الجماعة . ثم إننا نصلى خلف الإمام ، والإمام هنا رمز للقيادة ووحدة الأمة ، ونقف صامتين خاشعين ، ونتحرك حركة واحدة فى نية الصلاة والقيام والركوع والسجود .

وإمعاناً فى إشعارنا بروح الوحدة أثناء صلاة الجماعة قالت بعض المذاهب إن المصلى خلف الإمام يكتفى بقراءة الإمام وهو منصت ، حتى يكون المصلون جميعاً مع الإمام فى نفس الآيات . ولا ينبغى أن تنسينا صلاة الجماعة ماينبغى للصلاة من خشوع وصمت ، وهنا ينبغى أن ننبه إلى مجافاتنا لما ينبغى للصلاة الجامعة من خشوع ، فنحن نسمع قرآن الجمعة كأننا ننصت إلى مطرب ، ولا يكاد الشيخ يتلو آية حتى ينطلق نفر من الناس مستحسنين ، ويصل الأمر أحيانا إلى درجة تمس حرمة الصلاة ، وبعض المقرئين أنفسهم يدعون الناس إلى أن يصيحوا مستحسنين بإسرافهم فى التطريب مما يمس حرمة الصلاة ويخرج بنا عن خشوعها ، ولا تخلوا الصلاة فى المساجد من ثقلاء لا يزالون يصيحون : الله الله يفتح عليك ! وصلوا على حضرة النبى ! ووحدوه ! وكل ذلك خروج على ماينبغى للصلاة من خشوع وصمت وجلال ، وفى السنوات الأخيرة درجوا فى صلاة الجمع على أن يقولوا فى المذياع إن الصلاة يحضرها فلان الوزير وفلان المحافظ أو الموظف الكبير ، مع أن الناس جميعاً إذا دخلوا المسجد للصلاة انتفت عنهم صفاتهم الدنيوية والوظائفية ، ولم يعودوا إلا عبادًا لله يستوون مع غيرهم من عباد الله ، وحبذا لو أقلعنا عن هذه العادة التى يشعر الإنسان معها أن هؤلاء المسمين بالكبراء يشرفون المساجد بصلاتهم ، وماأظن أن واحداً منهم يريد ذلك .

وإذا كان الفن الإسلامى يعجبك فاذكر أن كل هذا الفن وما يتميز به من خصائص وشخصية فنية متميزة بين مدارس الفنون فى الدنيا إنما ولد فى المساجد هنا ولدت العمارة الإسلامية والزخارف الإسلامية التى تعتبر من أعاظم مدارس

الفن فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، وهذا باب واسع ألف الناس فيه الكتب ، وهذا على عظيم شأنه فى تاريخ الحضارة إن هو إلا ثمرة جانبية من ثمرات الصلاة ، وهى فى صميمها عبادة وعمل وحضارة شأنها فى ذلك شأن كل عبادات الإسلام .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[التوبة : الآية ١٠٣]

تحدثنا فى الفصل السابق عن الصلاة ومعانيها وحكمتها الإيمانية ومعانيها الحضارية ، وهذه المرة نتحدث عن الزكاة وهى توأم الصلاة ، والعبادة الثانية فى الإسلام ، ونفصل مغازيها ومراميها الإيمانية وكيف أنها تفتح أمامنا أبواب القول والفكر فى المال ووظيفته الإنسانية فى الإسلام .

ينفرد الإسلام من بين الديانات بعبادة الزكاة ، فإن الصلاة والصيام والحج توجد فى كثير من ديانات البشر ، إلا الزكاة بمعناها ومغزاها الإسلاميين ، فإنك عندما تزكى أو تتصدق لا تعطى أخاك المسلم ، بل أنت فى الحقيقة تعطى الله سبحانه ، والله يرده على جماعة الإسلام ، وفى ذلك من التكريم والرفعة لك ولجماعة الإسلام فوق مايستحق البشر ، واقرأ الآيات التالية من سورة التغابن لتقف على جلال هذا المعنى العظيم :

﴿ فَاتَّقُوا الله مااستطعتم واسمعُوا وأطيعُوا وانفقُوا خيراً لأنفسُكمْ ومن يوق شُحَّ نفسِهِ فأولئك هُم المُفلحون ، إن تُقرضوا الله قرْضاً حَسناً

يضاعفه لكُم ويغْفر لكُم والله شكُورٌ حليمٌ، عالِمُ الغَيْب والشَّهادةِ العزِيزُ الحكيمُ ﴾ [التغابن ٦٤/ ١٦ـ١٧].

وهذه معان عظيمة تريك جوانب شتى من جلال الإسلام وفضائله ، فإن الله تعالى يعرف أن الإنسان شحيح بماله مع أن المال على الحقيقة ليس ماله ، إنما المال كله لله ، وهو يستخلفنا فيه ، ولكن الإنسان شحيح بمالا يملك ضنين به على الآخرين ، وهذه غريزة فيه ، وهى ككل الغرائز ركبها الله فى طبعه الحيوانى لكى يحافظ على كيانه ، والله يأمرنا هنا بالتقى والطاعة لأن الطاعة تفتح لنا أبواباً من رضا الله وخيره علينا ، ثم يأمرنا بعد ذلك بأن ننفق من مالنا فى سبيل الخير . ويقول إن هذا الإنفاق ليس إحساناً على الآخرين . بل هو إحسان لأنفسنا ؛ لأننا فى الحقيقة لا نعطى الآخرين بل نقرض الله جل جلاله ، لأن المال الذى سنعطيه ليس مالاً ضائعاً ، بل هو قرض يرده الله علينا بأحسن مما أعطينا ، فهو يضاعفه لنا ويتفضل علينا بمغفرته ، والمغفرة فى ذاتها خير لا يقدر ولا يكتفى الله بمضاعفة القرض والمغفرة ، بل هو يشكرنا على ذلك ، لأن الله على رفيع قدره شكور حليم . والله عندما يشكر عباده المحسنين يعلمنا الشكر ، وهو من أعظم الفضائل .

وقد أحسن الخليفة هارون الرشيد على رجل بشىء من المال عندما حدثه بأمره القاضى أبو يوسف يعقوب ، فأخذ الرجل المال ومضى ، فقال له أبو يوسف : لم أرك شكرت أمير المؤمنين فقال الرجل : إنما أشكرك أنت لأنك أنت الذى كلمته فى شأنى ، فقال له أبو يوسف لو عرفت هذا من جحودك لما كلمت أمير المؤمنين فى شأنك قم يارجل فاشكر أمير المؤمنين ، فإن القلوب ترتاح إلى الشكر ، والله سبحانه أحب الشكر من عباده وجعل قلة الشكر مقابلة للكفر ، قال جل وعلا مخاطباً بنى إسرائيل : ﴿ وإذْ تأذنَ ربكُم لئن شكرتُمْ لأزِيدنكُمْ ولئِن كفرتمْ إنَّ عذابِي لشدِيدٌ ﴾ [إبراهيم ١٤/ ٧] .

وفى عصرنا هذا الذى عظم فيه شأن المال واشتدت حاجة الناس إليه تزداد إدراكاً لمعانى الزكاة وفضيلة الإنفاق فى سبيل الله . ونزداد فهماً لوظيفة المال فى الإسلام ، لأن المال كما نعرف ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لجلب المنافع ، ومن ثم فإنك لا تملك إذا ملكت المال لذاته ، ولا يغنى مال الدنيا كلها عنك شيئاً إذا أنت جعت أو عطشت أو مرضت ولم تجد الطعام أو الماء أو الدواء . وأنت كذلك لا تشعر بطعم السعادة إذا أنت ملكت المال وحدك ، والناس من حولك فقراء ، والله سبحانه خلقنا ـ نحن المسلمين ـ أمة واحدة ، وأحب منا أن تكون قلوبنا واحدة ، ولاشىء يرقق القلوب كالعطاء الكريم يقدمه الإنسان للمحتاج عن نفس طيبة راضية .

ولهذا فقد فتح الإسلام قلوبنا على الحقيقة الكبرى وهى أن المال كله لله ، وهو سبحانه يعطى منه من يشاء قرضاً حسناً منه لعبده لينتفع به فى معايشه ، ويعين به أخاه ماعاش ثم يعود المال بعد ذلك لله ، والإنسان زائل ، ولكن المال باق فى الأرض ، والباقى يبقى مع الباقى الدائم وهو الله . والسعيد العاقل منا هو من ينتبه إلى هذه الحقيقة ، ولهذا فإن الله يقول لرسوله الكريم فى الآيات التى جعلناها مَدَاراً لهذا الفصل ﴿ **خُذْ مِنْ أمْوالِهِمْ صَدقة تطهرهُمْ وتزكيهِمْ بها** ﴾ . والرسول لن يأخذ المال لنفسه ، بل هو يأخذها لكى يعين بها صاحب الحاجة ، بل هو لا يأخذها أصلاً ، لأن الزكاة ليست ضريبة ، والإنسان لا يؤديها كما تؤدى الجبايات ، ولهذا فإن الفعل الذى يستخدمه القرآن فى شأن الزكاة هو « آتى » أى أخرج من ماله طواعية ومحبة لله :

﴿ **ليسَ البِر أن تُولُوا وجُوهكُم قِبلَ المشْرق والمغرب ولكن البر من آمَنَ بالله واليوم الآخِر والملائكة والكِتاب والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذَوى القربى واليَتامَى والمَساكينَ وابْنَ السَّبيلِ والسَّائلِين وفى الرِقابِ وأقامَ الصلاة وآتى الزكاةَ** ﴾ [البقرة ٢/ ١٧٧] .

وفى هذه الآيات التى استشهدت بها فى مقام اخر من تلك الدراسة نجد ان إيتاء المال للمحتاجين يأتى بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين ، لأن المال كما نعرف عصب الحياة ، وهو الشيء الوحيد الذى يعانى الإنسان عندما يخرج عنه ، فإنك قد تدعو صاحباً لك للطعام فى بيتك وتنفق فى ذلك نفقة كبيرة ولكنك تفعل ذلك عن مسرة ، ولكن نفس صاحبك إذا طلب منك قرضاً عشرة جنيهات فحسب وجدت صعوبة فى العطاء ، ثم إنك لن تنسى قط أنه استدان منك هذا المال ولن تستريح إلا إذا رده إليك فإذا هو لم يرده بقى فى نفسك من ناحيته شيء .

وهنا تتجلى لك فضيلة الإسلام الذى يقول إن المال الذى فى يدك ليس مالك وإنما هو مال الله ، وليس لك فيه إلا حق الارتفاق أى الانتفاع ، وفى النهاية ومهما طال عمرك وكثر مالك فأنت راده إلى الله وخارج من الدنيا عرياناً كما دخلتها ، ولا يبقى لك من هذا المال إلا ماتصدقت به ، فهذا يبقيه الله عليك ويثيبك عليه ، أما ما أنفقت فى طعامك وشرابك ومتاعك فهو زائل بزوالك ، فإن المال كله لله ، وفيما أمرنا الله به فى شأن ماملكت أيماننا نقرأ : ﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ [النور ٢٤/ ٣٣] .

فالمال كله عطاء الله سبحانه ، قد سئل أحد الصالحين عن بيت يملكه فقال : إنه لله فى يدى ، ومهما بلغ مالك فكله لله فى يدك ، وأنت لا تملك منه شيئاً ، فإذا أنت لم تؤمن بهذا وتتصرف على أساسه فقد خرجت على حكم الإسلام فى المال ، لأنك ستجد بعد ذلك أن المال الذى تحسب أنك تملكه هو الذى يملكك وأنت عبده . أعاذك الله من رق المال وذله .

وأنت إذ تخرج الزكاة من مالك فأنت تطهره وتجعله حلالاً ، فإذا أنت لم تخرج الزكاة من مالك ظل المال نجساً غير طاهر ، ومن هنا فأنت لست حُراً فى

شأن الزكاة تؤتيها أو لا تؤتيها ، فهى حق المال عليك ، وأنت تعطيها لمن يستحقها ، وقد حدد الله لك ذلك ووكلك فى ذلك إلى نفسك ، فهى مسألة تقدير ، ومن هنا فإن الأحناف أجازوا إيتاء الزكاة للرجل القوى القادر على العمل إمعاناً منهم فى إطلاق حرية الإنسان فى العطاء ، ويسرف بعض الفقهاء فى تصوير تطهير الزكاة للمال فيقولون إن الصدقات أوساخ الناس ، أى هى الخزب من المال الذى إذا خرج منه طهر ، وهذا إسراف منهم فى التخريج لأن المال نعمة من نعم الله ، والنعمة لا توصف أبداً بأنها وسخ ، ومن مذاهبهم فى ذلك قولهم إن الصدقة لا تجوز على آل البيت ، لأنها مال غير طاهر ، وهذا أيضاً مذهب فيه إسراف ، وماذنب الرجل من آل البيت تشتد حاجته للمال فيحرم منه لمجرد أنه من آل البيت ، وقد أنكر هذا الرأى أبو يوسف فى كتاب الخراج ، وجعل لآل البيت نصيبهم من بيت المال على أساس أنهم من ذوى القربى .

والحسن الشيبانى : قال إن لكل منا ذوى قربى ، ولكن آل البيت هم ذوو قربى لكل مسلم ، فهم آل بيت الرسول رحمة الله للعالمين ، وكل مؤمن صادق إنما هو على الحقيقة ذو قربى لرسول الله ﷺ ، لأن القرابة الحقيقية فى الإسلام إنما هى قرابة الإيمان والروح والإحساس ، وقد قال رسول الله فى كتابه بين المهاجرين والأنصار إن المؤمنين المتقين بعضهم موالى بعض من دون الناس ، والولاء لحمة كلحمة النسب ، وقد بلغ رسول الله بسلمان الفارسى غاية التكريم عندما قال : سلمان منا آل البيت .

والزكاة ليست فضلاً من المؤمن على أخيه ، بل هى واجب عليه وقد قرر الله سبحانه ذلك عندما قال فى سورة الذاريات : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى السماء رزقكم وماتوعدون** ﴾ [الذاريات ٥١/ ١٩ ـ ٢٢]

وفى هذه الآيات الكريمة من جليل المعانى الإسلامية ماإن شئنا أن نكتب فيها مجلداً لكتبناه ، وما دامت إسلامية فهى إنسانية ، فإن كل ماهو إنسانى إسلامى لأن القرآن الكريم ـ دستور الإسلام ـ إلهى بمصدره إنسانى بغاياته ، وكلماته رباط متصل بين الحق وحقائق الكون ، والله سبحانه هو الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود كله . . وأظن أن هذا المذهب فى فهم عبادات الإسلام كان مذهب الإمام الشافعى ، فقد كان يرى أن كل ماينفع الناس فهو من الإسلام مالم يكن فى شأنه تحريم من الله ، ومن بديع مانلاحظه عندما نتأمل آيات الزكاة فى القرآن العظيم هو أنها لا ترد وحدها إلا فى النادر ، وقد أشرنا إلى أنها فى الغالب مقترنة بالصلاة ، وهذا جمع بين حق الله وحق المخلوق ، فلننظر فى آيات أخرى من آيات الزكاة لنرى ارتباطها بفضائل حضارية أخرى لكى يتجلى لنا الجانب الحضارى فى الزكاة استكمالاً لمذهبنا فى هذه الفصول من القول بأن الإسلام كله حضارة .

﴿ ولينصُرنَّ الله منْ ينصُرُه إن الله لقوِى عزيز . الَّذين إنْ مكناهُم فى الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتوُا الزكَاة وأمرُوا بالمعروفِ ونَهَوْا عنِ المنكرولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج ٢٢/ ٤٠ ـ ٤١] .

فهنا ترى الزكاة مرتبطة بالصلاة ، وهى مرتبطة كذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم إن إيتاء الزكاة يجيء هنا مظهراً من مظاهر شكر الإنسان لله على التمكين له فى الأرض ، والتمكين للأمة يكون بتقويتها وتثبيت أقدامها وهدايتها إلى التزام الخط الإسلامى السياسى والسلوكى ، أما بالنسبة للإنسان فهو تيسير الله الرزق للإنسان والتوفيق والسعة فيه وهنا تكون الزكاة ـ إلى جنب فضائلها الأخرى ـ رباطاً جديداً من الروابط التى تشد الإنسان إلى خالقه وتزكيه وتطهره ، أما واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو من فضائل الإسلام الكبرى ، لأنه أمر بالإصلاح ، والأمر هنا موجه إلى الجماعة فى المكان الأول . لأن الإنسان المفرد عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وحده لم يصل إلى كثير

أما الجماعة الآمـرة بالمعروف الناهية عن المنكر فهى جماعـة صالحة تخدم نفسها وتصلح أحوالها ، وفى المرات الكثيرة من تاريخنا التى انتـدب أفراد أنفسهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصبوا أنفسهم مصلحين لم يؤد الأمر إلى خير كثير . لأنهم يجدون أنفسهم لا محالـة متجهين إلى طلب السلطـان لأنفسهم ، وهنـا ينحرفـون عما انتدبـوا أنفسهم له انحـرافاً خطـراً وقد كثـر كلام الفقهـاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنهم نظروا من زاوية الفقه ، أما نحن فننظر من زاويـة التاريخ ، وتـاريخ الحضـارة بصفة خـاصـة ، وتجارب التاريخ تقـول إن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يبدؤها رجل وتستجيب له الجماعة فتـدخل فى حـركة إصـلاحيـة ، وهنـا ينبغى على صاحب الـدعـوة ألا يتمسك بالرياسة والقيادة ، بل يدع الدعـوة عامة لمن يريد أن يدخل فيها ، وذلك حتى لا ينحرف به الطريق فيتحول إلى صاحب سلطان فردى ، وهنا لا تؤمن العواقب

المهم لدينا أن الزكاة تأتى هنا فى إطار أخلاقى عام ، لأننا إذا نظرنا إلى نسبة الزكاة من مال الإنسـان وجدناها شيئاً هيناً جداً ، فهى لا تزيد على اثنين ونصف فى المائة من المال المتحـرك فى المعامـلات والكسب ، أمـا المال الذى يعيش منـه الإنسان فلا زكاة عليه ، فأنت إذا ملكت داراً تسكنها أنت وآلك ولا تملك غيرها فلا زكاة عليك فيها ، وإذا كان لك راتب على قـدر مطالبك فلا زكاة عليك فيه وهنا يكمن الفرق اليسير العظيم فى نفس الوقت بين الزكاة والصدقة ، فإن الزكاة هى المفروضة ، أما المال الذى تخرجه طواعية على حب الله فهو الصدقة ، وهنا لا حـدود فلأنت وإنسـانيتك ، وأنت وإيمانك ، وفى الآيـة التى اتخذناهـا محوراً لهذا الفصل نجد أن الله سبحانـه يأمر بالصدقة التى تطهر النفس وتـزكيها عند الله ، لأنك عندما تؤتى الزكاة فأنت تقوم بعبادة مفروضة عليك ، وثوابك عليها عظيم وكذلك يقع علينـا العقاب إذا قصرنا فيهـا ، أما الصـدقة فتشمل المفروضـة وما

يخرجه الإنسان تطوعاً ، وهذه فضيلة إنسانية وحضارية ، ولهذا يأمر الله رسوله الكريم بأن يصلى أى يطلب الرحمة لأولئك الذين يتطهرون ويتزكون بالصدقة ، وصلاة الرسول علينا سكن لنا وأنس وأمان وفضل من الله عظيم .

وتأكيداً للمعنى الذى قلته من أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحث على العبادات هى فى المكان الأول من واجبات الأمة لا الأفراد نذكر قول الله فى كتابه العزيز :

﴿ واذكُرْ فِي الكتابِ إسْماعيلَ إنه كان صَادِقَ الوعْدِ وكانَ رسُولاً نبِياً وكان يأمُرُ أهلهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند ربهِ مَرْضيًا ﴾ .

[مريم ١٩/-٥٤ـ ٥٥].

فإسماعيل عليه السلام كان نبياً ، ولكنه لم يكن مكلفاً برسالةأو حاملاً كتاباً من الله الذين رفعهم إلى مرتبة الرسل أى المكلفين برسالات إلى الناس الحاملين إليهم كتباً هم الخمسة العظام وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، وهؤلاء كانوا مكلفين لمخاطبة الناس وهداهم إلى الحق وقيادتهم فى معارج الإيمان والرضوان ، أما بقية الأنبياء فواجباتهم أقل ، فهم يدعون فى دائرة من حولهم ومن قرب منهم فحسب ، ولهذا فإن إسماعيل كان نبياً ورسولاً إلى من حوله وأهله ، ولهذا كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان بهذا مرضياً من الله سبحانه ، فإذا صدق هذا بالنسبة للأنبياء فما بالك بأفراد الناس ؟ إن المطلوب منهم هو أمر أنفسهم وأهليهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، أما توجيه هذه الدعوة إلى الأمة فهو شأن الجماعة حتى لا يستخدم كل طامح وطامع موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى إقامة سلطان دنيوى كما حدث مرة بعد أخرى فى تاريخنا الطويل ، ويتجلى لنا هذا المعنى فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء فى مقام الحديث عن عدد من الأنبياء منهم إسحاق ويعقوب :

﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً على إِبْراهيم وأرادوا بِهِ كيداً فجعلناهُم الأخسرِينَ ونجيناهُ ولُوطاً إلى الأرضِ التى باركْنَا فِيها لِلعالمين ووهَبنا له إسْحقَ ويعقوبَ نافلةً وكُـلا جعلنا صالِحينَ وجعلناهُم ائمةً يهدون بِأمرِناَ وأَوحينا إليهِم فعْلَ الخَيرات وإِقام الصَّلاة وإِيتاءَ الزكاةِ . وكانوا لنا عابدين ﴾ [الأنبياء ٢١/ ٦٩ ـ ٧٧] .

فإبراهيم عليه السلام هو النبى الرسول حامل الرسالة إلى الناس ، ولهذا تعرض للأذى والإحراق من الناس ، وتداركه الله برحمته فجعل النار برداً وسلاماً عليه ، أما إسحاق ويعقوب فكانا نبيين جعلهما الله صالحين وأرسلهما مؤكدين لرسالة إبراهيم مذكرين الناس بها ، وبهذا كانا صالحين وإمامين يهدون الناس بأمر الله ، أما الذى أوحى إليهم فهو فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله وحده ، ولم يكلفهما الله أكثر من ذلك ، لأن رسالات الله إلى عباده معالم تحول فى تاريخ البشر ، وخطوات بالإنسانية إلى الرقى والحضارة ، ولهذا فهى قليلة لا تزيد على خمس ، بدأت بإبراهيم ووصلت قمتها على يد محمد خاتم الرسل والنبيين وحامل رسالة الله الخالدة إلى عباده ، وهى رسالة واضحة محددة باللفظ فى القرآن الكريم . فلا يجوز بعد ذلك أن يجىء إنسان ويزعم لنا أنه مكلف من الله بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو أنه يحمل لنا رسالة تصلح الكون ، لأن صلاح الكون منحصر فى القرآن الكريم وسيرة نبيه الكريم ، وإصلاح الكون يكون باتباع هدى القرآن والرسول .

والمتأمل فى عبادات الإسلام كلها يجدها إلى جانب فضائلها الإيمانية جماعية اجتماعية فى نفس الوقت ، فهى جماعية ، لأن بركتها لا تتم على أحسن صورها إلا إذا أديت جماعة ، وقد ذكرنا فيما مضى فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد ، أما الناحية الاجتماعية فى الصلاة فتبدو فى اجتماع الناس بعضهم إلى بعض فى المساجد ، وهى بيوت الله ، فيكون ذلك أدعى إلى صفاء القلوب وزوال

الخلافات إذا عرف الناس أفضال صلوات الجماعة على حقيقتها ، ولعلك تعرف أن المسلمين اتخذوا مساجدهم مدارس ومواضع للدراسة ، بل جامعات ، واتخذوها فى نفس الوقت دور قضاء ، ففى المساجد كان يجلس القضاة ويصدرون الأحكام ، والسبب فى ذلك هو أن المسجد هى بيوت الله وبيوت الناس فى آن معاً ، والإنسان عندما يذهب للصلاة فى المسجد إنما يزور الله سبحانه فى بيته ، وهذا تشريف للإنسان أى تشريف ، ثم إن أهل العلم والقضاء فى الإسلام أرادوا أن يستقلوا بالعلم والقضاء عن سلطان الدولة حتى لا يكونوا فى خدمتها ، بل فى خدمة العلم والشريعة ، ولم نعرف فى حضارتنا المدارس إلا من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، وقد أنشئت دور العلم الخاصة بالتدريس أول الأمر لتعليم غير العرب اللغة العربية والشريعة ، وأول من أنشأها رجل غير عربى هو نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، وهو تركى سلجوقى أراد أن يستعرب هو وقومه ، أما دور القضاء التى تبنيها الدولة للقضاء فقد رفضها فقهاء المسلمين من أول الأمر واتخذوا مجالسهم فى المساجد وهى المبانى العامة الوحيدة التى ملكتها الأمة ، لأن المسجد حتى لو بناه السلطان فهو يصبح بمجرد الفراغ من بنائه ملك الجماعة ، ولا سلطان للحكومة عليه : ولهذا لزم القضاة المساجد حتى يكونوا أحراراً فى تطبيق الشريعة ويقال إن من أسباب مأساة ابن المقفع هو أنه نصح الخليفة فى رسالة الصحابة بأن يجمع الفقهاء ويجعلهم يسنون تشريعاً عاماً للدولة تحت إشراف السلطان وبماله ، وقد نفر الفقهاء من هذه الفكرة ورفضوها ، فظل أفضل الفقهاء وأتقياؤهم وأهل الفقه والورع فيهم مستقلين سواء فى التشريع أو القضاء ، بل رفضوا كذلك رواتب الدولة ، وعندما كانت الدولة تثقل عليهم لقبول القضاء كانوا يهربون ويظلون متأبين حتى كان رجال الشرطة فى بعض الأحيان يأخذون القاضى مقبوضاً عليه ويجلسونه فى مجلس القضاء فى المسجد ، وإذا كانت

العدالة هى أساس صلاح الجماعة وأمان المجتمع ، فهذا يبين لك الفضائل الحضارية للمساجد التى هى ثمرة من ثمرات الصلاة .

أما الجانب الاجتماعى للزكاة فيتجلى فى آيات كثيرة من القرآن مثل قوله تعالى :

﴿ وهُو الَّذِى أنشأَ جَنَّات معرُوشاتٍ وغير معْروشَاتٍ والنخل والزرع مُختلفًا أكُلُه والزيتونَ والرُمانَ مُتشابِهاً وغيرُ متشابِهٍ كُلوا مِن ثمرِهِ إذا أثمَر وآتُوا حقهُ يوم حصَادِهِ ولا تسرِفُوا إنهُ لا يُحب المسرِفِينَ ﴾ [الأنعام ٦/ ١٤١] .

فهنا يذكرنا الله ببعض آلائه فى خيرات الزروع ، وهنا حث على العمل فى الزراعة وتذكير بخيرات هذا العمل ، ولكن الأهم من الزرع والفاكهة هو أن نؤتى حقها يوم حصاده ، وحقها هو أداء زكاتها حتى تطيب وتحل لنا وتحصل بركاتها ، فإذا نحن لم نخرج من مالها حقه ، وهو حق الفقير والمحتاج وهى الزكاة لم يحل لنا ولم يصبح نعمة ، والله يأمرنا هنا بأن نشعر بأننا أمة واحدة يعين القادر منا غير القادر . وهو لا يعينه تفضلاً منه وإحساناً ، بل يعينه بأمر الله خالقه ورازقه ، وفى آخر الآية أمر بعدم الإسراف ، لأن المال مال الله ، ولابد من إحسان التصرف فيه بالاعتدال ، وأنت ترى فى هذه الآية المباركة ميزة الإسلام فى النظر إلى المال على أنه خير جماعى ، فالأمة الفاضلة المؤمنة أمة لا فضل فيها لغنى على فقير ، فالقادر يعين غير القادر بإخراج الزكاة المفروضة ، وإذا أراد الزيادة فى الخير جعلها صدقة أى زاد فيها تطوعاً .

وقد أتيتك بالآية الكريمة التى تقول : إن فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فالعطاء هنا حق مفروض ، وهذه أروع نظرة فى شئون المال ، فإن الرأسماليين جعلوا المال نقمة ، لأنهم جمعوا المال لذاته واستخدموه أداة

لإذلال الفقـراء فأقرضـوهم بالـربا ، وهـو جريمـة ، وجاء الشيـوعيون فأفقـروا الشعوب وجعلوا المال كله للدولة تستخدمـه فى إذلال الرعية وحرمانها من الحرية ثم تستخدمه فى النهاية لصنع أدوات الدمار لكى تدخل الناس كلهم فى باطل الشيوعية الظالم الذى لا يقيم للدم الإنسانى حرمة ، ومن أسوأ ما أضرب لك من الأمثلة على نقمة الرأسمالية الجامدة القاسية أذكرك بأن الولايات المتحدة الأمريكية وهى أم الرأسمالية حولت أمريكا الوسطى وأهلها إلى مزرعة فواكه وأن تملكها كلها شركة واحـدة هى الأميريكان فـردت كوبـانى أى شركة الفـواكه الأمـريكية التى استذلت دول أمريكا الوسطى بقوة الـدولة وجهاز المخابرات المسمى باسم CIA وهو اختصار Central Inuestigatian Agency أى الوكالة المركـزية للتحقيقات ومثيلها المسمى FBIوهو اختصار Federal Bureau of Imuestization أى المكتب الاتحادى للتحقيقـات ، وكل منهما جهـاز يخدم المال الأمــريكى وأصحـابـه ، ومعظمه كما ترى مال حرام ، ثم يشكون من ضيق أهل أمريكا الوسطى وثورتهم على رأسمالية أمريكا التى ذاقوا الأمرين منهـا وميلهم إلى الرأسمالية الشيوعية التى لم يعـرفوا ويـلاتها ، ويزعمـون أنهم أى الأمـريكيين يحاربون هنـاك الشيوعيـة ، والنـاس ياسيـدى تحيروا وضاقـوا بين ظلم الرأسماليـة من ناحيـة والشيوعيـة من ناحية أخرى ، ولا مفر لهم من ظلـم إلا إلى ظلم أسوأ منه ، ولا حول ولا قوة إلا بـالله ، فأين هـذا من عـدل الإسلام وروعـة نظـرتـه إلى المال عن طريق الـزكـاة والصدقة والعمل والاعتدال فى الإنفاق .

أما مثل ظلم الشيـوعية الـرهيب هذا ماحـدث بالفعل لشعب أفغـانستان عندما احتلت روسيـا أفغانستان : يريـدون أن يبيدوا شعباً ليزرعـوا على أنقاضه مذهبهم الكـافر غير الإنســانى ويزعمـون مع ذلك أنهم دعاة عـدل وحضارة وسلام .

وأختم هذا الحديث عن الزكاة والصدقة وفضائلهما الجماعية والاجتماعية أى

الحضارية بهاتين الآيتين :

﴿ وآتِ ذَا القُربى حقَّه والمِسكينَ وابْنَ السبيلِ ولا تُبذِّرْ تبذيراً إنَّ المبذرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ وكان الشيطانُ لربهِ كفوراً ﴾

[الإسراء ١٧/ ٢٦ـ ٢٧] .

وقوله تعالى : **﴿ أفَلَمْ يرَوْا أن الله يبسط الرزقَ لِمن يشاءُ ويقدِرُ إنَّ في ذلِك لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ ، فآتِ ذَا القربىَ حقه والمسكينَ وابنَ السَّبيل ذلِك خيرٌ للَّذين يُريدون وجْه الله وأولئِك هُمُ المفلحُونَ ﴾** .

[الروم ٣٠/ ٣٧ـ ٣٨] .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كما كُتِبَ عَلَىٰ الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لعَلَّكمْ تتقُونَ . أيَّاماً مَعدودَاتٍ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[البقرة : الآيتان ١٨٣ و ١٨٤]

حديثنا هذه المرة عن الصيام فى الإسلام وخصائصه وفضائله ، ففى كل أديان الدنيا صيام ، ولكنه فى بعض الأديان إحياءٍ لذكرى حادث من حوادث تاريخ العقيدة ، كما نجد عند المسيحيين فى صيامهم الكبير الذى يمتد أربعين يوماً من اليوم الذى يقولون إن المسيح صلب فيه إلى عيد الفصح ، وهو عيد حلول بركة الخلاص على النصارى ، ومع ذلك فهو ليس صياماً بالمعنى الصحيح لأنه صيام عن أكل كل ما أصله فيه روح كاللحوم والطيور والبيض واللبن أحياناً ، وكل ماعدا ذلك مباح ، وعند اليهود يوم الصيام الكبير وهو تعذيب لأنه صيام أربع وعشرين ساعة كاملة ، وعند بعض طوائف الهندوس تعذيب للنفس ، فتجد الرجل يصوم أسبوعاً كاملاً يقتصر فيه على الماء ، وهم يقولون إن ذلك تنقية للنفس وتقريب لها من الآلهة ، وبعضهم يسرد الصيام الأسابيع الطويلة ، فتجده نحيلاً هزيلاً لا يكاد يقوم على رجليه .

وهو يسمى ذلك تعبداً ، ولقد زرت معبداً فى أمر يتسار فى الهند خاصاً بطائفة من الهندوس تحرم على أنفسها كل شىء تقريباً ، وكل من رأيته فى معبدهم مهزول تعد أضلاعه بيدك ، وهو من فرط الهزال فى حالة غياب أو عدم تركيز ذهنى .

أما صيام الإسلام فعبادة وتطهير وموعظة ورحمة وتنظيم اجتماعى ، وهو - ككل عبادات الإسلام - تربية جماعية واجتماعية .

وقبل أن أستطرد فى الكلام أحب أن أنبه مرة أخرى إلى أننى عندما أقارن بين الصيام فى الإسلام والصيام فى الديانات الأخرى لا أريد أن أمس مشاعر أحد من غير المسلمين ، لأننا نحن المسلمين أمرنا بأن ندعو إلى ديننا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس من الحكمة والموعظة الحسنة أن تمس أديان الناس ، بل عليك أن تعرف الناس بفضائل دينك دون تعال أو مقارنة ، ثم بعد ذلك تدعهم لأنفسهم يتأملون مقالتك ويتدبرون حكمتها ، واذكر دئماً أن الحكمة لا تكمن فى أنك مسلم . بل هى تكمن فى أن تكون مسلماً مؤمناً بحق ، وأن تكون صالحاً نافعاً للناس ، فليس بمسلم حقاً من لم يكن صالحاً نافعاً للناس .

وصيامنا فى الإسلام محبة فى الله وفى جماعة المسلمين ، فإن فيه تلك الرحمة الإلهية التى هى ميزة الإسلام الكبرى ، ورسول الله صلوات الله عليه عندما قال : « إنما أنا رحمة مهداة » ، أراد أن يقول شيئين : الأول أن الله عندما اختاره لحمل رسالة الإسلام وزينه بالفضائل وطهره بالكمالات أصبح شخصه فعلاً رحمة للعالمين ، وقد أحس بذلك المسلمون الذين أراد الله لهم سعادة صحبة رسوله ، فقد كان وجوده بينهم جنة لهم وأمناً ، وماقصده أحدهم فى مشكلة نزلت به إلا أوجد له المخرج وأراحه ، سواء أكان رجلاً أو امرأة ، بدوياً جلفاً أو حضرياً مهذباً ، وفى موقعة أحد طارت عقول المسلمين عندما نادى منادى الكفار بأن

رسول الله قد قتل ، فلما عرفوا أنـه معافى بخير قرت قلوبهم فى أمكنتها وعادوا إلى المعركة ودحـروا غيظ الكافرين فانصرفـوا من المعركة التى حسبـوا أنهم كسبوها . انصرفوا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى بأبلغ بيان فى قوله فى سورة الأنبياء ﴿ **وما أرسلناكَ إلاَّ رحمة للعالمين** ﴾.

[الأنبياء ٢١/ ١٠٧].

وصيام الإسلام بصورته التى وردت فى القـرآن الكريم صورة من صور رحمته تعالى بـالمؤمنين ، فهو خير للمؤمنين كـافة ، فالمسلم الغنى الـذى يجد نفسه فى وفـرة من الطعام طـول العـام ، فيسرف على نفسـه فى الإفطار والغـداء ، ويقيم الولائم أو يحضرهـا فى العشاء ، ويتخم معدتـه بالطعام ، يجد فى شهـر الصيام علاجاً أى علاج إذا هو عرف معنى الصيام وقام بحقه ، فنحن فى الحقيقة نصوم لنصح ، وقـد كان لنـا صـديق موسر نيف على التسعين ، وكـان إلى يـوم وفاتـه نشيطاً يقظاً دائم الحركة ، وكان يقول : مـانفعنى إلا الصيام ، فأنا أصوم الشهر المفروض ويـومى الاثنين والخميس كل أسبوع ، وسحورى شىء خفيف أتنـاوله قبل نومى فى العـاشرة والنصف ليلاً ، وأتحرى فى إفطـارى سنة رسولنـا الأكرم : شىء من تمر وفاكهة أو سلطة خضراوات ، ثم أصلى المغرب ، وقرابة الثامنة ليلاً آكل وجبتى الوحيدة ، ثم أتمشى قليلاً وأختم يومى بقراءة من القرآن .

وأمـا أوسـاط النـاس أصحـاب العيـال فتلـك فـرصتهم لتصحيح صحـة أولادهم ، فلا إسراف فى سحـور أو إفطار ، وهناك التزام بـالقدر الضرورى من الطعام فتهبط نفقة البيت والعيال إلى النصف ، وأما الفقير المجهد فى طلب رزقه فيجد نفسه فى هذا الشهر أقرب إلى ربه ، فإذا كـانت قلة الطعام محنة طول العام فهى قربة إلى الله فى رمضان ، فتأمل هذا وانظر ماذا نفعل نحن فى شهر الصيام ! لقد جعلناه شهر الطعـام وأسرفنا على أنفسنا فيه ، والمسئولون عنـا يعينون الناس

على الإساءة إلى أنفسهم فى شهر الصيام ، فهم يضاعفون لهم كميات الطعام استئلافاً لقلوبهم فيما يقولون ، وهذا خطأ جسيم ، وقد لاحظت أن معظم أهل الأسواق عندنا من صغار الباعة والحرفيين لا يصومون ، ومادخل بيتى عامل لإصلاح شىء فى رمضان إلا وجدته مفطراً ، هذا مع سوء الخلق وبذىء الكلام ولا أدرى من أين أصابتهم هذه الطامة ، وكتبت أكثر من مرة موجهاً نظر الشيوخ والأئمة إلى هذه الظاهرة ، ثم أقصرت لأننى وجدت أن هؤلاء الناس نادراً ما يتصرفون عن فكر ، إنما هى محفوظات لديهم ، فما يقولونه فى رمضان هذا العام هو نفس ما قالوه فى الذى قبله والذى قبله ، وهو نفس الذى سيقولونه فى رمضان من العام المقبل .

ولو تنبه أولئك الإخوة لوجدوا إلى جانب مايقولونه تقليداً مذاهب من القول ذات سعة فى فضائل الصيام الجماعية والاجتماعية والحضارية ، فنحن لا نصوم فى نفس الشهر فحسب ، بل نمسك عن الطعام فى نفس الساعة ونفطر فى نفس الدقيقة ، وهذا تنظيم جميل وإشعار بوحدة الأمة عظيم . وصيامنا لا يقتصر على الامتناع عن الطعام فى ساعات الصوم بل هو صيام أدب وتهذيب ، فمن مضيعات ثواب الصيام سوء القول وسرعة الغضب وإيذاء الناس واغتيابهم ، وهذا كله تهذيب وتأديب ، ثم إن الله سبحانه استحب منا كثرة الصدقة والجود بالمال والطعام على إخواننا من المعانين من قلة الرزق ، لا على سبيل التفضل أو الإحسان بل قربة إلى الله ، فنحن فى هذا كله نحسن إلى أنفسنا قبل أن نحسن إلى غيرنا .

وقد كانت لنا فى هذا الشهر الفضيل مذاهب جميلة وفضائل حسنة لا ندرى كيف وأين ذهبت ، فأين المطعمون المحسنون ، وأين الكرماء الأتقياء ؟ وأين أولئك الذين كانوا يمدون الموائد للفقراء ساعة الإفطار ؟ إننى أذكر أننى كنت أقرأ فى دار الكتب فى باب الخلق إلى الرابعة بعد الظهر فى رمضان وأعود إلى

بيتى فى شارع جنينة قاميش سيراً على الأقدام قبيل الإفطار فأعد نحو عشر موائد مدها أهل الخير لإفطار الراغبين ، ولا يخلو باب مسجد من رجال يفرقون الطعام على الناس ، وفى شارعنا كنت أعد أربع موائد ، وفى قريتنا كان الناس يتنافسون فى الإطعام ، فأين ذهب ذلك كله ؟ إننى ألاحظ أن التغير إلى الأسوأ يتسارع إلينا ، وخير القلوب يقل والتقى يندر ، وكل ذلك فيما أحسب ناشىء عن ضعف التربية الدينية فى تنظيمنا الاجتماعى الراهن والتربية الدينية لا تقتصر على درس الدين فى المدرسة أو خطبة الخطيب فى المسجد يوم الجمعة ، بل هى تكون بالقدوة ، ففى الماضى كان رؤساء الناس من أهل البيوت الكريمة ، وكانت رياستهم للناس تربية وتهذيباً ، أما اليوم فقد انقلب الحال وأصبحت الرياسات والقيادات الاجتماعية والأموال بيد الأراذل الذين أصبحوا أكابر دون فضل ، ورؤساء دون فضيلة ، وأغنياء دون تعفف ، وسكان قصور لا يستحقون أن يكونوا خدماً فيها ، وركبوا سيارات مطهمة لا يصلحون أن يكونوا سائقيها ، فانقلب النظام وضاعت القدوة وفقد المجتمع رباط الشرف والإيمان الذى كان يحميه من التدهور والانحدار ، ومن أسف أن هذا قائم فى الكثير من بلاد الإسلام ، وهم يكثرون الحديث اليوم عن النقص فى مدرسى مادة التربية الدينية وأحب أن أقول هنا إن النقص ليس فى العدد إنما فى النوع ، لأن مدرس مادة الدين ينبغى أن يكون فى شخصه وسلوكه - بالإضافة إلى علمه - على مستوى الدين الذى يعلمه ، ولقد كنت أقرأ من أيام كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ / ٨٢٠ م ، فقرأت الخبر التالى يرويه القاضى أبو العلاء الواسطى : كان أبو عبيد مع عبد الله بن طاهر والى خراسان للمأمون أى أنه كان يعلم ويؤلف له ويخدمه بالعلم ، فبعث إليه أبو دلف يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه إليه فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها ، وقال أنا فى جنب رجل لم يحوجنى إلى صلة غيره

(يريد عبد الله بن طاهر) فلما عاد إلى ابـن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار فقال : أيها الأمير . . قـد قبلتها ولكن قـد أغنيتنى بمعـروفك وبرك ، وقـد رأيت أن أشترى بها سلاحاً وخيـلاً وأوجه بها إلى الثغر ليكون الثـواب متوافراً على الأمير ، ففعل . فقلت فى نفسى : إن مجرد سيرة هذا الرجل تعلم الإنسان الدين .

ومن جميل مـذهب الإسلام فى الصيـام أن الله سبحانـه وتعالى جعلـه كفارة ومثوبة ، قال سبحانه وتعالى فى بعض آيات الحج :

﴿ وأتموا الحَجَّ والعُمْرة لله فإن أُحْصِرتم فما اسْتيسر من الهَدْى ولا تَحْلقُوا رءُوسكم حتىَّ يبلغَ الهدْىُ محِلَّهُ فمَن كانِ منكُم مَّريضاً أو به أذى من رَّأسـه ففِدْيـةٌ مِن صِيَامٍ او صَدقـةٍ أو نُسُـك فإذا أمِنتُم فمَن تمتع بالعمْرة إلى الحج فما اسْتيْسَرَ من الهدْيِ فمن لَّمْ يجِدْ فصِيـامُ ثلاثة أيَّام فى الحج وسبعةٍ إذا رجعتمْ تلك عشرة كامِلةٌ ﴾ . [البقرة ٢/ ١٩٦] .

وهذه آية لـو قرأها جاهل بالإسلام ولكنـه مفتوح البصيرة لآمن به ، فنحن هنا فى مقام الحج وهو عبادة جليلة كما سنـرى ، والله سبحانه يخفف مؤنته علينا ، ويجد لنا المخـرج فى حالة المرض ، فعلينـا هنا الفـدية من صيام أو صـدقة أو نسك ، وعبادة الصيام هنا فدية وتكفير وهى فى مقام الصدقة ، فمن يعسر عليه هذا أو ذاك فعليه أن ينسك ، لأن النسك أو النسكة أو المنسك التزهد والتعبد ، وقد يكون النسك ذبح ذبيحـة وإطعام لحمها للفقراء تقـرباً إلى الله ، وكل هذه بركات وأفضال من الله على عباده ، وإذا كـان الحج عبادة وتطهراً فإن العبادات يغنى بعضهـا عن بعض ، وكلها خير على العبـاد ، فالصيـام والنسك خير على المخلوق ، والصـدقة خير على الفقير المحتـاج ، وليس هنا صك غفـران يشتريه الإنسـان بالمال ويأخذ ثمنه القس ويـزعم له فى الصك أن الله قد غفر له ، بل فى كل ذلك أنت مـوكـول إلى ضميرك لايعرف سريـرتك إلا خـالقك ، ولقـد هب

مارتن لوثر محارباً صكوك الغفران وقال أنها شيء باطل ، ولكنه أجاز لطالب التوبة أن يؤدى مالاً للفقراء ، ولكنه اشترط أن يشهد القس على العطاء فكأنه لا يكل المؤمن إلى إيمانه ، ولا يترك الطريق مفتوحاً بين الخالق والمخلوق ، ولابد أن يكون القس شاهداً ، أما فى الإسلام فنحن مع الله فى كل حين ، ونحن مع قلوبنا أو ضمائرنا فى كل حال ، والإسلام دين قلوب ، والعبادات قوت القلوب كما قال أبو طالب المكى فى كتابه البديع الذى يحمل هذا الاسم .

واقرأ الآية التالية لترى كيف أن الصيام فدية وتوبة :

﴿ وماكانَ لمؤْمن أن يقتُل مؤْمِناً إلا خطئاً ومن قَتل مؤمِناً خطئاً فتحرِيرُ رقبةٍ مؤمنة وديةٌ مسَلمةٌ إلى أهلِه إلا أن يصَّدقُوا فإن كانَ من قومٍ عدو لكمْ وهُو مُؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ وإن كَان مِن قومٍ بينكُمْ وبيْنهُم مِيثاقٌ فديةٌ مسَلمةٌ إلى أهلِه وتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ فمن لم يجدْ فصِيامُ شهرينِ مُتتابِعين توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

[النساء ٤/ ٩٢] .

فانظر إلى روعة تشريع الإسلام فى أمر القتل الخطأ ، وهنا نجد التوبات مقاولات ، فتحرير الرقبة المؤمنة توبة مع الدية المسلمة إلى أهل المقتول إلا إذا طابت نفوسهم وتركوا الدية لعجزهم عن أدائها مثلاً ، فيكون تنازل أهل القتيل عن حقهم صدقة يحتسبها الله لهم ، إن كان القتيل مؤمناً من قوم معادين للإسلام فيكفى هنا تحرير الرقبة ، ولا محل للدية هنا لأنهم أعداء يستقوون بها على المسلمين ، أما إذا كان من قوم بينهم وبين المسلمين موثق سلام وتعاهد ، فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، وفى هذه الحالة إذا كان القاتل عاجزاً عن الدية وعتق الرقبة فإن الجماعة الإسلامية تقوم عنه بأداء ذلك ، وقد فعله رسول الله ﷺ . ولكن لابد للقاتل من أن يكفر عن ذنبه بصيام شهرين متتابعين

تطهيراً لنفسه ، وتعبيراً عن توبته وندمه على ما وقع منه دون قصد ، أما إذا قتل المؤمن المؤمن قصداً فهنا يحق عليه القتل وجهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً .

فتأمل هذا التشريع الرفيع البالغ العدالة ، واذكر كم قتل المسلمون المسلمين عن قصد دون أن ينالهم فى ذلك ندم ، واذكر كم أزهق حكام المسلمين فى الماضى من أرواح الأبرياء ظلماً وعدواناً دون أن يشعروا فى ذلك بندم ، ولقد قرأت عن رجل من حكام صقلية الإسلامية يسمى إسحاق القفلة جلس بين الناس يفخر بأنه قتل من رعاياه المسلمين ألف إنسان فى يوم واحد ، فقال له أحد الصالحين ياأبا إبراهيم تكفيك نفس واحدة أى يكفى أن تقتل نفساً مؤمنة واحدة لتخلد فى النار ويحل عليك غضب الله ولعنته وعذاب عظيم أعده الله لك فما بالك بقتل ألف من المؤمنين .

والذين قضوا أعمارهم ـ مثلى ـ فى دراسة تاريخ الإسلام لا يتعجبون مما حل بنا من الفقر والظلم وسوء الحال ، لأننا منذ منتصف خلافة عثمان ونحن نقتل بعضنا بعضاً ظلماً وعدواناً ، وليس فى التاريخ تشريع حصن النفس والمال بقدر مافعل الإسلام ، وما هانت النفوس وأموال الناس على قوم كما هانت على أهل دول الإسلام الماضية ، وخذ جزءاً واحداً من تاريخ عام مثل كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير تحس وأنت تقرؤه أن الدم يسيل منه سيلاً حتى الكبراء والعظماء من أولى الأمر فينا كان الكثيرون منهم يستهينون بدماء الناس إلى درجة يتعجب معها الإنسان كيف صدق هؤلاء الناس أنهم مؤمنون وعلى أيديهم كل هذه الدماء ، ومازال المسلمون إلى يومنا هذا يفعلون هذا حتى أساء الناس الظن بالإسلام بجرائم أهله ، وما أبعد هؤلاء جميعاً عن الإسلام ، وإننى لأقرأ كلام المطالبين بتطبيق الشريعة كاملة فأقول حباً وكرامة ، شرع الله وهو واجب التنفيذ ولكن اضمنوا لى أن تقطع أيدى اللصوص الكبار قبل الصغار واضمنوا لى قطع

رقبـة الكبير المجترىء على دماء النـاس قبل أن يسقط السيف على رقبـة القـاتل الفقير التعيس ، وقـولوا لى أيها النـاس من يقطع يد مَن ؟ ومن يقطع رقبـة مَن ؟ ونحن نطـالب بتطبيق حـد الخمـر وهـو حق ، ولكن هـذه صفحات تـاريخنـا وسـادتنا فى الماضى غـارقون فى الخمـر بل كـانوا يثيبـون الشعراء الـذين يقولـون القصائد فى مدح الخمر والتفنن فى ذلك ، ولا أذكر من خلفاء المسلمين من بداية الدولـة الأمويـة عدا عمـر بن عبد العـزيز واحـداً لم يقارف كل المحـرمات ، ثم يتعجبون من سوء حـال أمم الإسلام وانقطاع بركة الله عنهم ، إن عقـابنا لابد أن يكـون أشـد من عقـاب الكفـار الـذين لم تصلهم رسـالـة الإسـلام لأن جهلهم بالإسلام قد يشفع لهم ، أما نحن فما عذرنا وعندنا الكتاب وفينا رسول الله ؟ وقد قال الله سبحانه ذلك فى الآية السابعة من سورة الحجرات :

﴿ واعْلمُـوا أن فيكمْ رسُوْلَ الله لـو يُطيعُكُم فى كثِيرٍ من الأمْـر لعنِتمْ ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكمُ الإيْمان وزَيَّنه فى قُلُوبكم وكَرَّه إليكْمُ الكفْرَ والفسُوقَ والعِصْيان أولئِك هُم الراشِدُون . فضلاً من الله ونِعْمةً والله علِيْمٌ حكِيْمٌ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ٧ـ٨] .

وما أكثر مـاننسى أن فينا رسول الله : فكان ماترانـا فيه من خذلان . نسأل الله سبحانه ألا يجعلنا من أهل الخذلان .

لقد أمرنا الله بطاعته وطاعة الرسـول أكثر من مرة فى كتابه العزيز ولكنه قال مرة واحدة **﴿ يَآ يُّهَا الذِين آمَنُوا . أطِيُعوا الله وأطِيعوا الرسُول وأولِى الأمرِ منكُمْ ﴾** [النسـاء ٤/ ٥٩] والعلماء مختلفـون فى المراد بـأولى الأمـر منكم ، أهم الحكـام ، أم العلماء ، أم الحكماء ، وأهل العقل والـرشـاد ؟ ولكننـا فسرنـاهـا اعتسافاً بأن المراد هم الحكام .

فأما الله سبحـانه فعصيناه . وأما الـرسول فعصيناه . ولكننا أطعنـا الحكام

رهباً وخوفاً وذلاً ونفاقاً لأن الله سبحانه يمهل والرسول يصفح ويستغفر ، وأما الحاكم فيعاقب ، ونحن قوم نخاف ولا « نختشى » كما يقولون ! وبعد ذلك كله فنحن نطمع فى توفيق الله . فقل لى بربك من أين يجىء التوفيق للعصاة ؟! .

ولقد عرفنا حكمة الله سبحانه فى تحريم الطعام فى الصيام ، ولكن لماذا حرم الله شرب الماء فى الصيام ؟ هل الماء ترف يختص به الأغنياء دون الفقراء ؟

الذى نعرفه جميعاً أن الماء للشرب يتساوى فيه كل الناس . فإذا وجد الماء شرب الجميع ، وإذا لم يوجد عطشوا جميعاً .

فلماذا إذن أمرنا الله ورسوله بألا نشرب فى الصيام ؟ لقد طالما فكرت فى هذا الموضوع .

حتى جاءنى الجواب وأنا فى زيارة لجمهورية مالى ومالى جمهورية إسلامية إفريقية صحراوية حظها من الماء قليل ، فخرجنا مرة فى سيارة نزور مراكز العمران فى الصحراء ، وفى الطريق رأينا عظاماً كثيرة لناس هلكوا عطشاً ، وفى موضع من الطريق رأينا أربع أبقار قعوداً دون حركة ، وسألت فى أمرها فقيل لى إنها تموت عطشاً ، وقلت : إذن نسقيها ، فقيل لى : فات الأوان . إن الحيوان إذا اشتد به العطش لم يشك لأن الله لم يمنحه نعمة الكلام ، فإذا بلغ به العطش درجة معينة جلس كما ترى وأخذ يحتضر فإذا تداركناه بالماء فربما شرب وانتعش ، ولكن تجىء عليه فترة تجف فيها كبده وطحاله وتتصلب كليتاه ، وهنا يرقد كما ترى ، ويجود بروحه فى صمت ، ولا يعلم إلا الله ما يعانى . وحاولنا تقديم الماء للبقرات المسكينات فلم تلتفت إلينا لأنها كانت قد دخلت دور النزع .

وعدت إلى السيارة وإن دموعى لتنهل حزناً على تلك التعيسات .

وفجأة وجدت نفسى أقول : لهذا أمرنا الله بالصيام عن الماء .

إن الله يعلم أن فى الأرض شعوباً أرضها ضنينة بـالماء ، هناك يعانى الناس من العطش ويمـوتون جفافـاً ، هناك تقشعـر الأرض ويصوح النبـات ، هناك تتعذب الحيوانات وهى أخواتنا وفى ذمتنا ، وتموت صامتة ولا يعلم إلا الله وحده ما تعانى .

لهذا أمرنا الله بالصوم عن الماء حتى نشعر بآلام إخواننا من البشر والحيوان ، ومن المعروف أن الإنسان أثناء الصيام يعانى من العطش أكثر مما يعانى من الجوع وحكمة الله فى منع الماء تعدل حكمته فى منع الطعام .

وأنت ترى أننـا نعيش فى زمان تعانى فيـه شعوب كثيرة من أهل الأرض من نقص الماء ، فنحن مقبلـون على فترة جفـاف طـويلـة ستهلك فيهـا شعـوب ، وبالفعل يهلك تحت أبصـارنا ألوف من الحيوانات ومـن البشر ـ وفيهم مسلمون كثيرون جداً . وفى العـالم اليوم معاهـد تدرس مشكلـة الجفاف وتبحث لها عن الحلول وفى المؤتمر الإسلامى الثالث الذى عقـد فى الطائف عرضوا علينا مشكلة أهل السـاحل الأفـريقى وما تعـانيه من الجفاف ، والمراد بـالسـاحل هنـا ساحل الصحراء الأفريقية الكبرى ، وهى بحر الرمال ، ولهذا البحر ساحلان : ساحل يمر بـالثلث الجنوبى من مـوريتانيا ومـالى وتشاد والسـودان النيلى ، وساحل فى الشمال جنوبى تونس ، أقول عرضوا علينا صورة هذه الشعوب العزيزة وما تعانى من جفاف ، واقترحوا معـونة مالية لها ، فتبرعت السعـودية وبعض دول الخليج ببضعة ملايين للبحث عن الآبار وإنشاء مـؤسسات المياه وتحليتها ، بارك الله فى أولئك الإخوة الأعزة الذين تبرعوا وأعانوا ، فهذا دليل إيمان عظيم .

وفى الكثير جداً من بلاد العالم المتقدم معاهد كاملة للهيدرولوجيا وهو علم المياه ، وفى جـامعاتنا كـلام كثير عن علم المياه ، ولكنـه كالعادة كـلام يخلو من العلم والإيمان جميعاً .

وعلم الهيدرولوجيا هو الذى حل لنا مسائل الماء وإيصالها إلى المدن والبيوت وتنقيتها وتحليتها ، كل ذلك صنعوه ويصنعونه ، أما نحن وفينا نزل القرآن وتنبيه الله سبحانه على مشكلة الهيدرولوجيا وما هى جديرة به من عناية ، ولكننا على العادة لا نتفكر ولا نتدبر ، وهل هناك أعجب من ناس أمرهم الله بالصيام شهراً ليتقللوا من الطعام وتصح أبدانهم فلا يكون منهم إلا أن يجعلوه شهر الطعام والتخمة والإسراف ؟ والحكومات نفسها تعين الناس على هذا الباطل ، كأن أحداً من رجالها لا يعقل ولا يفكر فتضاعف للناس كميات الطعام فى شهر الصيام ! .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبّنآ إنّى أَسْكَنْتُ من ذرّيَّتى بوَاد غيْرِ ذِى زَرعٍ عِندَ بَيْتكَ المحرَّم رَبنا ليقِيمُوا ٱلصَّلاَة فاجْعَلْ أَفئدَةً من ٱلنَّاسِ تهْوىَ إليْهِمْ وَٱرْزقْهُم مّن الثمراتِ لعلهمْ يَشكُرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[إبراهيم : الآية ٣٧]

حديثنا هذه المرة عن الحج وهو العبادة الرابعة الكبرى من عبادات الإسلام وهى عبادة جليلة تنظيمية وجماعية واجتماعية ، ولها فى سير حضارة الإسلام أبعد الأثر .

والذى جعلنى أختار الآيات التى اخترت أن أجعلها محوراً لهذا الحديث أننى فرغت من قراءة واحد من أحدث الكتب التى صدرت فى الإنجليزية عن محمد صلوات الله عليه ، وعنوان هذا الكتاب بالإنجليزية « محمد » وفوقها بالعربية صلى الله عليه وسلم .

والمؤلف هو المستشرق الإنجليزى مارتن لينجز . وهو رجل معروف لنا فى مصر جيداً ، فقد كان مدرساً للغة الإنجليزية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ،

وفى مصر عرف الإسلام وقرأ القرآن وأحبه ودخل الإسلام عن بصيرة وبينة ، وعاد إلى إنجلترا لينقطع للقراءة عن الإسلام والاستمتاع بالقرآن والتأليف فيهما ، والفصل الأول فى كتابه عن رسول الله ﷺ عنوانه « بيت الله » وهو يروى فيه قضية سيدنا إبراهيم على اعتبار أنه نبى الله الذى اجتباه وأنشأ من صلبه ابنيه إسماعيل وإسحاق .

وعن كل منهما نشأ شعب كبير : ودين سماوى ، (العرب والإسلام من إسماعيل) و (اليهود واليهودية من إسحاق) ، وإبراهيم عليه السلام هو أول المسلمين ، وهو وإسماعيل هما اللذان بنيا البيت الحرام ، ومارتن لينجز فى الفصل الأول من كتابه هذا يحكى قصة إبراهيم مقتبسة من العهد القديم فى سفر التكوين من الكتاب المقدس مع شىء مما قاله المفسرون المسلمون فى شأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وبهذه المناسبة أذكر أن مؤرخنا الكبير أبا جعفر محمد ابن جرير الطبرى أساء التصرف جداً فى كلامه فى هذا الموضوع فى الجزء الأول من تاريخه ، فبعد مناقشة وكلام كثير انتهى إلى أن الذبيح هو إسحاق ، فكان فى هذا مع اليهود على المسلمين . .

والآن أترجم لك كلام مارتن لينجز فى الفصل الأول من كتابه لكى تقف ياسيدى القارىء العربى على ما فى العهد القديم عن سيدنا إبراهيم قال : يقول سفر التكوين : « إن إبراهيم لم يكن له ولد ولم يكن له أمل فى أن يكون له ولد ، وفى ذات ليلة ناداه الله من خيمته ، وقال له : انظر الآن إلى السماء وعد النجوم إذا كنت قادراً على عدها » ، وعندما رفع إبراهيم نظره إلى السماء يتأمل النجوم سمع الصوت يناديه ويقول له : « هكذا ستكون ذريتك » .

« وكانت سارة زوج إبراهيم فى السادسة والسبعين من عمرها ، أما هو فكان فى الخامسة والثمانين ، وقدمت له امرأته سارة خادمتها هاجر المصرية لكى

تكون زوجـة ثانية لـه . وفعل إبراهيم ذلك وحملت هـاجر ، ثم وقع الخلاف بين سارة وهاجـر ، وهربت هاجر خوفاً من غضب سـارة ، وتوجهت إلى الله تسأله العون فى محنتها ، وأرسل الله لها ملاكاً يبلغها عنه سبحانه « سأزيد ذريتك زيادة عظيمة حتى لتستعصى ذريتك على العـد لكثرتها ، ثم قال لها الملاك : اسمعى . . إنك الآن حامل وستلدين ولـداً وستـسمينه إسماعيل لأن الله قد سمع صوت استغاثتك » .

« ثم عادت هاجر إلى إبراهيم وسارة وبقية أسرتها وأبلغتهم بما قال الملك . وعندما ولدت سمى إبراهيم ابنها إسماعيل ومعناه « إن الله يسمع » .

وعندمـا بلغ إسماعيل الثالثة عشرة من عمـره كانت سن إبـراهيم قد بلغت المائة ، وكانت سارة قد بلغت التسعين ، ثم كلم الله إبـراهيم مرة أخرى ، وقال له سبحـانه إن سـارة هى الأخرى ستلـد له ولـداً وأن عليه أن يسميـه إسحاق . وخاف إبـراهيم من أن يقبض الله محبته عن ابنه إسماعيل (ويقبضه إليـه) نتيجة لـذلـك ، فـرفع رأسـه إلى السماء ودعــا : سألتك جل جــلالك أن يبقى ابنى إسماعيل » وقال سبحانه : « سمعت دعاءك فى شأن إسماعيل فاستمع لى : لقد باركته وسأنشىء منـه أمة عظيمة وسآخذ ميثاقى مع ابنك إسحـاق الذى ستلده لك سـارة من العام القادم » .

« وولدت ــ سارة ابنهـا إسحاق وأرضعته بنفسهـا وعندمـا بلغ سن الفطام قـالت لإبراهيم إن هـاجر وابنهـا لا ينبغى أن يظلا فى البيت أكثـر من ذلك ، واغتم إبراهيم لذلك غماً شديـداً لأنه كان يحب ابنه إسماعيل حباً عظيماً ، ولكن الله كلمه ، وقـال له إن عليه أن يفعل مـا طلبته سارة ولا يحزن وأعاد عليـه وعده بأن إسماعيل سيكون مباركاً) .

ثم يقول مارتن لينجز :

« والآن لا ينظر إلى إبراهيم على أنه أبوه الأعلى شعب واحد بل شعبان عظيمان ، شعبان توجتهما العناية الإلهية ، و يريان أنهما أداتان تنفذان إرادة الله لأن الله لا يمنح بركاته لشيء دنيوى ، وإنما هو يمنح بركاته لشيء روحى ، وإبراهيم بهذا أصبح منبعاً يفيض منه تياران روحيان لا ينبغى أن يسيرا معا فى تيار واحد ، إن لكل منهما طريقه ، وأحل الله بركاته على هاجر وإسماعيل ووكل العناية بأمرهما إلى الملائكة ، وضمن لهما كل خيره » .

تياران روحيان . ديانتان . عالمان . . ربهما الله سبحانه ، دائرتان ومركزان بالتالى . إن مكاناً من الأمكنة لا يصبح حرماً مقدساً بإرادة الإنسان بل الله يختاره ويخلع عليه الحرمة ، وكان فى محيط إبراهيم أو مجاله حرمان : واحد منهما كان موجوداً أمام إبراهيم ، أما الثانى فربما لم يكن إبراهيم يعرف عنه شيئاً ، وإلى هذا الحرم الثانى ساق الله هاجر وإسماعيل فى واد غير ذى زرع فى جزيرة العرب على مسيرة أربعين يوماً على الجمال جنوبى أرض كنعان ، وكان هذا الوادى يسمى بكة ، ويقول بعضهم إن هذا الوادى سمى بهذا الاسم بسبب ضيق المساحة التى يقوم فيها محاطاً بالتلال من كل ناحية إلا ثلاثاً : فله مدخل من ناحية الشمال ، ومدخل من الجنوب ، ومدخل من ناحية البحر الأحمر الذى يبعد وادى بكة عنه بخمسين ميلاً ، ولا تذكر لنا الكتب الطريق الذى سلكته هاجر وابنها إسماعيل إلى بكة ، وربما يكونان قد وصلا إلى هناك فى رفقة قافلة لأن موضع بكة يقع على واحد من طرق التجارة الكبرى ، ويسمى أحياناً طريق البخور . . ولابد أن هاجر انفصلت عن القافلة عندما مرت القافلة بالوادى ، ولم يمض وقت طويل حتى اشتد بالأم وابنها العطش حتى خافت هاجر على ابنها من الموت ، وبناء على ما يقوله أبناؤهما استغاث إسماعيل بالله من موضعه على الرمال ، ووقفت هاجر على مرتفع من الأرض ونظرت لعلها ترى قادماً ، فلما لم تجد ، جرت إلى

مرتفع من الأرض ونظرت ولكنها لم تر أحدا! وملكها اليأس فأخذت تجرى بين التلين سبعة أشواط ، ثم جلست تستريح على صخرة بعد الشوط السابع ، وهنا سمعت صوت الملك يخاطبها قائلاً كما نقرأ فى سفر التكوين :

(وسمع الله صوت الغلام ، ونادى الملك أم الغلام من السماء ياهاجر لا تخافى لأن الله سمع صوت الغلام من حيث يكون : قومى واحملى الغلام وامسكى به بيديك لأننى سأنشىء منه أمة كبيرة وفتح الله عينيها فبصرت بعين ماء وقد فجر الله الماء من عين عند قدمى إسماعيل) .

ومن ذلك الحين أصبح الوادى موقفاً من مواقف القوافل المارة بالطريق ، وسميت العين زمزم ـ وإلى هنا أقف بالترجمة عن مارتين لينجز .

***

ونشأت إلى جانب وادى بكة مدينة مكة . وتقول الرواية الإسلامية المعتمدة إن إبراهيم ذهب إلى بكة ومكة عندما اشتد ساعد ابنه إسماعيل ، وإبراهيم وإسماعيل رفعا قواعد البيت . . ونقرأ فى سورة البقرة :

﴿ وإذْ جعلْنَا البيتَ مثابةً للنَّاس وأمنا . واتَّخذُوا من مَقام إِبراهيمَ مُصلى ، وعَهدنا إلى إِبراهيمَ وإِسماعيلَ أن طهِرا بيتى للطَّائِفِينَ والعَاكفينَ والرُكع السُجُود ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٥]وفى سورة آل عمران نقرأ :

﴿ إنَّ أولَ بيتٍ وُضع للنَّاس للَّذى ببكةَ مُبَاركاً وهُدى للعْالمَين فِيهِ آياتٌ بيناتٌ مقامُ إِبراهيمَ ومن دخلَه كان آمِناً ولله على الناس حِج البيتِ من استطَاع إليه سبِيلاً ﴾ . [آل عمران ٣/ ٩٦ ـ ٩٧].

وفى سورة الحج نقرأ :

﴿ **وأذِن فى النَّاس بِالحَج ياتُوك رِجـالاً وَعَلى كُل ضامِرٍ ياتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ . ليشهدوا منافِعَ لهُمْ ويذكُروا اسْمَ الله فى أيامٍ معلُوماتٍ على ما رزقهُم منْ بهِيمةِ الأنعامِ . فكلُوا منها وأطعِمُوا البائِسَ الفقيرَ . ثم ليقضوا تفثهُم وليُوفُوا نذُورهمْ وليطوفُوا بالبيتِ العتيقِ . ذلك ومن يُعظمْ حُرماتِ الله فهو خيْرٌ له عند ربهِ** ﴾ [الحج ٢٢/ ٢٧ ـ ٣٠] .

ولن أمضى فى ذكر بقية آيات الحج التى نعرفها جميعاً لكثرة ماسمعناها وقرأناها . ولكنى أقف هنا وأسأل : ما حكمة الحج ؟ .

لقد قرأت تفاصيل شعائر الحج كما قررها رسول الله ﷺ فى حجة الوداع أو حجة التمام فى ذى الحجة من العام العاشر للهجرة ، وهى أوضح ماتكون فى الصحاح وكتب التاريخ وخاصة مغازى الواقدى ، وتعجبت من حرص رسول الله على التوفيق فى كل خطوة منذ الوصول إلى مكة وطواف القدوم إلى العودة إلى مكة وطواف الوداع ، وخرجت بأن الحج عبادة تجميع للناس ، وتنظيم لهم ، فكل الحجاج يتحركون من موضع إلى موضع فى نفس الساعة ، وخاصة عند الدفع من عرفات إلى مزدلفة والله سبحانه عندما قال ﴿ **الحَجُّ أشهر معلوماتٌ** ﴾ [البقرة ٢/ ١٩٧] و ﴿ **ثمَّ افِيضُوا من حيث أفاضَ الناس** ﴾ [البقرة ٢/ ١٩٩] ، وعندما نقرأ ذلك نرى أن هذه كلها شعائر دقيقة محسوبة حتى يتعود الناس الدقة والإحكام ، وأى خطأ جسيم فى المناسك يفسد الحج . وليس هناك تفسير لهذه الخطوة أو تلك ، ولكن الله سبحانه ورسوله قالا ذلك حتى يطيع الناس وينتظموا ويحسوا أنهم أمة الله ورسول الله بعد أن وصل مع الناس إلى منى وأخذوا يرمون الجمرات ، ويترددون بين مكة ومنى ، وينحرون البُدن ، أباح للناس تقديم بعض الأشياء على بعض لأن أيام التروية أيام طلقة

فيها راحة واستجمام ، وفيها راحة نفس للمؤمن الذى أدى حجه بكل مناسكه ، وحتى السيدة عائشة عندما طلبت إلى رسول الله أن تطوف بالبيت الحرام مرة أخيرة لأنها لم تستطع طواف القدوم عندما وصلت مكة وخاف أن تعطله عن العودة إلى المدينة أمر أخاها أن يطوف بها ثم يلحقانه ، وهو خارج من مكة وزحام الحج فى أيامنا أضاع الكثير من بهجته ، ولكن الذين حجوا فيما مضى لا يزالون يذكرون طرب النفس أثناء الحج رغم شظفه تلك الأيام ، وأنا حججت أول مرة سنة ١٩٣٨ . ونزلت فى بيت مطوف طيب أسكننا فى حجرات حول رحبة بيته على البلاط . وكان يطعمنا طعاماً متواضعاً جداً . والأرض كانت متربة غير مبلطة ولكن الحج كان متعة لأننا كنا قليلين . وكان معظمنا غير ميسور الحال ـ ولكن القلوب كانت عامرة بالإيمان والنفوس خالية من الهموم .

وعندما قال الله سبحانه ﴿ **ثم أفيضُوا من حيثُ أفاضَ النَّاسُ** ﴾ كان يخاطب القرشيين الذين أسلموا لأنهم كانوا قبل الإسلام يختصون أنفسهم بالوقوف عند مزدلفة والدفع منها ، بينما كان بقية الناس يقفون فى عرفات ويدفعون منها ، ولكن رسول الله ﷺ كان قبل الإسلام يقف مع الناس فى عرفة ويفيض منها معهم ، فهكذا فعل إبراهيم عليه السلام .

وعندما قال الله فى سورة لبقرة :

﴿ **يَسْألونك عن الأهلةِ قُل هِي مواقيتُ للنَّاسِ والحَجِّ وليس البرّ بأن تأتُوا البيُوت من ظهُورهـا ولكنَّ البرّ من اتَّقى وأتُوا البيُوت منْ أبوابِها واتقوا الله لعلكُم تفلحُونَ** ﴾ . [البقرة ٢/ ١٩٠] .

كان يصحح مفاهيم بالغة الخطأ عند المكيين قبل الإسلام : فكانوا يتصرفون على هواهم فى مواعيد الحج ، لأن الشىء الأساسى عندهم لم يكن الحج بل التجارة ، والبيع أولاً ، ثم العبادة ، فذكر الله الناس جميعاً هنا بضرورة

التـزام مواقيت الحج ، لأن الأهلـة نفسها كـانت مـواثيق للناس والحج ، وكـان المكيون قد ابتدعوا بدعة سموها الحمس ، واختصوا أنفسهم بها ، وبهذه البدعة فـرضوا على النـاس ألا يشتروا إلا من مكـة ولا يأكلوا إلا من طعـام مشترى من المكيين ، ولا يطـوفوا بـالبيت إلا فى مـلابس جديـدة مشتراة من المكيين ، ولهذا كانوا يحرمون على أنفسهم فى الموسم أكل السمن ، ومـا إليه لكى يبيعوها للناس بالثمن الـذى يريدونه ، وكـانوا لشدة اهتمامهم بـالبيع والشراء واستخلاص كل درهم من الحجـاج يغلقون أبـواب بيوتهم حتى لا يستضيفـوا إلا علية النـاس ، وكـانوا يـدخلون بيـوتهم من ظهورهـا أى من فتحات خلفهـا ويخزنون الأطعمـة والبضائع والأموال ، فى البيوت حذراً من الناس .

ومن روائع القـرآن وبينات صـدقه دعـاء إبـراهيم الذى جعلنـاه محوراً لهذا الكلام الذى يقول الله سبحانه إنـه أسكن من ذريته بواد ذى زرع عند بيته المحرم ليقيموا الصـلاة ، وسأل الله سبحانـه أن يجعل أفئدة من النـاس تهوى إليهم وأن يرزقهم من الثمرات ، فوادى مكة غير ذى زرع حقاً ، ولكن الله سبحانه بعد أن أقام فيه إبراهيم وإسماعيل بيت الله جعل الله أفئـدة الناس تهوى إلى هذا الوادى وأهله ، فكانت جرهم الثانية التى عمرت مكة بعد أيام إبراهيم بزمان قبيلة قوية غنية .

وأبو الوليد الأزرقى فى أخبـار مكة يؤكد لنا أن مكة أيـام جرهـم كانت غنية وافرة بالمياه ، والجرهميون حفروا بعـد زمزم نحو عشر آبار ، وهذا الغنى أفسدهـم فطغوا فى البـلاد ، فذهب الله بهم ، وقبل خـروجهم من مكة ألقـوا ذخائرهم فى زمزم وطمروهـا ، وجاء مكانهم بخزاعـة ، وخزاعة نصف يمنيـة ، وكان أهلها أول الأمر على بأس شديـد ، وقد عمروا مكة عنـدما ملكوها ، وقصـدها الناس وكثرت فيها الخيرات وهوت إليهـا قلوب الناس من كل مكان ، ولكن الخزاعيين عندما كثرت أمـوالهم وعظم رخاؤهم ضيعوا حرمة الحرم ولم يولوه العنـاية الكافية

فأدال الله منهم بقريش وعلى رأسهم عبقرى من عباقرة التاريخ العربى قبل الإسلام وهو قصى بن كلاب ، وكان زعيماً محارباً سياسياً غلب خزاعة ودخل مكة بالقبائل القرشية الكبرى من خط غالب بن لؤى ، وهم عمود النسب النبوى الشريف ، وهؤلاء هم قريش البطاح ثم استدعى بقية القرشيين المتفرقين فى الحجاز وحلفائهم من بعض بطون خزاعة ، وجعلهم كلهم قرشيين وأنزلهم حول مكة ، وهؤلاء هم قريش الظواهر من خط عامر بن لؤى ، وهم خارج عمود النسب ، وعمرت مكة على أيامه وأزهرت تجارتها ، وكثرت الآبار فيها ، ثم التفت هذا الرجل الذكى إلى خزاعة وصالحها وأرضاها ، وقبل أن يموت قصى كانت مكة قد أصبحت من أعاظم مدن الجزيرة ، ثم جاء ابنه عبد مناف بن قصى ، وكان رجلاً سياسياً فاستأنف القبائل فى الحجاز ، وعقد حلف الأحابيش ، والأحابيش خمس قبائل أساسية : ثلاث من خزاعة واثنتان من كنانة ، ثم جاء هاشم وهو الذى نظم التجارة المكية ، وأحيا طريق التجارة من اليمن إلى الشام ماراً بمكة . وعلى بدء انتظمت رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ونظم طرق التجارة الكبرى إلى الشام والعراق كالجادة والنجدية والتبوكية ، وبفضله أصبحت مكة من أغنى مدن العالم التجارية .

ثم جاء عبد المطلب بن هاشم ، وهو رجل الدين الذى أولى الكعبة وبيت الله أعظم العناية ، ونظم الوثنية العربية ، وجعل مكة مركزها والكعبة مدارها ، وأنشأ تنظيماً عظيماً للوثنية العربية سمى بدين عبد المطلب ، وأعاد حفر زمزم ، وحفر آباراً أخرى ، وفى أيامه بلغت مكة ذروة قوتها فى الجاهلية وعبد المطلب هو جد نبينا محمد صلوات الله عليه .

وهو الذى رعاه بعد أن مات أبوه ثم أمه عليهما رحمة الله ، واحتضن عبد المطلب حفيده وأحسن رعايته ، ومن عجب أن رسول الله ﷺ عندما نادى بالإسلام وهو دين الله ، وهو بعث للدين القيم وهو ملة إبراهيم عندما نادى

بالإسلام كان عليه أن يهدم دين جده عبد المطلب .

فانظر كيف رعى الله مكة منذ قام فيها بيته ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إلى أهلها ورزقهم من الثمرات ، واقرأ هذه العبارة الجميلة التى قالها ابن بطوطة عن مكة فى وصف رحلته ، وكانت مكة قرة عين هذا الرجل العظيم الذى يعتبر أعظم رحالة فى التاريخ البشرى قبل العصور الحديثة ، كانت مكة مركز رحلاته يطوف ويطوف ثم يعود إليها حتى لقد حج ست مرات . واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى المكى ، قال عن مكة : (ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والمثول بمعاهدها الشريفة . وجعل فيها أنساً وحباً فى القلوب ، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها متولها لبعاده عنها ، شديد الحنان إليها ، ناوياً لتكرار الوفادة عليها ، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مستبشراً مسروراً كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصباً ، إنه لأمر إلهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة) ، ثم يقول بعد ذلك : (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع . ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب . فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ، وقد أكلت بها من الفواكه : العنب والخوخ والتين الطيب والرطب ما لا نظير له فى الدنيا ، وكذلك البطيخ المجلوب إليها مالا يماثله سواه طيباً وحلاوة ، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم ، وكل مايفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن سر لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين مجاورى بيته العتيق) .

وهذا كلام قاله ابن بطوطة عن أول زيارة له لمكة سنة ١٣٢٥ م ، ولم يكن هناك بترول ولا كانت هذه البركات التى أكرم الله بها بلاد العرب ، ألا يخيل إليك

أن ابن بطوطة يتحدث بلساننا نحن اليوم عندما نزور مكة والمدينة ونجد خيرات الله مجموعة فيهما ، لقد كانت أزمان ابن بطوطة وأمثاله أزماناً مخوفة ، والرحلات كانت مخاطرات ومغامرات ، وكان اللصوص والبدو والجياع ينقضون أحياناً على القوافل وينهبونها ويقتلون أهلها ، وكانت حكـــومات مكة والحجـاز ضعيفة لا تستطيع حماية الحجاج ، ولكن قوافـل الحج لم تتوقف أبداً ، والناس حتى فى أوقات الحروب والأخطـار لم يتوقفـوا عن الحج أبداً ، وظل النـاس يقصدونها فى الموسم أو خارجـه أو للدراسـة والحج والعمرة قـرنا بعد قـرن من أقصى الأندلس وساحل الأطلسى ومن جزر أندونيـسيا . وكان الألوف يغرقون فى البحر ، ولكن أحداً لم يكن يتردد فى الحج ، وكانت رحلة الحج من الأنـدلس والمغرب وأفريقية المدارية والاستـوائية الغربيـة تستغرق مابين سنتين إلى ثـلاث ، وبعض الحجاج كانـوا يقطعون الطريق على أقدامهم وكـانت رحلة البحر من الهند وبـلاد الملايو وأندونيسيـا تستغرق سنتين على الأقل . ولكن قوافل الحج لم تتوقف أبـداً وهذه من أعجب الظـواهر الـدينيـة الحضاريـة فى التـاريخ ، وعندمـا تقف فى الحرم الشريف وتتأمل الطائفين يدورون حـول الكعبة فاذكر أن هذه الحركـة الدائرية لم تتوقف أبـداً منذ انفتح باب مكـة فى العام الثـامن للهجرة إلى يومنـا هذا ، وهى مستمرة ليلاً ونهاراً كأنها حركة أجرام سماوية .

وأنا زرت الحرم فى كل ساعة من ساعات النهار والليل لأ تأمل هذا المشهد الفريـد وأتعجب من تحقيق رجاء إبـراهيم ربه ، وفى ذات مرة وأنـا جالس على الدرج الرخامى أتأمل الكعبة والطائفين حولها وجدت نفسى أقول سبحانك ربى لقد جـاء فى التاريخ يوم لم يكـن فيه من المسلمين إلا اثنان : محمـد صلوات الله عليه والسيدة خديجة رضوان الله عليها ! .

ولم يجعل الله تعالى عبادة كـانت أوسع بركة على الحضارة الإسلامية وجماعة المسلمين مثل الحج . ولولا الحج لما كـانت هناك أمـة إسلاميـة واحدة تنتشر فى

بقاع الأرض ، بل لما علم مسلم عن مسلم فى بلد آخر شيئاً ، فإن رجال السياسة لم يفعلوا فى سبيل توحيد المسلمين وجمع الصفوف إلا القليل فى الماضى ، ولكن الحج حقق المعجزات ، والدول الإسلامية استثنينا السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التى عمرت درب زبيدة من العراق إلى الحجاز وأنفقت الألوف فى حفر الآبار وتعبيد الطرق إذا استثنيناها فلا أذكر أن واحداً من حكام المسلمين فى الماضى عنى عناية تذكر بشىء يسمى المرافق وأولها الطرق ، ولكن الحج عمر الطرق وجمع المسلمين بعضهم إلى بعض ونقل أخبار بعضهم إلى بعض ، وإذا كان هناك اليوم شىء يسمى عالم الإسلام فإن الفضل فيه يرجع إلى الحج إلى مكة ثم جهود علماء المسلمين ، فالحج هو الذى نظم الطرق بل هو الذى شقها من أقصى عالم المسلمين إلى أقصاه وجاء ببعضهم إلى بعض ، وهو الذى وحد القلوب والألسنة على لغة الإيمان .

وفى أطلس الإسلام وضعت خرائط طرق الحج ، وأنا أتعجب ، فهذه الطرق كلها طرق بشر لا طرق منشآت ، فإن الرومان كانوا يبنون الطرق بناء بالحجارة على عمق مترين وثلاثة ، أما نحن فإن تمهيدنا للطرق كان قليلاً ودليل ذلك أنهم يقولون فى الغرب : بناء الطرق ونحن نقول شقها ، والفرق بين الاثنين عظيم ، ولكن أقدام المسلمين ودوابهم هى التى مهدت الطرق ، وأهل الخير على كل مرحلة من مراحل الطريق هم الذين حفروا الآبار ورعوها حسبة لله تعالى ، والتجار والحجاج وأهل العلم ساروا فى هذه الطرق وعمروها وربطوا عالم الإسلام بعضه ببعض ، وكل هذه من فضائل الحج الدينية والحضارية ، وصدق رب العزة عندما قال ﴿ **وأذِن فى الناسِ بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلِ ضامرٍ يأتِين من كلِ فجٍ عميقٍ ليشهدوا منافِع لهُم ويذكروا اسم الله فى أيامٍ معلُوماتٍ على ما رزقهُم من بهيمة الأنعامِ ، فكلوا مِنها وأطعِموا البائِس الفقير ، ثم ليقضُوا تفثهُم وليُوفوا نُذورهُم وليطوفوا بِالبيتِ العتيق .**

ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّم حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ . [الحج ٢٢/ ٢٧ ـ ٣٠] . والتفت ما يصيب المحرم بالحج من ترك الأدهان والغسل والحلق وإزالة مناسك الحج بعد الإحلال .

وكانت بركات الحج على التجارة والحضارة الإسلامية ذات آثار أبعد مما ذكرنا ، فقد كانت طرق الحج طرق قوافل وتجارة أيضاً ، وهذا معروف ، ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون هو أن قوافل الحج نفسها كانت عظيمة الأثر على التجارة ، لأن معظم الحجاج كانوا فقراء ، وحتى الموسرين منهم لم يكونوا يستحبون حمل المال الكثير معهم لكثرة الأخطار ، وكان الفقراء وضعاف الحال يأخذ الواحد منهم مع المال القليل بعض منتجات بلده الصناعية والزراعية ، فإذا حطت القافلة فى بلد باع الناس ماأرادوا مما معهم من البضائع التى يحتاج الناس إليها فى البلد الجديد ، وأنفق بعضها فى حاجاته واشترى بضائع من منتجات ذلك البلد ، فإذا بلغ بلداً آخر عمل نفس العمل ، ولا يزال يبيع ويشترى وينفق من فروق الأسعار حتى يتم رحلته ويحج ، ويفعل نفس الشىء على طريق العودة : وكان تعداد القافلة لا يقل عن ألفين ليأمنوا على الطريق ، فإذا فرضنا أن كل حاج خرج من بلده بما قيمته خمسون ديناراً فحسب من الأموال والبضائع ، وكانت القافلة من ثلاثة آلاف ، فهذه مائة وخمسون ألف دينار من البضائع والأموال تتحرك على طول الطريق ، وهذه القوافل كانت تحمل كل شىء ، والكميات الصغيرة تصبح كبيرة مع كثرة العدد . فكانت نتيجة هذا أن منتجات العالم الإسلامى كله كانت موجودة فى كل البلاد ، ومكة هى سوق التجارة الأكبر . هنا كان كبار التجار يتلاقون فى الموسم ليسوى كل منهم حسابه مع أمثاله . وبعض تجار العالم الإسلامى كانوا يصدرون صكوكاً أو مانسميه اليوم خطابات ضمان بمبالغ كبيرة أو صغيرة . والمسافر ينفق على حساب خطاب الضمان هذا ويسجل فيه ، حتى إذا وصل مكة عمل حسابه مع

مراسل تاجر بلده فى مكة . وكان هذا نظاماً عجيباً وناجحاً جداً .

وكانت قوافل الصحارى أكثر أمناً على أنفسها وأموالها من الطرق المارة بالمدن والحضر ، لأن رجال الدول كانوا يعتدون على أموال الناس فى تلك الطرق أما القبائل البادية فكانت دائما حريصة على أن تمر القوافل بأراضيها لأنها تأتيها بما تحتاج إليه من الآنية المعدنية والصناعات التى لا تحسنها القبيلة فى الصحراء ، والقافلة كانت تحمل منها ماتريد بيعه من منتجاتها كالجلود والصوف والجبن والنباتات الطبية والماشية وما إلى ذلك ، فكانت القبائل تحرس القبائل دون خفارة تذكر ، ولهذا فقد كانت طرق الصحارى القاحلة التى تنتقل من أرض قبيلة إلى أرض قبيلة أخرى أعمر من طرق الحضر وأكثر أمناً .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هل أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تجارَة تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُوله وَتجاَهِدُونَ فى سَبيل الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خيرٌ لَّكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغفر لَكمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلكُمْ جَنَّاتٍ تَجرِى مِنْ تَحتها ٱلأنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طيِّبَة فى جَنَّاتِ عَدْن ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وأُخرَى تحبونَهَا نَصْرٌ من الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الصّفّ : الآيات ١٠ ـ ١٣]

حديثنا هذه المرة عن الجهاد والقتال فى سبيل الله أو دفاعاً عن دار الإسلام وآيات الجهاد فى القرآن الكريم كثيرة ، لأن الجهاد ركن من أركان هذا الدين ، وقد جئت بالحديث عن الجهاد بعد أن تحدثنا عن العبادات الإسلامية الأربع :

الصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام ، لأننا سنرى أن الجهاد فرض مكتوب على كل مسلم ، وأنه فرض عين لا فرض كفاية ، والأمر هنا لا يقتصر على الجهاد لنشر الدين أو القتال ذوداً عن حوض الملة ، ولأن القتال للدين والوطن والكرامة فيه عزة وسمو بنفس المؤمن لا يتيسران بدونه . فإن من أكبر ماضر أمة الإسلام مذهب بعض الفقهاء فى أن الجهاد فرض كفاية تنوب فيه القلة عن الغالبية ، لأن هذا المذهب حرم المسلمين من شرف الدفاع عن دار الإسلام وديارهم ، وجعلهم رعية مستذلة لحكام أراذل يعتمدون على جند مرتزقة ملاعين وسنفصل الأمر فى ذلك تفصيلاً .

وقد اخترت الآية التى تراها فى رأس هذا الفصل ، لأنك ترى أن الله سبحانه قرن بين الإيمان بالله ورسوله والقتال فى سبيل الله دون ذكر لصلاة أو صيام أو أى فرض آخر ، ألأنه سبحانه أراد هنا أن يبين أن الجهاد فرض واجب يلزم كل مسلم ، مثله فى ذلك مثل أى عبادة أخرى من المفروضات ، فكما أن على المسلم أن يصلى ويزكى ويصوم ويحج فإن عليه أن يجاهد فى سبيل دينه ، وان يكون دائماً على الأهبة للقيام بهذا الفرض العظيم الذى تتوقف على القيام به حياة الأمة عزيزة قوية ، والأمة القوية العزيزة أمة شريفة نشيطة عاملة محسنة عالمة تسير مع أمم الطليعة على هذا الكوكب .

وقبل أن أسترسل مع هذا الحديث أحب أن أنبه إلى ماتتضمنه هذه الآيات من بلاغة قرآنية معجزة ، فأنت ترى هنا أن الله سبحانه يعبر عن دخول الدين بلفظ تجارة ، وهو سبحانه يأخذ هنا اللفظ العادى ويرتفع به فيعطيه معنى شريفاً ، فالإسلام هنا صفقة عدل ، أو هو موثق بين الله وعبده ، فهو يدخل الدين عن إيمان صادق ويجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه ، وهو يفعل لنفسه بذلك خيراً عظيماً ، ولكن الله يزيده على ذلك نعمة كبرى ، فهو يغفر له ذنوبه ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ويهبه مساكن طيبة فى جنات عدن ،

وذلك فى ذاته هو الفوز العظيم . . لا يقف هنا كرم الله بل إنه يعد المؤمن بالنصر من الله والفتح القريب .

والجهاد فى كل آيات القرآن فرض على المسلم ، واقرأ الآيات التالية :

﴿ إِنَّ الله اشْتَرَى من المؤْمنِينَ أنفسهمْ وأموالَهمْ بأن لهُم الجنـة يُقاتلونَ فى سَبيلِ الله فيقتلونَ ويُقتلونَ وعداً عليهِ حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقُرآن وَمَن أوفَى بعهدِه من الله فاستَبْشروا بِبيعكِم الّذى بايَعْتُم به وذلك هو الفوْز العظيمُ ﴾ [التوبة ٩/ ١١١] .

فهنا ترى بكل وضوح أن الجهاد فى سبيل الله فرض لازب ، وأنه جزء من موثق المؤمن مع الله ، وهذا الموثق الذى يبيع الإنسان فيه نفسه فى سبيل الله ويقاتل فيقتل أو يُقتل ، فيفوز فى مقابل ذلك بالجنة ، وهى فوز له عظيم . فليستبشر المؤمنون بهذ الميثاق الجليل مع خالق الكون سبحانه .

ولكى ترى أن الجهاد فرض عين يلزم المؤمنين جميعاً اقرأ هذه الآيات :

﴿ إِنَّ عدَّة الشُّهور عند الله اثْنَا عشَر شهراً فى كِتاب الله يومَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ منها أربعة حُرُم . ذلك الدين القيِّمُ فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم وقاتِلوا المشْركِينَ كافة كما يقاتلونكم كافة واعْلَمُوا أن الله مع المتقِين ﴾ .

[التوبة ٩/ ٣٦] .

فهنا ترى أن علينا كافة أن نقاتل المشركين كما يقاتلوننا كافة .

وقوله تعالى **﴿ ذلك الدين القيم ﴾** يفسره ابن كثير ومحمد فريد وجدى بأن تحريم القتال فى الأشهر الحرم هو الدين العظيم ، وقد يكون هذا هو المراد ولكنه فى رأيى ليس كل المراد ، فإن السياق يدل على أن المراد بالدين القيم هنا الدين

النائم أبد الدهر الذى يعزه الله بأهله وبالجهاد الدائم فى سبيله ، وبمراعاة قانون الجهاد فيه ، ومن هذه القواعد مراعاة الأشهر الحرم ، وإيقاف القتال فيها إذا سمحت ظروف الحرب بذلك ، لأن السنة كلها لا يمكن أن تكون جهاداً للمسلمين فلابد لهم من فترة راحة واستعداد وتدبير ورسم خطط .

واقرأ هذه الآيات من سورة آل عمران وهى تدور حول موقعة أحد :

﴿ ومَا أصَابكم يومَ الْتقَى الجَمْعَان فبإذِن الله وليَعْلَمَ المؤْمنِينَ وليَعْلَمَ الذين نافقوا وقيلَ لهمْ تعالَوْا قاتلوا فى سبيل الله أو ادْفعوا قالوا لو نعلَم قِتالاً لاَتَّبعْناكُمْ هُمْ للكفْر يومئذٍ أقرب منهُمْ للإيمان يقولونَ بأفواهِهم مَّاليس فى قلوبهِمْ والله أعلمُ بما يكتمون . الَّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فادْرَءُوا عن أنفسكُم الموتَ إن كنتمْ صادقينَ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون . فرحِين بما آتاهُمُ الله من فضله وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لم يَلحقوا بهم من خلفهم الا خَوف عليهم ولا هم يحزنونَ ﴾ .

[آل عمران ٣/ ١٦٦ ـ ١٧٠] .

وهاهنا معان عظيمة تكشف عن مرادات الله سبحانه من أمته . فالجهاد فرض على المسلم . والنكوص عنه كذب وضعف ونفاق ، بل إن الناكص عن الجهاد أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان ، وقعود الإنسان عن الجهاد لا يدرأ عنه الموت ، وقعود الإنسان عن القتال فى سبيل الله مصادرة لقدر الله فى الآجال . ثم تجىء بعد ذلك الآية التى تقول إن الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذا كلام صدق يفسره الله فى الآيات التى تلى هذه الآيات ، فإن الذين يستشهدون فى سبيل الله يذهبون إلى جنات عرضها السموات والأرض وهم فى نفس الوقت يؤمنون سلامة الأمة ، ولذلك فهم يستبشرون بالذين لم

يلحقوا بهم فى الشهادة وبقوا خلفهم ، فهؤلاء ستستمر عن طريقهم حياة الأمة ، وهم بشهادة من سبقوهم آمنون لا خوف عليهم ولا يحزنون ، وهم يبقون مستعدين للقتال والجهاد إذا دعا الداعى ، فأمة الإسلام لابد لها أن تكون على أهبة القتال ماعاشت ومابقى زمان .

وإذا كنا نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا ونعتبر تصرفه سنة نتبعها ، فلننظر فى حياته الشريفة ، ونرى موقفه من الجهاد ، فنرى أنه منذ استقر به المقام فى المدينة وقامت أمة الإسلام من حوله بدأ بعملية طويلة ، أول غاياتها توسيع وطن الأمة بإدخال الناس وأوطانهم فيها ، لأننا عندما نقول إن رسول الله بمجرد استقراره فى المدينة وعقد الميثاق بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهد معهم من اليهود ، أرسل عبد الله بن جحش فى سرية كبيرة إلى بلد قبيلة جهينة ، وكانت من أكبر وأقوى القبائل القضاعية النازلة فى الحجاز من ينبع جنوباً إلى ذى خشب قرب تيماء شمالاً ، فمضى عبد الله فى قوة كبيرة ونزل بأرض جهينة وسارع للاتصال به مجدى بن عمرو رئيس جهينة ، فطلب مجدى إلى عبد الله بن جحش أن يعطى رسول الله الجهنيين موثقاً « نأمنك به وتأمننا » فأوثق لهم رسول الله الموثق الذى طلبوه ، وعاد عبد الله إلى المدينة ولم يسلم الجهنيون هذه المرة ، ثم وفد مجدى على رسول الله فى المدينة فحباه وأكرمه ، ويظهر أن مجدى ومن معه أسلموا حينذاك لأننا سنجد بنى جهينة بعد ذلك مسلمين ، وبعد إسلام جهينة أصبحت أراضيها جزءاً من وطن أمة الإسلام ، وليس معنى ذلك أن المسلمين امتلكوها ، بل المعنى أن منازل الجهنيين ظلت لهم ولكن المسلمين أصبحوا مسئولين عن سلامتها ، وأصبح مجدى بن عمرو وبقية الجهنيين مواطنين فى أمة الإسلام ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال لمجدى : هل أقطعك ينبع ! ورسول الله لا يستطيع أن يقول هذا إلا إذا كانت أرض جهينة أرضاً إسلامية ، ورسول الله أراد أن يختصه بينبع . فقال مجدى ، إنى رجل قد كبرت سنى فأقطعها لابن أخى

وكـان معنى ذلك أيضاً أن أرض بنى جهينـة أصبحت أرضـاً محرمة على قـريش وقوافلها ، بدليل أن رسول الله عندما خـرج فى غزوة بواط لمح اعوجاجا فى سلوك مجدى وأحس فيه ميلاً إلى مواصلة العلاقات الطيبة مع قريش ، فقال له : أتريد أن ننبذ إليك ! أى أتحب أن نقطـع العهد الـذى بينك وبيننا ؟ فقال مجـدى : لا حاجة بنا إلى قتالك . وكل ذلك حدث فى العام الأول للهجرة .

ومن ذلك الحين بدأ رسول الله يخرج فى غزواتـه ويرسل سراياه بمعدل اثنين تقريباً فى الشهر ، لأن أكبر غاياته كان تحويل أمة المسلمين كلها إلى جيش مجاهد فلم يدع مسلماً قادراً على القتال إلا خرج فى سرية أو غزاة .

ومن سرية سيف البحـر التى قادهـا عمه حمزة بن عبـد المطلب فى رمضان سنة ١ هـ / مـارس ٦٢٣ م . إلى سرية نخلة التى قادهـا عبد الله بن جحش فى رجب سنة ٢ هـ/ فبراير ٦٢٤ م . وهى الثامنة من مغازيه ﷺ وهى السابقة على بدر والممهدة لها ، كانت أمة المدينة قد دخلت فعلاً فى التحول إلى أمة جيش أى أمة مجاهـدة ، ثم كـانت بـدر الفاصلة فى ١٩ رمضـان ٢ هـ / ١٥ مـارس سنة ٦٢٤ م . وهى التى اشترك فيهـا المهـاجـرون والأنصـار وبعض القضـاعيين فى القتال لأول مـرة ، وبها بدأ السير الحثيث فى طـريق الجهـاد ، ولم يترك رسول الله عضواً من أعضاء الأمة إلا أعطاه فرصة القتال والتدرب عليه ، وأصبح الجهاد فى سبيل الله والإسلام جزءاً أسياسيـاً من واجبات كل مسلم قادر على القتال ، فلما كانت غزوة تبـوك (رجب ـ رمضان سنة ٩ هـ/ أكتوبـر ـ ديسمبر سنة ٦٣٠ م) ونزلت بعـدها سورة بـراءة وهى سورة التوبـة أيضاً ، تقرر فيهـا أن القتال أصبح فـرضاً واجبـاً على كل مسلم ، ويعاقب من يتخلف عنـه أو يتهاون فى أمـره أو ينافق فيه . ولا مجال للقول بعد أن نزلت سورة التوبة بأن فرض القتال قد نسـخ ، لأن سورة التوبة بإجماع معظم علماء القرآن كـانت آخر ما أنزل على رسول الله من سور القرآن الكريـم .

فلنقف لحظات عند سورة التوبة .

ولكى نفهم سورة التوبة حق الفهم . ونضع أيدينا على ماتضمه من الحكم والمواعظ والمعانى الجليلة ، نقول كلمتين عن غزوة تبوك التى سبقتها ، وقد بدأت آيات سورة التوبة تتنزل على رسول الله وهو عائد من تبوك ، وسورة التوبة على أغلب الأحوال هى آخر ما نزل على رسول الله من سور القرآن ، فأحكامها قائمة سارية إلى أن يطوى الله الأرض وماعليها ، إذ لا يمكن القول بأن الله أنزل بعدها ماينسخ بعض أحكامها .

تبوك هى الرابعة والثمانون من مغازى رسول الله ﷺ وقد خرج بها رسول الله فى رجب وعاد فى رمضان سنة ٩ للهجرة / أكتوبر ــ ديسمبر ٦٣٠ م ، وهى تجىء ضمن عدد من المغازى قام بها رسول الله أو أرسلها إكمالاً لتوحيد الجزيرة تحت راية الإسلام وقضاءً على ما بقى ناشزاً من القبائل ، مع الاهتمام الخاص بشمال الجزيرة وحدودها مع الروم ، وكانت تسكن هذه الحدود وفى دواخل الشام قبائل تنصر معظمها ودخل فى جملة مايسمى بعرب الروم أو نصارى العرب أو عرب الضاحية ، ضاحية قضاعة ، وهى قبائل عربية كانت تسكن على وجه التقريب ما يعرف الآن بأراضى المملكة العربية الهاشمية .

ويبدو أن رسول الله ﷺ كان يمهد فى ذلك الحين للخروج بالإسلام إلى خارج الجزيرة ، فنحن الآن فى العام التاسع للهجرة وهو عام الجماعة ، والوفود تقبل على المدينة وتعلن انضمام قبائلها إلى أمة الجزيرة ، ثم إن رسول الله ﷺ لم ينس ما وقع للمسلمين فى مؤتة بأرض البلقاء جنوبى البحر الميت قبل ذلك بعام فاستقر رأيه على أن يسير بالمسلمين إلى تبوك .

وكان رسول الله قد قرر القيام بهذه الغزوة البعيدة ليختبر أمة الإسلام ويعجم عودها ويدربها على القيام بالأعمال العسكرية الكبيرة العسيرة ، وفى

تقدير الحق سبحانه أن تكون هذه الغزاة تمهيداً لتشريعات وتوجيهات أساسية بالنسبة لحياة الأمة ومستقبلها ، وإذا كانت غزوة تبوك هى المحنة أو الامتحان ، فإن سورة التوبة وهى براءة هى نتيجة الامتحان ، وهى نتيجة حافلة بالتشريعات والتنظيمات والتوجيهات للمسلمين عليهم طاعتها والعمل بها حتى يطوى الله الأرض وما عليها ، وقد أوحى الله إلى رسوله بأن يحتفل بهذه الغزاة أعظم الاحتفال ويعد لها ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ليرهب عدو الله وعدو الإسلام ، فأعلن الرسول عن وجهته ودعا أهل المدينة جميعاً ومن حولها من الأعراب للاشتراك فى الغزاة ، وتطوع القادرون بالمال والسلاح ، وجاءت النساء بالمصوغ وبسطت ملاءة خارج حجرة السيدة عائشة ليضع فيها القادرون ما يريدون التبرع به .

واجتمع لرسول الله ﷺ ثلاثون ألف مقاتل فيهم عشرة آلاف فارس ، وتخلف عن رسول الله ناس وقعد عن الخروج ناس دون عذر ، وكانت قد بلغت رسول الله أنباء عن استعداد الروم وجمعهم قوة عظيمة للمسير لحرب المسلمين ، ولكن رسول الله عندما وصل إلى تبوك تبين له أن هذه الأخبار غير صحيحة ، فتلبث عند تبوك حتى أتاه عدد من قبائل عرب الروم مسلمين وانحاز بعضهم إلى الروم ، وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى قوة أدخلت اكيدر صاحب دومة الجندل فى طاعة الإسلام . وعاد الجيش الجرار إلى المدينة ، وقد عانى الناس أهوالاً فى الذهاب والعودة ، فقد كان الوقت نهاية الخريف وبداية الشتاء والأراضى لا زروع فيها ، وكانت الحرارة إلى جانب ذلك شديدة فى بعض الأيام ، وقلت الأقوات والمياه فى مناسبات كثيرة ، ولهذا وصفت غزاة تبوك بأنها غزوة العسرة . وقد كانت نتيجة استسلام دومة الجندل أن استسلمت بعد ذلك أبلة على طرف خليج العقبة ، واستسلمت تيماء وجربا واذدرح ثم مقفا على البحر الأحمر .

ولكن عبرة تبوك كلها فى سورة براءة أو سورة التوبة التى قلنا إنها بدأت تَتَنَزَّل على رسول الله وهو فى طريق عودته إلى المدينة ، واستمرت تتنزل بعد وصوله كاشفة للناس أسرار ما فعلوا ومنبهة إلى الأخطاء ومنذرة بالعقاب للمخالفين ومبشرة بالثواب للمحسنين ، ولهذا سميت بالكاشفة والفاضحة والمنذرة والمبشرة والجانب الكبير من آياتها يتضمن تشريعات خاصة بالجهاد وفرض وجوبه على المسلمين ، فلننتقل إليها الآن . فهذا هو بيت القصيد من فصلنا هذا عن الجهاد .

سورة التوبة حليلة حفيلة حاسمة فى تاريخ الأمة وسنجتزىء منها هنا بما يخص الجهاد وتشريعه وتنظيمه مع الإشارة إلى مواقف المنافقين وما أعد الله لهم من سوء العذاب ، وسندع من آيات الجهاد ما سبق أن أتينا به فيما سلف . قال الحق سبحانه فى سورة التوبة :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذين آمنوا مالكمْ إذا قيلَ لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتمْ إلى الأرض أَرَضيتمُ بالحياة الدنيا من الآخرة فما مَتاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ. إلا تنفِروا يعذبكمْ عذاباً أليماً ويَسْتَبْدِلْ قوماً غيركمْ ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قديرٌ . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الَّذينَ كفروا ثانى اثنين إذْ هُمَا فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إنَّ الله معَنَا فأنزل الله سكينته عليهِ وأيده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمَة الذين كَفروا السُّفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيزٌ حكيمٌ . انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . لو كان عَرَضاً قريباً وسَفَراً قاصداً لاتبعوك ولكن بَعُدَت عليهم الشقة وسَيَحْلفون بالله لو استطعْنَا لخرجْنَا معكمْ يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذِبون . عفا الله عنك لِمَ اذنت لهمِ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبينَ . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن

يُجاهِدُوا بأموالِهم وأنفُسِهِم والله علِيم بالمُتقِين . إنما يَسْتأْذِنُك الذِين لا يُؤمنُون بِالله واليومِ الآخِرِ وارْتَابت قلوبهم فهم فى رَيْبِهمْ يترددونَ . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّة ولكن كَره الله انبعاثهمْ فثبطهمْ وقيل اقعُدوا مع القاعدينَ .لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوْضَعُوا خلالكمْ يبغونكم الفتنة وفيكمْ سمّاعونَ لهم والله عَليمٌ بالظالمين ﴾

[التوبة ٩/ ٣٨ـ ٤٧] .

هذه آيات بينات تبين دون أدنى شبهة أن الجهاد فرض عين ، وأن كل مؤمن قادر على القتال مكلف بالخروج والاستعداد للجهاد فى سبيل الله ، وهذا الاستعداد ينبغى أن يكون صادراً من داخل النفس ، فلا يتوقف لزومه على أمر أمر أو رغبة رئيس يدعوه للخروج عندما يريد ويأمره بالقعود عندما يريد . لأن هذا داعى الجهاد فى سبيل الله لا فى سبيل إنسان أو وجه غير وجه الله ، والجهاد المفروض هنا ينبغى أن يكون بالنفس والمال ، فيجود الإنسان بنفسه وماله فى سبيل الله عن نفس راضية ، أما إذا خرج الإنسان للجهاد عن غير إيمان أو رغبة صادقة فلا خير فى جهاده ، لأنه فى الحقيقة غير مؤمن إيماناً صحيحاً ، لأن الجهاد والجود بالنفس والمال فى سبيل الله هو الدليل البين على الإيمان ، وهل هناك أعز على الإنسان من نفسه وماله ؟ فإذا هو كان على استعداد للجود بهما عن رغبة صادقة فهنا يكون الإيمان الصحيح ، وهنا يكون الجهاد عظيم القيمة . هنا تغلب الفئة القليلة الفئة الكبيرة بإذن الله .

ومن غريب الأمر أن المقاتل الصادق المقبل على الجود بنفسه نادراً ما يقتل ، إنما الذى يقتل ويصاب هو الجبان المتردد الذى يخرج للجهاد مكرهاً ، ومن أكبر الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخسروا فى معركة حنين ـ وكان عددهم فيها فوق العشرة آلاف ـ إلا أربعة شهداء ذكرهم المؤرخون بالاسم . وحنين كانت من المعارك العسيرة التى خاضها المسلمون تحت راية رسول الله ﷺ فقد طالت

ساعات أو بدأت فى وادى حنين ثم استمرت فى سهل أوطاس وانتهت قرب المغيب .

ونحن مأمورون أن ننفر خفافاً وثقالاً . أى سواء أكان علينا سلاح خفيف أم ثقيل ، لأن الأسلحة لا تنتصر بنفسها ولكنها تنتصر بالناس ، وفى أيامنا هذه التى نتصور فيها أن المسألة مسألة سلاح تنتصر جماعات صغيرة مجاهدة فى سبيل قضاياها عن إيمان ، على أمم ضخمة السلاح والعتاد . وإذكروا كيف انتصر الجزائريون بالسلاح الخفيف على الفرنسيين ومعهم سلاح الدنيا ، وانتصر الملك عبد العزيز آل سعود على قوى تفوق قواته بكثير بقوات قليلة وسلاح أقل ، وانتصر أهل فيتنام على الفرنسيين فى ديان بيان فو ثم على الأمريكيين ، وانتصر المصريون والسوريون على إسرائيل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولدى إسرائيل ترسانة رهيبة من الأسلحة وراءها ترسانة أضخم هى ترسانة الولايات المتحدة .

والله سبحانه يعتب على رسوله أن أذن فى التخلف عن الخروج إلى تبوك لنفر سألوه الإعفاء . وتعللوا بتعلات واهية ، وكان لابد أن يتركوا لأنفسهم حتى يتبين له الذين صدقوا والكاذبين ، ومجرد استئذانهم دليل على ضعف إيمانهم وشاهد على أن فى نفوسهم ريباً فهم فى ريبهم يترددون . وعدم خروج هؤلاء أفضل لأنهم يضعفون قلوب المجاهدين .

فهل يبقى بعد ذلك شك فى أن الجهاد فرض عين ؟

إن الإنسان ليتعجب كيف لم يجمع الفقهاء على فرضية الجهاد .

حقاً إن هناك آية تقول ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ [التوبة ٩/ ١٢٢] . وهذه الآية لا تبيح لأى من المؤمنين أن يقعد عن الجهاد لأن القتال فرض ، ولكن تنفيذه لابد أن يتم على نظام ، فليس

من الممكن أن ينفر كل المؤمنين فى كل حين ، لأنـه لابد أن يبقى فى الـوطن من يسير أموره ويمد المقاتلين بالزاد والعتاد ، وإنما المطلوب أن يخف للقتال من عليه الدور حسب نظام يضعه المشرفون على مسائل الدفاع فى الأمة ، وها نحن أولاء اليوم جعلنا الخدمة العسكرية إجبارية على جميع المواطنين وكل منا يقوم بالخدمة العسكرية لفترة معينة ثم يعود إلى حياته العادية ، وفى معظم بلاد الدنيا يعود المواطن إلى الخدمة العسكرية فترة قصيرة كل عام لكى يتدرب على الآلات المستخدمة ثم لكى لاتموت فى قلبه حماسة القتال والرغبة فى المشاركة فى شرف الدفاع عن الوطن .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ ما كانَ لأهل المدينةِ ومن حَوْلَهَا من الأعراب أن يتَخلفوا عن رسول الله ولا يَرْغبوا بأنفسِهم عن نفسِه ذلك بأنهُم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفار ولا ينالُون من عدو نيلاً إلا كتبَ لهم بهِ عملٌ صالح إن الله لا يُضيع أجر المحسنِين ولا يُنفقون نفقة صغِيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعُون وادِياً إلا كُتب لهمْ ليجزيَهُم الله أحسن ماكانوا يعملون ﴾ [التوبة ٩/ ١٢٠ ـ ١٢١] .

ومن أغرب ما قرأت عند بعض المفسرين أن يقولوا إن هذه الآيات خاصة برسول الله وعصره والأعراب الذين كانوا ضاربين حول المدينة . وهؤلاء يغيب عنهم أن رسول الله هنا هو رمز الإسلام ، فالمجاهدون فى الحقيقة لا يجاهدون فى سبيل رسول الله بل فى سبيل الإسلام ، أما الأعراب حول المدينة فكل أمة الإسلام فى منزلة الأعراب حول المدينة ، فالحكم هنا قائم أبد الدهر .

أتدرى أن عدم إصرار أهل الفقه جميعاً على فرضية الجهاد كان من أكبر أسباب تدهور الدول الإسلامية وتأثيرها ؟ .

فإن ذلك فتح أمام الحكام باب استخدام الجنـد المرتزق ، فدرجوا عليه من بداية الـدولة الأموية ، ومعـاوية بن أبى سفيان جعل الأعراب المجـاهدين جنداً مرتـزقاً يحاربون فى سبيلـه وسبيل دولته ، فقتل فى نفوسهم عـرق شرف الجهاد ، وجعل يضع فى يد الأعرابى المرتزق مـائة دينار ويسلطه على المسلمين من أعدائه فيضع فيهم السيف ، وجاء ابنـه يزيد فوضع فى يد الأعـراب نفس المال وأمرهم بقتل الحسين وآله فساروا وقتلوا الحسين ومن معه من آل البيت ، وجاء مروان بن الحكم فسلط مسلم بن عقبة المرى على الحرم الشريف ومدينـة الرسول ﷺ فسار إليهما وفعل بهما ما لم يفعله كافر قط .

ونتيجـة لذلك أخـرجت أمـة الإسـلام من ميدان الشرف ، وتسلط عليهـا الجبابـرة بالجند المرتـزق ، وقد وفق الله سبحانـه رسوله فى تحويل أمـة الإسلام إلى جيش مجاهـد فى سبيل الله وبعث فيهم بـذلك عزة ونخـوة وقـوة ، فجاء هـؤلاء المفسدون فأخـرجوا الأمة من ميـدان الجهاد بل استخدموا الجنـد المرتزق فى إذلال الأمـة ، وعلى هـذا درجت كل دول الإسـلام ، فكـانت كلهـا دول ظلم وإذلال وخـروج عن شرع الله ، والعبـاسيون الـذين أخـرجوا العـرب من ميـدان الشرف واعتمدوا على الجند الإيرانى ثم التركى المرتزق ، جاء عليهم يوم أصبحوا فيه أذل من الكلاب بين أيدى الجند المرتزق .

إن الجهاد فى سبيـل الله والوطن يبعث فى النفس العـزة والشهامـة والشعور بالكرامة ، والأمم التى تراها اليوم قائدة وسيدة وصلت إلى ذلك عن سبيل القتال فى سبيل أديانها وأوطـانها ، ومن العزة والشهامـة والكرامـة تنبع كل فضيلة وكل ميزة عقلية أو نفسيـة ، فهذه الأمم نفسها هى التى تقود فى ميـدان العلم والفكر والاختراع والمال .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[آل عمران : الآيتان : ١٠٢ و ١٠٣]

نتكلم هنا عن وحدة المسلمين على اعتبار أنها فرض على كل مسلم على حدة وعلى المسلمين جماعة ، والخلاف بين المسلمين مخالفة لواحدة من أساسيات الإسلام ، وهى وحدة الأمة ، والأمة الإسلامية المتنازعة المتدابرة المتحاربة ليست أمة إسلامية أو يصعب أن تكون أمة إسلامية حقاً ، لأن الإسلام دين وحدة واتحاد .

والحبل فى الآيات البينات التى جعلناها مداراً لهذا الحديث هو العهد أو

الموثق أو الميثاق ، وأنت فى الإسلام على موثق مع الله وعهد ، ولابد أن تتمسك بهذا الميثاق لأنه عاصمك من الزلل ومن الضياع ، وفى سورة المائدة آيات محكمات تؤكد لنا هذا الميثاق بيننا وبين الله ، وما ينطوى عليه من معان وفضائل أحب أن آتيك بها هنا على نسق لتستقر معانيها فى نفسك إن شاء الله :

﴿ واذكروا نِعمة اللهِ عليكم وميثاقَهُ الذى واثقكم بهِ إذ قلتُم سمِعنا وأطعنا ، واتقوا الله إن الله عليم بذاتِ الصُدور . يَٰأيُّهَا الذِين آمنُوا كُونوا قوامِين للهِ شُهداء بالقِسطِ ولا يجرِمنكُم شنئانُ قومٍ على ألاّ تعدلوا اعدِلوا هُو أقربُ للتقوى واتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملونَ ﴾ .

[المائدة ٥/ ٧ـ٨] .

فهنا نرى أن الإسلام يرفع قدرتك ، ويجعلك على موثق شريف مع بارئ الكون سبحانه ، وأنت إذ خرجت على وحدة المسلمين ، فأنت تكسر ميثاقك معه . وتتخلى عن حبل الله جلا جلاله ، فتتعرض لأشد الأخطار ، وأنت ترى أن المسلمين لم يؤتوا على طول تاريخهم إلا من ناحية التفرق والاختلاف والخصام فالمسلمون المتحدون المتمسكون بحبل الله مسلمون أفاضل أقوياء لا ينالهم أحد بشر ، لأن التمسك بميثاق الله أساس الفضائل كلها ، وقاعدة القوة كلها ، وأنت إذ ظللت على العهد والميثاق ، وقلبك مع الله سبحانه ويدك فى يد أخيك المسلم لن يصيبك شرقط ، ولا دخل على إيمانك ريب أو وهن تخشي مغبته ، وأنت بهذا الميثاق تجد نفسك قواماً لله شاهداً بالقسط ، وأحسست فى نفسك من القوة ما يجعلك تتمسك بالحق والعدل دون أن تخشى أحداً ، لأنك مادمت معتصماً بالله فهو عاصمك من الزلل ، وهنا تجد نفسك عادلاً منصفاً قويًا .

وأنا أعرف أن ائتلاف كل المسلمين بعضهم مع بعض عسير ، فالقلوب تتجاذب وتتنافر ، وتدافع الحياة وصراعها يوقع بيننا العداوة والبغضاء بين الحين

والحين ، وهذه سنة الحياة ، ولكن المصيبة الكبرى هى وقوع الخلاف والانقسام ـ فضلاً عن الحرب ـ داخل الأمة ، لأن الإيمان بالإسلام لا يصح إلا مع الاتحاد .

وأريد أن أوضح هذه النقطة لأن كثيرين من المسلمين فى الماضى والحاضر قد حسبوا أن المسلمين جميعاً ينبغى أن يكونوا دولة واحدة تخضع لرئيس واحد ونظام واحد ، وهذا وهم أتانا من نجاح الخلافة الراشدة الأولى أيام أبى بكر وعمر ، فقد كنا فعلاً أمة واحدة قوية ذات نظام واحد ورياسة واحدة فى عهد هذين الصحابيين الجليلين ، وعندما وقع الخلاف وقامت الفتنة أيام عثمان ، ووقع فى ظننا أننا لابد أن نعود دولة واحدة لنستعيد قوتنا أيام الرسول الأكرم وخليفتيه الأولين ، وعندما عادت الجماعة ونادى معاوية بن أبى سفيان بنفسه خليفة عام الجماعة سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م . ظن معاوية أن واجبه توحيد أمة الإسلام كلها تحت لوائه ، فإذا رفضت ناحية أو جماعة الطاعة له أرسل عليها الجيوش وعاقبها وأذلها ، ومازال بها حتى يرغمها على الطاعة ، وقد فتح معاوية بذلك على نفسه وعلى خلفاء الإسلام من بعده باب بلاء بلا حدود ، وفى محاولة إخضاع المسلمين جميعاً لطاعته وقع معاوية ـ والسفيانيون من بعد ـ فى أخطاء شنيعة ، وقارفوا جرائم بشعة قضت عليهم ، وكذلك وقع للمروانيين من بعدهم ، فقد ارتكبوا من الفظائع فى سبيل إخضاع الناس جميعاً لطاعتهم ما لم يكن أحد يتصور وقوعه بين المسلمين ، وليتهم مع ذلك وصلوا إلى توحيد المسلمين ، بل العكس هو الذى حدث ، فإن أمة الإسلام زادت تفرقاً وخلافاً وعمتها الشرور ، وبنو أمية أنفسهم احترقوا بنفس النار ، والعباسيون أقاموا لهم المذابح ، ثم ساروا فى نفس طريق الخلاف والدماء .

والحقيقة هى أن الإسلام لا يتطلب الوحدة السياسية الكاملة لكل شعوبه بل الوحدة الإيمانية والقلبية ، ورسول الله فى كتبه التى أعطاها لبعض الرؤساء لم يطلب إليهم شيئاً بعد الدخول فى أمة الإسلام ، وترك الكثير من الرؤساء على

حالهم ورياستهم ماداموا قد دخلوا الإسلام وأصبحوا جزءاً من أمته ، يلبون داعى الجهاد إذا دعاهم ، ويؤتون الزكوات ويظلون إخوة لكل المسلمين ، وأذكر لك هنا مثال جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وكان جيفر منهما ملك عُمان (بضم العين) وأخوه عبد يساعده ، فكتب إليهما رسول الله ﷺ يدعوهما لدخول الإسلام ، قال عمرو بن العاص رسول رسول الله إليهما : « فدخلت عليه ـ أى على جيفر ـ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقاً بالنبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها فى فقرائهم ، فلم أزل مقيماً فيهم حتى بلغتنا وفاة رسول الله ﷺ » (طبقات ابن سعد ١/ ١٨) .

فها هنا نرى أن رسول الله قد ترك المَلِكَ على مُلْكِه مادام قد دخل هو وقومه فى الإسلام ، وأطاعا وسمحا لمندوب الرسول ﷺ بأن يشرف على إخراج الصدقات ويحكم بينهم بشريعة الإسلام ، وهما إنما سمحا لعمرو بالحكم بين الناس فى عُمان لأنهما لم يكونا يعرفان شريعة الإسلام بعد وعمرو هنا لم يكن حاكماً ولا والياً ، وإنما هو مجرد عامل على الصَّدقات ومُعَرِّف للناس بأحكام الشريعة .

أما الحكم فظل فى يد جيفر وأخيه ، لأن الأزد ـ أهل عُمان كانوا راضين عنهما ـ ولم يفكر رسول الله فى نزع الرجل عن ملكه ، لأن الإسلام لا دخل له فى شكل الحكم ونظامه مادام قائماً على العدل والتراضى محافظاً على شريعة الإسلام .

أقول ذلك لأطرد وهم السياسة من عقول المسلمين ، لأن إدخال السياسة فى الفكر الإسلامى انتهى بغلبة السياسة على الإسلام نفسه فى تاريخنا ، فتجد تاريخنا كله أصبح نزاعاً بين الطامعين فى الملك والقوة والأموال ، وفى سبيل

السياسة ضحينا بالإسلام ، فللقضاء على الحسين بن على رحمه الله كانت مأساة كربلاء ، وللقضاء على ابن الزبير انتهكت حرمة الكعبة والبيت الحرام ، بل أصر مسلم بن عقبة المرّى أن يقر أهل المدينة على أنفسهم بأنهم (خُوَلٌ) أى عبيد ليزيد بن معاوية فهل هذا من الإسلام ؟ بل هل هذا من الشرف والإنسانية ؟ .

وعلى طول العصور الماضية لم تتوقف الحروب بين حكامنا قط ، بل نجد أن الدولة تقوم فى مكان ما ويستقيم لها الأمر ، فلا تكاد تطمئن على نفسها حتى تدخل فى حرب مع جارتها تريد أن تستولى عليها ، وتستعبد أهلها ، ولم يكن بضائرها فى شىء أن تعيش هى ، وتعيش جارتها ، ويكون بينهما التعاون والتفاهم والتآزرعلى الأعداء من القاصدين أذى الإسلام ، وقد أوغلنا فى طريق السياسة الفاسد حتى فسد فكرنا السياسى الضار بالإسلام ، وكان لابد أن ننتظر حتى يستولى أهل الغرب على بلادنا ، ويستعمروها ويعلمونا طرائقهم فى السياسة ، وينقلوا إلينا فكرهم السياسى ، وحتى بعد أن تحررنا منهم واستقلت بلادنا وقامت فيها الدول المحلية ظل العداء بين دولنا هو القاعدة ، أما المودة والتعاون فهو الاستثناء ، وما من بلدين عربيين مسلمين متجاورين إلا بينهما أشياء وأشياء ، وهذه هى جامعة الدول العربية لا تكاد دولها تجمع على رأى ، مع أن أهل الغرب وهم ليسوا مسلمين قد عقلوا وفهموا بعد تجارب السنين الطوال ، وبعد الحروب والعداوات والثارات أدركوا فى النهاية أن الصداقة بين الدول أجدى وأعون على القوة والخير ، والجماعة الأوربية جماعة ناجحة تتعاون دولها على ما فيه خيرها جميعاً ، بل إن دول الجماعة أصبحت وحدة سياسية واقتصادية قائمة بذاتها تحمى بلادها واقتصادياتها من ضغط الدولتين العظميين .

هل تصدق أنه لم يحدث مرة فى تاريخنا الماضى أن زار ملك عربى مسلم بلد ملك عربى مسلم آخر ؟ لأنهم جميعاً كانوا يعرفون أنهم أعداء بمجرد أنهم أمراء

أو ملوك ، وأن الواحد منهم إذا دخل بلد ملك أو أمير مسلم آخر فلن يخرج منه حيًّا ، هكذا دون سبب ، بل إن ملوك الإسلام كانوا لا يحجون إلا فيما ندر ، ولكى يحج الواحد منهم كان لابد أن يكون الحجاز فى ملكه حتى يطمئن على نفسه ، وكل أمراء الأندلس وخلفائه لم يحجوا ، لا ولا حج من الفاطميين أحد حتى بعد أن أصبح الحجاز داخلاً فى دولتهم ، ولم يحج من سلاطين المغرب إلا واحد هو السلطان عبد الحفيظ ، وقد حج بعد تخليه عن العرش ، وهؤلاء السلاطين لم يتوقفوا عن الحج عن تقصير فى جنب الله ، وإنما لأن الطريق غير مأمون ، فهناك سلاطين مسلمون آخرون فى الطريق ، وكل السلاطين وأصحاب الدول أعداء بعضهم لبعض ، لمجرد أنهم سلاطين ، لأن السياسة عندنا تفسد القلوب .

ومن غريب الأمر أن ملوك النصرانية فى العصور الوسطى كانوا فى بلادهم على مثل حال أصحاب الدول عندنا من العداوة والحروب ، فلما كانت الحروب الصليبية اتفقوا على حربنا فحسب ، وتلاقوا وتفاهموا على حرب الإسلام والعدوان على أراضيه ومقدساته وأهله ، بينما نحن لم نكف عن العداوات أبداً ، وقد قضى واحد من أبطال حركة التجمع والتوحيد عندنا وهو نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى أكثر من عشر سنوات من سنوات جهاده يحاول ضم دمشق إلى جبهة الجهاد دون جدوى ، وقد وقف له فى الطريق حاكمها معين الدين أنر ، كان حليفاً للصليبيين على إخوانه المسلمين ، وقد أشجاهم بعداوته فلم تنضم دمشق إلى جبهة الجهاد إلا بعد موته ، وعندما انضمت دمشق وتوحدت بلاد الموصل والجزيرة الفراتية والشام انفتح الطريق لضم مصر ، وبانضمامها على يد نور الدين ، ثم صلاح الدين كان النصر العظيم ، وكان يوم حطين وانكسر ظهر الصليبيين واستعاد المسلمون القدس ، فكأن العدو الحقيقى لم يكن الصليبيين بل كان العدو هو داء التفرق السياسى الوبيل .

وأمة الإسلام لم تهتز فى الميدان أمام عدو من أعدائها أبداً ، أما الذين انكسروا فقد كانوا أصحاب الدول وأصحاب المطامع السياسية ، ونصر حطين الذى نفخر به كسبه المجاهدون والمتطوعون المسلمون الأحرار الذين خفوا للقتال ألوفاً حسبة لوجه الله ، ولم يكن من المقدر أن تدور المعركة فى سهل حطين ، إنما كان صلاح الدين وجيشه فى طريقهم للقاء العدو عندما تعرض عشرات الألوف من المجاهدين المسلمين لجيش الفرنجة وأوقفوا سيره وتخيفوه وناشوا جوانبه وساقته وتخطفوا فرسانهم ، وحالوا بينهم وبين الماء ، وكان الجو حاراً وهم فى دروع الحديد ، فخلع الكثيرون منهم دروعهم فأصابتهم سهام النبَّالة وخاصة التركمان منهم ، وقرابة الظهر وبعد أن أهلكهم الحر والمتطوعون هجم فرسان صلاح الدين ومشاته فأجهزوا على الألوف منهم واستسلم الباقون وكان النصر العظيم .

ذلك أن لباب الوجود الإسلامى هو الأمة ، هو الأصل ، وهو القوة ، وهو مستقر الإيمان ، وقاعدة الإسلام ، ثم تجىء الدولة بعد ذلك تنظيماً إدارياً لا دخل له بكيان الأمة ، والله سبحانه فى محكم تنزيله لم يخاطب المسلمين قط كدولة ، بل كأمة أى جماعة المؤمنين المتآلفة قلوبهم المستمسكة بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله لا يخاطب الإنسان الفرد فى موقف الرضا إلا نادراً ، أما الأمة فهى دائماً موضع محبة الله وعنايته ورعايته وتوجيهه ، لأن الأمة هى المعتصمة بحبل الله دون تفرق ، فإذا هى تفرقت لم تعد أمة مسلمة ، ولم تعد محل عناية الله ورعايته ، ولم تعد تستحق نصره ، وعادت كما كانت قبل نعمة الإسلام على شفا حفرة من النار ، بل تدهورت فى النار .

وفى سورة آل عمران نحو ستين آية متوالية تشير إلى ما وقع للمسلمين فى يوم أحد ، والذى حدث فى أحد هو أن المسلمين بعد تبادل للرأى طويل بين رسول الله ﷺ والمسلمين انتهى أمرهم إلى الاتفاق على لقاء العدو خارج المدينة ، وكان

الرسول لا يرى بأساً فى أن يكون القتال بين المسلمين وخصومهم داخل المدينة ، ولكن الاتفاق تم على ما قلناه ، وأراد بعض المسلمين ــ بعد الاتفاق ـ أن يعودوا إلى رأى الرسول مخافة أن يكونوا قد اضطروه إلى قبول مالا يحب ، فأبى ، وكان من رأيه أن المسلمين إذا اتفقوا على شىء فلا مجال للاختلاف بعد ذلك بحال ، لأن الاتحاد فى الرأى والعمل هو سرقوة أمة الإسلام ، قال سبحانه فى آيات آل عمران التى نحن بصددها :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾.

[آل عمران ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٧].

فهنا يعتبر التفرق والاختلاف بعد الاتفاق بمثابة الكفر بعد الإيمان ، والذين يختلفون مع إخوانهم تسود وجوههم ، ومصيرهم إلى النار ، إلى هذا الحد يبلغ اهتمام الإسلام بوحدة المسلمين ، ويذهب بعض الذين يصرون على أن يروا فى رسول الله صورة الحاكم السياسى الذى يأمر ولابد أن يطاع ، يذهب هؤلاء إلى أن الرماة الذين أوقفهم رسول الله على جبل عينين لرد الفرسان عن المسلمين (وكان معظمهم يحاربون على أقدامهم ، فلم يكن لدى المسلمين يوم أحد إلا فرسان اثنان يذهب هؤلاء إلى أن الرماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ وبارحوا مواقعهم فكان ما كان ، والحقيقة أن الرماة لم يخالفوا أمر رسول الله ، بل خالفوا ما اجتمع عليه رأى المسلمين وقام بتنفيذه الرسول . .

وفى آيات آل عمران هذه ، نقرأ إشارة إلى ما كان من نصر الله للمؤمنين ببدر بسبب اتحاد قلوبهم :

﴿ ولقد نَصَرَكُم الله ببدْرٍ وأنتُم أذِلَّةٌ فاتقوا الله لعلكُم تشكُرون . إذ تقول للمُؤمنين ألنْ يكفيكُم أنْ يمدكم ربُكم بثلاثةِ آلافٍ مِن الملائكة مُنزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم مِن فَورِهِم هذا يُمْدِدكُم ربكم بخمسة آلافٍ من الملائِكة مُسومين . وما جعله الله إلا بُشرى لكُمْ ولتطمئن قلوبُكم بهِ وما النصرُ إلا مِن عندِ الله العزيز الحكيم ﴾ .

[آل عمران ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٦] .

فهنا ولأن قلوب المؤمنين اتحدت كان نصر الله للمؤمنين لا بثلاثة آلاف من الملائكة فحسب ، بل بخمسة آلاف ، لأن النصر كله من عند الله ، وهو لا يكون إلا للأمة المتحدة المعتصمة بحبل الله جميعاً دون تفرق ، فما الذى حدث فى أحد ، الذى حدث هو أن جماعة من المسلمين خالفت ما وقع عليه الاتفاق فكانت النتيجة ما دار على المسلمين من هزيمة وقتل ، لولا أن رسول الله بشجاعته النادرة ورباطة جأشه الذى لا يتزعزع ـ ثبت ونادى المسلمين فثابوا إليه وجمعهم حوله من جديد .

وسار بهم على مهل ، فدخل هو وبعض أصحابه خلف حائط صخرى قصير ، وترس المسلمون أمامه وظهرهم إلى الجبل ، وعاد الرماة يرمون ويردون الخيل عن المسلمين ، فأنقذ رسول الله جماعة المسلمين وحول إلى نصر ما بدا وكأنه هزيمة فى الدور الثانى من أدوار المعركة .

وقد سمعنا قول الحق سبحانه للمسلمين المتحدين يوم بدر ، فلنسمع ما يقوله للمسلمين الذين اختلفوا يوم أحد :

﴿ هذا بيانٌ للناسِ وهُدى وموعِظةٌ للمُتقِين . ولا تهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كُنتم مؤمِنين . إن يَمْسَسْكُمْ قرحٌ فقد مَس القوم قرحٌ مِثلُه وتلك الأيامُ نُداولها بين الناسِ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم

شُهداء والله لا يُحِب الظالِمين ﴾ [آل عمران ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠] .

إن الله هنا يعزى المسلمين عما أصابهم ، ويذكرهم بأنهم إذا كان قد مسهم جرح فقد مس القوم مثله ، فلا ينبغى إذن أن يحزن المسلمون أو يضعفوا وهم الأعلون (بإيمانهم واتحادهم) وليعلموا أنهم إذا اختلفوا فيما بينهم فقد قصروا فى حق إيمانهم وأصبحوا بهذا فى مثل مرتبة غير المسلمين ، وأصبحوا ناساً من جملة الناس ، وهنا تجوز عليهم الهزيمة ، لأن الله جعل الأيام دولاً بين الناس ، أما المؤمنون الذين ينصرون الله فهو سبحانه ناصرهم وممدهم بكل ما هم بحاجة إليه من العون .

ومرتان فى القرآن الكريم نقرأ قول الحق سبحانه . **﴿ إن هذهِ أمتُكم أمةً واحِدةً وأنا ربُكم فاعبُدونِ وتقطعُوا أمْرَهُمْ بينهُم كُل إلينا راجِعُون ﴾** [الأنبياء ٢١/ ٩٢ ـ ٩٣] .

والمرة الثانية فى سورة (المؤمنون) :

﴿ وإن هذهِ أمتُكُم أمةً واحِدةً وأنَا ربُكم فاتقُون فتَقطعُوا أمرهُم بينهُم زُبُراً كلُّ حِزب بِما لديهِم فرِحُونَ . فذرهُم فى غمرتِهِم حتى حِينٍ ﴾.

[المؤمنون ٢٣/ ٥٢ ـ ٥٤] .

فى المرة الأولى ترد الآية فى سياق الكلام على السيدة مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام فهى تذكر المسيحيين بأن أمة الله واحدة ، ولكنها اختلفت فيما بينها فخرجت عن مرادات الله ، والمرة الثانية ترد فى سياق الكلام عن موسى عليه السلام فهى تشير إلى اليهود .

وهذا يلفت نظرنا إلى أن آيات القرآن لا تتكرر ، ولو خيل إلينا أنها ترد أكثر

من مرة بنفس اللفظ ، لأن السياق هنا هو الذى يعطى الآية معناها الخاص فى كل مرة ، وها نحن أولاء نرى هنا أن الكلام فى المرة الأولى يرد فى سياق الحديث عن مريم بنت عمران والمسيحية ، وفى المرة الثانية يرد فى سياق الحديث عن موسى واليهود ، والمعنى المراد هنا ، هو أن أمة المؤمنين واحدة ، وهى أمة تعبد الله وتلتف حول لوائه وتعتصم بحبله اعتصام المسلمين ، والحقيقة البعيدة التى يؤكدها القرآن هنا ، هى أن النصرانية واليهودية والإسلام دين واحد ، هو دين الاعتصام بحبل الله تعالى وعبادته ، ولا يجوز فى هذه الحالة أن يختلف المؤمنون ويتقطعوا أمرهم بينهم أحزاباً أو أدياناً وإذا كان النصارى ينسبون إلى عيسى أو يسوع الناصرى ، واليهود منسوبين إلى يهوذا أو يهوفا وهو إله اليهود الخاص بهم فى عقيدتهم ، فإن الإسلام هو دين إسلام الإنسان وجهه لله وهو مؤمن ، فالنصارى الصادقون العابدون لله الواحد المسلمون وجوههم لله هم مؤمنون ، واليهود الصادقون العابدون لله الواحد المعتصمون بحبله المسلمون وجههم لله هم مسلمون ، ومن هنا نفهم على ضوء جديد قول الله للمؤمنين :

﴿ اليــوْمَ أكملتُ لكُمْ دينكـُم وأتمَمتُ عليكمْ نعمتِي ورضِيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً ﴾ [المائدة ٥/ ٣].

فإن الإسلام ـ كما رأينا ـ تمام الديانات السماوية ، وقد أكمل الله سبحانه به الدين ، لا على المسلمين فحسب ، بل على المؤمنين جميعاً ، إذ الحق أنه لا يهودية هناك ولا نصرانية ، بل هناك إسلام الإنسان وجهه لله لهم الإسلام ديناً وإذا كان الله واحداً فكيف تكون رسالته إلى أنبيائه شتى ؟ ومادام الله قد أرسل محمداً بالقرآن كلمة الله الصادقة التى أنزلها إلى البشر صدقاً وعدلاً ، فكيف يكون هناك مؤمن غير مسلم لله وجهه ، وكيف نأتى الله سبحانه وكل منا يدين بدين خاص به ؟ وهل فى القرآن حرف يتعارض مع ما عليه اليهود ؟ وهل فيه حرف يتعارض مع حرف فى العهد القديم أو العهد الجديد ؟ وهل يقول عيسى بن

مريم فى الأناجيل شيئاً يختلف مع ما فى القرآن ؟ أكل المشكلة هى أن كلمة الله حملها هنا محمد العربى ؟ أهو عناد وعصبية عنصرية إذن ؟ أهو موقف من محمد صلوات الله عليه ؟ هنا نفهم فى ضوء جديد مرة أخرى لماذا يقول الله سبحانه فى سورة آل عمران :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران ٣/ ١٨ ـ ١٩] .

لأن المسألة هنا تصبح مسألة بغى على الله ومصادرة لمشيئته فى وضع رسالاته حيث يشاء ، والله لا يرضى أن يُبغى عليه أو تصادر مشيئته ، ولهذا فهو يقول هنا قولاً حاسماً لا ريب فيه **﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾** ثم يقول الحق سبحانه فى نفس السورة مؤكداً هذه المعانى كلها :

﴿ قُل آمنا بالله وماأُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغِ غير الإسلامِ ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرةِ من الخاسرين ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٨٤ ـ ٨٥] .

ولكن موقفهم الظالم هذا من محمد ﷺ الرسول العربى لا ينبغى ألا يحفزنا على أن نرد عليه بموقف ظالم مثله ، لأننا نحن المسلمين مأمورون دائماً بأن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذا الأسلوب الهادىء الحكيم فى الدعوة ميزة من ميزات الإسلام ، فلندع الحانق المغيظ فى حنقه وغيظه حتى يتولاه الله بهدايته ، فإن الهداية لا تأتى إلا من الله ، وأنت مهما فعلت فإنك لن تهدى

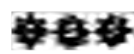
من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، ولا تنس أن الآيات البينات التى أوردتها لك آنفا يعقبها قول الله سبحانه :

﴿ كَيف يَهْدِى الله قوماً كفروا بَعْد إيمانِهِم وشهِدوا أَن الرسُول حقٌ وجاءهُم البيناتُ والله لا يَهْدى القوْم الظالِمِين ﴾ [آل عمران ٣/ ٨٦] .

ويستوقف نظرنا هنا أن الخلافات والأحقاد والحروب بين المسلمين لم تكن قط بين الشعوب الإسلامية ، فلم يحدث قط أن تحاربت مصر مع الشام ، أو الشام مع العراق ، أو شعب العراق مع شعب إيران ، ولكن الحروب كانت دائماً بين رجال السياسة وأصحاب الدول ، وأصحاب الدول كانوا فى تاريخنا الماضى دائماً غاصبين مكروهين من شعوبهم ، وبعد الخلفاء الراشدين لم نعرف حكاماً عادلين إلا فى النادر ، والطريق الوحيد للوصول إلى السلطان أصبح طريق الدماء ، ودماء عثمان الشهيد والحسين الشهيد وآل البيت الشهداء ودماء المسلمين الأتقياء الشهداء ظلت تضرج تاريخنا كله إلى حين قريب .

السبب أننا نسينا ـ من منتصف خلافة عثمان ـ أن الحكم الإسلامى لابد أن يكون جماعياً شورياً هكذا كان رسول الله يتولى أمور أمة الإسلام ، وتبعه فى ذلك الشيخان ، وعمر ـ على رغم ما يروى من شدته وحزمه ـ كان لا يقطع أمراً دون رأى كبار الصحابة الذين قاموا على رأس الأمة **﴿ أمة يدعُون إلى الخير ويأمُرون بالمعرُوفِ وينهون عنِ المنكرِ وأولئِك هُمُ المفلحُونَ ﴾** [آل عمران ٣/ ١٠٤] . وهكذا كان ينبغى أن يظل الأمر دائماً حتى تسير سياسة المسلمين فى الطريق الإسلامى السليم والحكم الجماعى ، أى إسناد رياسة الجماعة إلى نخبة مختارة من أهل الرأى والحكمة والفضيلة ، وهذه النخبة تختار واحداً منها للرياسة فترة محددة من الزمن ، هذا كان ولا يزال أسلم الطرق لقيادة الجماعات ولم تخل الأمة أبداً من الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن

المنكر ، بل لم يخف أمر هؤلاء الأفـاضل قط عن الناس ، ولكن تحول الخلافة إلى سلطان مستبد أفسـد كل شيء ، والخليفة الملك جعل أول همه القضاء على أهل الخير والفضل ، ليخلو له الأمر ، والمستبدون جعلـوا همهم إخضاع أمة الإسلام كلها لإرادة واحدة ، فنهـض لهم المنافـون فى كل مكان ، وأصحـابنا الفقهاء لم يـوجهـوا همهم إلى إعـادة الأمـة لمنهـج الشـورى وحكم أمـة الخير ، بل جعلـوا يتناقشـون فيمن يستحق الخلافة الملكية ، ومن لا يستحقهـا ، من هنا نجمت كارثة الحرب الأهليـة التى لم تخمد نيرانها داخل أمة الإسلام أبـداً ، ومن هنا أيضاً نجمت محنة الشيعية ، وهى محنة ما كان ينبغى أن تظهر فى كيان عالم الإسلام قط ولكنه الاستبداد والأنانية والعناد ، والعناد يورث الكفر كما يقولون .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلجَنَّــةُ للمتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيــــد . هــذا مَــاتــوعَــدُون لِكُلّ أَوَّاب حَفِيظٍ . مَنْ خشِىَ ٱلرَّحْمٰنَ بـالْغَيْب وجَاءَ بِقَلْب مُّنِيب. ٱدْخُلـوهَا بِسَــلام ذَلِك يَــوْمُ ٱلْخلـود لَــهمْ مايَشَــاءُون فيهَـا وَلَـدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[قٓ : الآيات ٣١ ـ ٣٥]

من فضائل القرآن على اللغة العربية أنه أخذ من ألفاظها الجارية وأعطاه معانى جديدة نبيلة ، وبعثها بذلك بعثاً جديداً ، كما ترى فى ألفاظ الصلاة والزكاة والتقوى والتشهد ، وصاغ ألفاظاً جديدة من أصول قديمة كالجنة والبعث والنشور والآية والسورة ولفظ القرآن نفسه ، ومن هذا كله ومن غيره تكونت لغة القرآن ، ونشأ ما يسمى بالألفاظ القرآنية ، وهى الألفاظ ذات المعانى الدينية والإيمانية التى لا توجد إلا فى القرآن ، فإذا استعملت فى غير القرآن عادت إلى معانيها العادية الأولى كالحساب والرباط والوحى والهوى والسريرة والعزة واليقين .

ومن هذه الألفاظ حروف ارتفعت عندما دخلت القرآن وأصبحت لها معان شريفة ، ومن ذلك « لدن » ومعناها عند ، ولكنها تأخذ مقاماً رفيعاً فى مثل قوله تعالى : **﴿ كتابٌ أحكمت آياته ثم فُصلت من لدن حكيم خبير ﴾** [هود ١١/ ١] وقوله تعالى **﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ﴾** [الكهف ١٨/ ١٠] وقوله : **﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾** [النساء ٤/ ٤٠] ، ومن هنا جاء تعبير « العلم اللدنى » ذو المعنى الرفيع .

ومن هذه الألفاظ القرآنية لفظ القلب وجمعه القلوب ، فإن له فى القرآن الكريم معانى عظيمة من بينها « الضمير » فى مثل قوله تعالى : **﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأزلفت الجنة للمتقين ﴾** [الشعراء ٢٦/ ٨٨ ـ ٩٠] وقوله سبحانه : **﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾** [محمد ٤٧/ ٢٤] .

وأمثال هذه الآيات تضع أيدينا على سر من أسرار الإسلام عظيم ، وهو أنه دين القلوب ، حقا إن للضمير مكاناً عظيماً فى النصرانية واليهودية ، ولكن القسس والكواهن هناك هم الذين يقومون بتنبيه الضمائر وإيقاظ القلوب ، لأنهم هم الواسطة بين المؤمن وربه ، وهم الرقباء على الناس ، وفى الكاثوليكية يقوم القس بدور الضمير للمؤمنين ، فإذا ارتكب واحد منهم خطيئة واعترف بها للقس فإن للقس القدرة والسلطة على إعفائه منها ، وهذه السلطة لا تأتيه من الله ، بل من الكنيسة ، وعلى رأسها البابا الذى يقوم بدور الضمير للجماعة كلها وهو مفوض فى منح المغفرة والبركات للمؤمنين ، بل إن له سلطة الحرمان من رحمة الله . وفى صراع البابوات مع الأباطرة على السلطان الدنيوى استعمل البابوات هذا السلاح ، فأصدروا قرارات بحرمان خصومهم السياسيين من رحمة الله وطردهم من الكنيسة ، وهى ـ أساساً ـ جماعة المؤمنين ، بل استعمل البابا

هذا السلاح مع قس لا شك فى إيمانه المسيحى ، وهو مارتن لوثر .

لا شىء من هـذا فى الإسلام ، فأنت مسئول عن نفسـك وأعمالك أمام الله سبحـانـه بـلا واسطـة ، والـرقيب الأكبر عليك هـو قلبك أو ضميرك ، فأنت وحدك تعرف حقيقة نفسك وما فيها ، وأنت تعرف أن الله يعرف ما فى نفسك ، فأنت لا تستطيع أن تكـذب على نفسك ولا على الله ، وهـذا هو القـول الفصل ومقطع الحق فى الإسلام .

وللحـارث المحاسبى كـلام بديع عـن القلب والإيمان فى كتاب « الـرعايـة لحقوق الله ، وكذلك لأبى طالب المكى فى كتـاب « قوت القلوب » ، أما أحسن من تحدث عن القـلب والقـلوب والإيمان فهـو الإمـام أبـــو حامـد الغزالى فى « الإحياء » وغيره مـن كتبه الصغـار ، وخاصـة « كيمياء السعـادة » و « مشكاة الأنوار » .

وكان الهم الأكبر لرسول الله ﷺ أثناء بعثه ورسالته فى مكة ، ثم فى المدينة هو إحيـاء قلوب النـاس ، وتوفيقـه الأكبر هو نجاحه فى تحويل أمـة الإسلام إلى قلب نـابض وضمير حى ، وهو صلـوات الله عليه ، لم يقصد قـط إلى أن يكون رقيباً على النـاس ، وإنما كان مثـالاً على يقظة الضمير وتقـوى القلوب ، وكـان الصحابـة من حوله يرون كيف يتعبـد وكيف يعامل الناس وكيف يـراقب ربه ، والسعداء منهم هـم الذين وصلوا إلى قرب مستواه من يقظة القلب ، وانظر إليهم كيف أصبحـوا من حـولـه ضميراً حياً يتحـرك ، والـواحـد منهم يحاسب نفسـه ويراقب ربـه ، انظر إليهم ، كيف كـانوا يشتركـون معه فى بنـاء مسجد الـرسول ويتنافسون فى ذلك وهم يغنون وينشدون ، وكيف ساروا معه إلى بدر وهم قطعة من الضمير الحى ، ورسـول الله يرقبهم ويـدعو الله ليـؤيدهم ، لأنـه يعرف أن إيمانهم أيقظ قلوبهم ، فأصبح الواحد منهم بمائة من البشر . وقد كان ينبغى أن

نستمر فى طريق القلوب هذا حتى تظل أمـة الإسلام قوية فى صدر الأمم ، وإذا رأيت أننا تزحـزحنا عن مكاننا فى صدر الأمـم فاعلم أننا لابد أن نكون قـد فقدنا ميـزة المسلم الكبرى ، وهى حياة الضمير ويقظـة القلب ، لأن الله سبحانـه لا يرعى إلا أمة الضمير والقلوب .

وإذا كنت من أولئك الذين يعنيهم أمر هـذه الأمة ، ويحيرهم ماهى فيه من تفرق واختلاف رأى وقلة توفيق ، فاقرأ قول الحق سبحانه فى سورة الفتح :

﴿ إِنَّ الَّذِين يُبايِعونك إِنما يُبايِعونَ الله يدُ الله فَوق أيديهِمْ فمن نَّكَث فإِنما ينكُثُ علىٰ نفسِهِ ومن أوفىٰ بِما عاهَد عليه الله فَسَنُؤْتِيهِ أجراً عظيماً . سيقول لك المُخلفـونَ مِن الأعرابِ شَغَلتنا أموالُنـا وأهلُونا فاستَغفِرْ لنا يقولـون بِالسنتِهِم ما ليس فى قلوبِهِم قُـل فمن يملِكُ لكم مِن الله شَيئاً إِن أراد بكم ضَراً أو أراد بِكُمْ نفعاً بل كان الله بما تعملونَ خبيراً ﴾.

[الفتح ٤٨/ ١٠ ـ ١١] .

فهنـا تـرى صـورة نـاس مثلنـا شغلتهم أمـوالهم وأهلـوهم عن الخروج مع المسلمين للجهـاد ، ففسـدت ضمائرهم ولم يعودوا يستحقـون عـون الله ، لأنهم خرجوا عن أمة الضمير والقلوب ، فأصبحـوا ناساً من الناس لا يستحقون عون الله ورعايته ، وذلك هو مانحن فيه من قرون طويلة منذ فقدنا صفاء الضمير .

ذلك أن الإسلام هو دين الضمير الحى والقلب السليم ، والـذى فعلته أمة الإسلام يوم صحا قلبها فى ظلال رسـول الله والخلفـاء الراشـدين من بعـده لا يصدق ، فقـد كان رسول الله يرى أن قـوة الأمة فى يقظة قلبهـا أى ضميرها ، فكان لا يهوله شىء ولا يستكثر على أمته شيئاً ، لأنه كان يرى المؤمنين من حوله ضمائر حية يشعرون بواجبهم ويقومـون به دون أن ينبههم هو إليه ، ونحن نعرف القوة العسكـرية التى وصلت إليهـا أمة الإسلام أيـام الرسـول ، ولكن الذى لا

نعرفه هو تحول المدينة العظيم خلال السنوات العشر التى قضاها فيها الرسول ، فقد تضاعف سكانها فوق المرات الأربع ، وزادت فيها الأراضى الزراعية حتى كفت المدينة نفسها بنفسها من عمل أيدى أفرادها ، وأنشئت الطرقات والشوارع والجسور على وديان الماء فيها ، وقامت المساكن على جوانب الطرق ! ونشأت فى المدينة سوق عظيمة على الطريق المبلط الممتد من مسجد رسول الله ﷺ إلى جبل سلع ، وفى هذه السوق كان أهل المدينة يجدون كل ما كان يحوجهم من طعام وآنية وسلاح ، وكان الناس يتبايعون بأمانة وصدق ، وكانت معظم بيوعهم مبادلة ، وكانت مغانم المغازى كثيرة ، وكل المسلمين كانوا جنوداً مجاهدين ، فالرجل يغنم فى الغازية ناقة أو شاتين ، فيذهب إلى السوق ويشترى السيف والآنية دون مشاحة ، فكل واحد يعرف قدر ما بيده ولا يطالب بأكثر منه ، و إذا وقع خلاف حمله الناس إلى رسول الله فيقضى فيه بنفسه أو يتركه لعلى بن أبى طالب أو أبى بكر ، ويعرض عليه قضاء الصحابى ، فكان يقره فى الغالب لأنه كان يعرف أن معظم من حوله من رجال أمة الإسلام يتصرفون عن قلوب حية ، وكتب الحديث والآثار النبوية حافلة بالأقضية والأحكام ، وهذه الأحكام هى الأساس الذى قام عليه قضاء المسلمين فيها بعد ، لأنها كانت أحكاماً سليمة صادرة عن قلوب صافية لأنها مؤمنة .

ولم يكن فى أمة الإسلام أيام الرسول جهاز إدارى ، فبيت المال شىء بسيط بيد بلال الحبشى ، وهو يتصرف فيها تحت يده بحسب ما يرى أحياناً ، ولكنه كان يطلع الرسول على كل ما يعمل ، ولم تكن هناك دفاتر أو دواوين ، ولكن كل شىء كان واضحاً ، وكانت الأمة تملك ألوف الأنعام ترعى فى الأحماء (جمع حمى) والحمى مساحة من الأرض يخصصها الرسول أو خليفة من بعده لأنعام الأمة التى تتحصل لها من المغازى ، ولم يكن يحرس الحمى الطويل العريض إلا ثلاثة رجال أو أربعة ، فإذا أغار نفر من البدو على الحمى وسرقوا شيئاً مما فيه

نفرت الأمة كلها فى الطلب ، وكان رسـول الله ﷺ يقود أحياناً تلك المطاردات ، والمؤمنون من حـوله ينافسون فى الإخـلاص والحمية ، فهذا مال الجماعـة وهو ما لهم ، لأن الأمة كانت قوة واحدة وضميراً واحـداً ، وفى مدى يومين أو ثلاثة على الأكثر تكون الأمـة قد استردت ما سرق منها أو معظمـه ، ثم ينصرف كل مؤمن إلى حياته بعـد أن أدى واجبه نحو أمته . والأعـراب الذين تذكرهم الآيـة غابت عنهم هذه الحقيقـة ، لأن قلوبهم لم تصح بعـد ، وما فى قلوبهم غير مـا تجرى به ألسنتهم ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَم تَـرَ أن الله أنـزلَ من السَّماء ماءً فسَلَكَـه ينـابيعَ فى الأرضِ ثُم يُخرجُ بِه زرعاً مُختلفاً ألوانُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصفراً ثم يَجعلهُ حُطاماً إن فى ذلك لذِكرى لِأولِى الألباب . أفَمَن شَرَحَ الله صدره للإسلامِ فهو على نورٍ من ربِه فويلٌ لِلقاسِية قلُوبُهم من ذكرِ الله أولئك فى ضلالٍ مُبينٍ ﴾ .

[الزمر ٣٩/ ٢١ ـ ٢٢] .

فهناك ترى كيف يجمع الله بين الماء الذى ينـزله من السماء فيجرى فى باطن الأرض ، ثم يخرج الله به زرعاً مختلفاً ألوانه ، والذى شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، وهذا النـور ينير القلب ويبعث صاحبه على العمل الصالح ، فيقبل عليـه وينتفع بماء الينابيـع ليخرج النبـات الذى ينفـع الناس ، ثم يـذبل مـابقى من النبـات ثم يجف ويكـون حطـاماً ، وهـذه الحطـام تعود إلى الأرض لتتحول إلى نبات آخر بإذن الله ، فهكذا يكون قلب المؤمن الصاحى المتيقظ بذكر الله ، فهو يعمل ويزرع ويخرج الخيرات لنفسه وللآخرين ، أما القاسية قلوبهم ، أولئك الذين لم تستيقظ قلوبهم ، فهم بعيدون جداً عن هذا النور وهم فى ضلال مبين

وفى هذه الايـات ترى قوة الإسلام الكبرى ومعنـاه العظيم ، فهو قلب حى

وضمير يقظ ونفس صافية ، وهو لهذا قوة وعمل وخير وعلم ، وأنت ترى أن الله لا يذكر العمل فى هـذه الآيات لأنه مفروض ، فالمسلـم الصالح مسلم عامل ، وعمله صادر عن قلب واع ، فهو يدرس ويبحـث ويفكر ويتنبه أثناء ذلك إلى ما فيه خيره وخير أمـة الإسـلام معه ، وانظر إلى أمة الإسـلام فى واقعة الأحزاب فى السنة الخامسـة للهجرة ، وعنـدما اجتمعت قـريش وغطفان وأسـد وغيرها من القبائل وسارت جحفلاً لجباً للقضـاء على أمة المدينة ، واهتدى سلمان الفارسى إلى فكرة الخندق ، ووجد الرسول فيها خيراً فدعا المسلمين للمبادرة إلى العمل ، وتدارسوا خطـة الخندق ، وشرعوا فى حفر الخنـدق ، وأقبل الرسول يعمل معهم بيـده ، وخطة الخنـدق تتطـور مع العمل ، فـوجدوا أن بعض جـوانب المدينـة محصنة بالبيـوت ، وكل ما ينبغى هو تشبيكها أى سد الفـراغات بينها ، ووصل الأعداء ليجـدوا أنفسـهم أمام شىء لم يكن يخطر لهم على بـال ، وخطر لبعضـهم أن يطفـروا الخندق بـالخيل ، وطفروا فعـلاً ليجـدوا أن القوة الحقيقيـة ليست فى الخندق بل فى الأمة التى وراء الخندق ، فهى أمة صاحبة يقظة ، وهذا رسول الله قائم فى قبتـه إلى جانب جبل سلع ، وأبـو بكر فـوق الجبل يرقب قـوات الكفار وينبه المسلمين ، والمسلمون أصبحـوا فرقاً مقاتلة تطـوف بأجزاء حددت لهم من الخندق ، وإذا تبين أن هنـاك جزءاً من الخنـدق لابد من تـوسيعه تم ذلـك أثناء الليل ، وهناك قـوتان طيارتـان إلى جانب قبة الـرسول ، يقود إحـداهما عباد بن بشر ، والثانية محمد بن مسـلمة ، والاثنـان من أسود الأمة ، ورسول الله لا يكاد ينام من الليل ساعة حتى توقظه هيعة فينهض ويرد الأعداء ، ثم يعود إلى خيمته ليستريح ، وجماعة من فرسـان الأعداء تقفز فوق الخندق فيتصـدى لها عـلى بن أبى طـالب ونفـر من المؤمنين معه ، وينقلـب الأعداء عـائدين ، وواحـد منهم يـرتطم فى الخندق فيهبـط رجل من المؤمنين يقتله فيـه ، وتهب الـريـاح العاتيـة ويشتد البرد والأعداء يعانون من ذلك ، ولكن المؤمنين لا يكادون يشعرون به لأن

قلوبهم مستيقظة للعمل العظيم ، وبعد نحو أسبوعين من هذه المعركة الحامية يتبين أبو سفيان صخر بن حرب أن ولوج هذا العرين مستحيل ، فهذه أمة حية باعت نفسها لله ، ثم إن عيينه بن حصن الفزارى شيخ غطفان لم يقدم ليخوض معركة طويلة المدى ، فهذا شيخ قبلى بدوى يريد أن يضرب ضربة يوم ويفوز هو وقومه بما تصل إليه أيديهم ثم يعودون إلى منازل قبيلتهم ، فأما وهذه الغاية لم تتحقق فهو يجمع رجاله ويكر راجعاً ، وكذلك تفعل القبائل الأخرى ، ويظل أبو سفيان وحده مع كفار قريش ولا يجدون مندوحة عن الانصراف بأقل من خفى حنين ، وقبل انصرافه عائداً إلى مكة والغيظ يملأ قلبه كتب إلى رسول الله « باسمك اللهم فإنى أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك فى جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ، تبقر النساء » وبعث بالكتاب مع أسامة الجشمى ، فاستدعى رسول الله ﷺ ، أبى بن كعب وأملاه « من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب . أما بعد فقديماً غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم وأنك تريد أن تستأصلنا ، فهذا أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمك الذى صنعنا من الخندق فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنا بالراح ، وليأتين يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، حتى أذكرك ذلك » (مغازى الواقدى ٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤) .

فهذه أمة صاحية القلب يقظة الضمير ، أفرادها يقاتلون بقلب واحد وإرادة واحدة ، وخلال أيام الخندق هذه ما بين خمسة عشرة وعشرين يوماً ، لم يطمئن لفرد واحد من أفراد الجماعة جنب ، فهم كلهم يقاتلون أو يقومون بما يخدم إخوانهم فى ساعة المحنة ، والقلوب اليقظة تفتح مغاليق الذهن ، فكل فرد

من أفراد هذه الأمة يبتكر وينفذ ، ورسول الله ضمير هذه الأمة الصاحى وقلبها اليقظ يقوم وسطها ويرعاها ويوجهها ، وعندما نجح الأعداء فى اجتذاب بنى قريظة إلى جانبهم ، وأعلنوا الحرب على المسلمين أسرع رسول الله فأرسل محمداً ابن مسلمة فى قوة حراسة يقف عند رأس الطريق من منازل بنى قريظة إلى وسط المدينة ، فما استطاعوا حراكاً حتى انهزم الأعداء وانصرفوا ، وهنا تقدم الرسول بعد ساعات قلائل بمن معه من المسلمين للنظر فى أمر أولئك القرظيين الذين كسروا العهد وخانوا الأمة التى هم حلفاؤها ، وكان ما كان من عقابهم على ما صنعوا .

ذلك أن مدار العمل كله فى أمة الإسلام هو القلب أو الضمير ، وليس المراد بذلك ضمير كل مسلم على حدة ، بل المقصود قلب الأمة كلها وضميرها جميعاً ، فإن قوة أمة الإسلام لا تتجلى إلا إذا كان المسلمون جميعاً قلباً واحداً وضميراً واحداً ، فلا خيانة ولا غدر ولا أنانية ، لأن هذه الأمة هى أمة التوحيد وأمة الوحدة ، والقلب اليقظ الصاحى هو قوة المسلمين ، ولا يصح أمرهم أبداً إلا إذا كانوا جميعاً قلباً واحداً ، ففكرة الخندق كما رأينا فكرة بسيطة ، وكل ما فعله الخندق هو أنه حال بين الكفار واقتحام المدينة ، وكان الكفار قادرين أن يقتحموا الخندق . ولكن القوة الحقيقية كانت فى تلك الأمة الإسلامية الصاحية وراء الخندق ، فخلال أيام الخندق ليس لدينا خبر عن مسلم واحد فكر فى نفسه أو اتجه إلى ما فيه خيره وحده ، وإنما كانت الأمة كلها ضميراً واحداً وقلباً واحداً فاستحقت نصر الله ، وأمر أمة الإسلام كلها لا يصلح إلا إذا تصرف كل مسلم على أنه عضو فى أمة واحدة ، وهذا شىء لا يكون إلا إذا كان قلب كل مؤمن واعياً له مدركاً إياه .

وكل شىء فى الإسلام رهين بما تقول القلوب ، فالإيمان إيمان القلوب لا إيمان الشفاه ، والأعمال فى الإسلام قائمة على النيات ، فالنية هى ما ينعقد

عليه القلب ، فأنت تنوى الصلاة والصيام والحج ، والحساب يكون على النيات قبل الأفعال ، لأن الإسلام دين قلوب ، وأمته أمة قلوب ، وهذا هو السر الذى يغيب عن الكثيرين فيحسبون أنفسهم مؤمنين صادقين دون أن يذكروا أن الإسلام الحق هو يقظة الضمير ، هو أن تكون واعياً إلى أن نجاح أمة الإسلام وعدم نجاحها متوقف على تقوى القلوب ، وعلى يقظة الضمير ، فإن أمة الإسلام واحدة ، ولا يوفق مسلم وحده أبداً ، فلابد أن تكون قلوبنا نحن المسلمين واحدة مجتمعة على الخير ، فإذا كنا كذلك نجحنا كما نجحنا فى بدر والخندق ، وفى كل ما فعلناه أيام الرسول الأكرم وخلفائه الأولين ، وما أيسر النجاح للمؤمن الذى يريده ، فما عليه إلا أن يذكر دائماً أنه جندى فى جيش الإسلام الذى يخوض معركة الخير مسلحاً بخلاص النية وسلامة القلوب ، وما أتى الإسلام والمسلمون إلا من ناحية التفرق ونسيان وحدة القلوب ، ويقظة الضمير ، ولقد قال الحارث بن أسد المحاسبى « إن ميزان المؤمن قلبه » وهو يريد ضميره .

ودعا إلى وحدة القلوب ، لأن الله عندما أرسل محمداً برسالة الحق أراد أن يسير البشر فى طريق الخير ، والقرآن كلام الله فى أيدينا وصدورنا ، وهو ضميرنا ومرشدنا إلى كل خير ، ففى القرآن مفاتيح العلم كله ، والعلم مفتاح كل عمل صالح ، فلو أن كل مسلم على حده أدرك هذه الحقيقة وتصرف على مقتضاها لوجدنا أنفسنا أعلم الناس وأصلح الناس عملاً وأنجح الناس وأغنى الناس ، هذا إلى رضا الله عنا وما ادخره لنا من جميل الثواب ، وأنت عندما تقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله فأنت تدخل بهذا فى جماعة الخير والإيمان ، وعليك بعد ذلك أن تحافظ على يقظة ضميرك وتتصرف على أنك واحد من أمة واحدة هى أمة الخير ، فلن يصح لك عمل إلا إذا صدرت فيه عن قلب سليم ، أى نية حسنة خالصة لوجه الله وصالح المؤمنين ، ولقد كان قتيبة بن مسلم يقول لرجاله قبل

كل معركة يـا أمة محمد . . أمامكم أمـة كافرة لا تجد طريقهـا إلى الله فافتحوا لها الطريق بـالسيوف ، وأيما واحد من هـؤلاء ينطق بالشهادة فهـو منكم وأخوكم ، فارفعوا السيف عنه ، قولوا لا إله إلا الله فينصركم الله على اسم الله ، ثم يكر على أعداء الله فيجعلهم بدداً ، وفى طريقـه إلى سمر قند مر بقرية فـوجد أهلها جميعاً ينتظرونـه خارجها ، وقـال له رئيسهم : هل أنتم رجال قتيبـة ؟ قال : نعم نحن قوم قتيبة . وأنا قتيبة . قال الـرجل : فنحن معك ونريد أن نقاتل معك ، فقال قتيبة ومنـذ متى أنتم مسلمون ؟ قال : من سـاعة سمعنا بعبـورك النهر وأنك فى الطريق إلينا ، قال قتيبة فاغتسـلوا فى هذا النهر وصلوا معنا ، ففعلوا وسار منهم أكثر من خمسة آلاف فى جيش قتيبة ، فكانوا خير المجاهدين فى سبيل الله .

ما أكثر ما نسأل أنفسنا عن السبب فى كثرة مـا أصابنا منذ قرون ، فهذا هو السبب : نوم القلوب ، فنحن ننـسى دائماً أن الإسلام قلب وضمير ، وأن ضمير أمة الإسـلام كلها واحد . أو ينبغى أن يكـون واحداً ، فإذا كـان واحداً تفتحت السبل أمام أمة الإسـلام ، ونحن عندما نقول تقوى القلوب فـالمراد بذلك خشية القلـوب لله سبحـانه عـن حب وخوف معـاً ، فإن الحب الصـادق لا يخلـو من الخوف أبداً ، فنحن نتقى الله لأننا نحبه ولا نريـد أن نفقد هذا الحب ، وقد كان عقبة بن نـافع يغتسل ويصلى ركعتين لله قبل كل معـركة ، وكان يقـول : اللهم إننى أحبك وأخشاك . فارزقنى المزيد من حبك حتى لا يغلبنى خوفى منك ، ثم يخوض المعـركة ويكسب النصر فيعـود ويصلى ركعتين ويقـول : اللهم زدنى من حبك وتقـواك . فكـان أعـداؤه الذيـن انتصر عليهم يقبلون نحـوه ويـدخلـون الإسلام ، وينضم الكثيرون منهم إلى جيشه ، وقد رزقه الله لهذا من النصر مارزقه القليلون .

لنذكر دائما أن الإسلام دين قلوب ، وأن قلوبنـا إذا كانت صاحية فلاخوف علينا ولا نحن نحـزن إن شاء الله ، إن طريق السلامـة الوحيد لأمة الإسـلام هو

طريق القلوب السليمة والضمائر الحية اليقظة التى تشعر دائماً أنها أعضاء فى أمة واحدة ، أمة تحب الله وتخشاه وتتقيه وتلتف حوله وتعتصم بحبله لتصل إلى النجاة ، وتكون من أولئك الذين عناهم الله سبحانه بقوله :

﴿ وَسِيقَ الذِين اتَّقُوا ربهم إلى الجنة زُمراً . حتى إذا جاءُوها وفُتِحت أبوابُها وقال لهُم خـزنتُها سلامٌ عليكمْ طِبتم فـادخلوها خالِديـنَ وقالُوا الحمد لله الذِى صَدَقنا وعـدَه وأورثنا الأرض نَتبَوا من الجَنَّة حيثُ نشاءُ فنِعم أجرُ العـامِلِين . وترَى الملائِكة حـافين من حول العـرشِ يسبحُون بِحمد ربهِم وقُضِى بينهم بِالحق وقيل الحمد لله ربِ العالمين ﴾ .

[الزمر ٣٩/ ٧٣ ـ ٧٥] .

أرأيت كيـف جعـل الله للمـؤمنين الصـادقين الأرض والجنـة جميعاً ؟ **﴿ وأورثنا الأرضَ نتبَـوَّأ من الجنةِ حيـثُ نَشاءَ ﴾** أجل فهذا جزاء المؤمن صادق القلب حىّ الضمير . .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الرَّعد : الآية ٤]

انتهينا فى مقالنا الماضى من الكلام على فرائض الإسلام : فرائض العبادات وفرائض الواجبات التى لابد منها لبقاء أمة الإسلام بين أمم الصدارة والقيادة على هذه الأرض ، لأن الإسلام قو وعزة وفتح ونور وريادة وقيادة .

واليوم نتكلم عن واحدة من خاصتين يتميز بهما الإسلام . هما العلم ، ثم العمل ، وسنتحدث عنه فى فصلنا التالى إن شاء الله .

والآيات التى جعلناها بداية لكلامنا عن الإسلام والعلم أتيت بها من سورة الرعد ، وأنت إذا قرأت السورة ملياً وجدت أنك تستطيع أن تسميها سورة العلم

أو سورة العلوم على اعتبار أننا اصطلحنا فى يومنا هذا على أن لفظ العلوم بالجمع يراد به علوم المعاش من فيزياء وكيمياء وزراعة وطب وصيدلة وكل ما ينفع الناس فى دنياهم ، ومن الواضح أن صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح أخراه كما رأينا عندما تكلمنا عن قوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعدهُ وَأَورثَنَا الأَرضَ نَتبَوأُ مِن الجَنةِ حَيثُ نَشَاءُ فَنِعمَ أَجرُ العَامِلِينَ ﴾ فهنا يرتبط الوجود الأرضى بالوجود الفردوسى ويتلازمان ويصبحان شيئاً واحداً ، وعبارة (فنعم أجر العاملين) فى آخر الآية تدل على أن الذين أورثهم الله الأرض عملوا فيها أحسن العمل فتبوءوا بعد ذلك من الجنة حيث يشاءون .

وفى الناس من يقولون إن المراد بالعمل هنا هو العبادات ، وهذا معقول ومقبول ، ولكن الله سبحانه خفف أمر العبادات المفروضة فى الإسلام ، فجعلها لا تستغرق من وقت الإنسان إلا أقله ، وإذا أنت أخذت الصلاة مثالاً وجدت أن كل صلوات اليوم المفروضة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة فى مجموعها فماذا تفعل ببقية ساعات النهار والليل ؟

الذى تفعله هو النظر فى الكون على نور القرآن ، فتجد أن الله سبحانه قد وضع لك فى هذا القرآن ما هو كفيل بأن يحرك ذهنك إلى العمل ، ويفتح أمامك أبواب النشاط ، ويدفعك إلى التفكير للكشف والوصول إلى ما تتضمنه الأرض من منابع الخير ومصادر القوة ، والآيات التى ذكرناها إنما أنزلها الله سبحانه لكى يحرك بها أذهاننا فى طريق العلوم وأسرارها حتى تتفتح أمامنا أبواب الكشوف ، وكلما وصلنا إلى كشف انفتحت به أمامنا سبل العمل والرزق ، وإلا فلماذا يلفت الحق سبحانه أنظارنا إلى هذه الظاهرة الفريدة ، ظاهرة وجود قطع من الأرض متشابهة وغير متشابهة تنبت صنوفا من الثمر مختلفاً أنواعه كالأعناب وصنوف الزروع والنخيل . وقد تتجاور شجرتان : تين وزيتون ، والتين حلو ، والزيتون

مر ، وهما يخرجان من أرض واحدة بأمر الله ، ونحـن فى هذه الحالة مطالبون بأن نفتح الأرض ونقلبها وندرس النوى والحب لكى نصل إلى ما يأذن الله لنا فى علمه من الحقائق التى تعيننا على تجويد الزرع والإكثار من الثمر وحمايته وحماية الأرض وهنا علوم كثيرة : فيـزياء وكيمياء وأحياء ، ومن العلـوم تتفرع علوم ، وكل علم يأتينا بخير كثير ، وبـالخير الكثير تنمو ثـرواتنا وتقوى وتعـز بلادنـا ، وكل هذا يأتينا من العلم ، ولهذا فإن الله سبحانـه يختم الآية بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أى يستخدمون عقولهم ، واستخدام العقل هو أساس القوة فى هذه الأرض ، وخلال القرن الخامس عشر الميلادى وما تلاه ، تعلم أهل الغرب كيف يستخـدمون العقل للـوصول إلى أسرار القـوة ، وأنت عندمـا تقرأ مـا كتبه إبرازمـوس وجاليليو جـاليلى وميكلانجلو وفـرانسيس بيكون وجون لـوك وديفيد هيـوم وآدم سميث وجـون ستيورات ميل تشعـر أنك أمـام رجـال تنبهوا إلى قـوة العقل وقدرته على الكشف ، وهذا هو الحال مع الموسوعيين الفرنسيين من أمثال ديدرو ودالامبير الذين قاما على تحرير الموسوعة الفرنسية فيما بين سنتى ١٧٧٥ و ١٧٨٢ م ، وتلك الموسوعـة الفرنسيـة حافلة بكل مـا كان يعتبر فى ذلك الـزمان جـديداً ، ولكنهـا اليـوم أثر تـاريخى ، أمـا أهميتها الكبرى فهى أنها كـانت من الميـادين الكبرى التـى تعلمت أوروبـا فيهـا كيف تفكـر أو كيف « تعقل » إذا استعملنا مصطلح القـرآن ، وهذا العقل قاد أوروبـا إلى ما أذهل عـالماً مثل عبد الرحمن الجبرتى المصرى الذى بهرته مكتشفات الفرنسيين ومخترعاتهم التى عرضـوها عليه وعلى غيره من علماء مصر فى عصره ، فقـال : وهذه أمور لا تفهمهـا عقول أمثالنا ، مع أنها كلها كانت مخترعات بسيطـة ناتجة عن تجارب بدائية فى الفيزياء والكيمياء والميكـانيكا ، ولـو أننا قـرأنا القرآن قـراءة تدبـر وذكرنـا أنه خير دليل للمسلم للسعادة فى الدنيا والآخرة ، لـو أننا فعلنا ذلك لما سبقنا من الأمم سابق فى ميادين العلوم والمعارف .

وفى سورة الرعد هذه من الاستحثاث على التفكير والتجريب فى ميادين العلوم ما كان كفيلاً بأن يجعلنا رواد العلوم فى تاريخ البشر ، واقرأ قول الحق سبحانه فى هذه السورة : ﴿ **وهو الذى مَدَّ الأرضَ وجعل فِيها رواسِيَ وأنهَاراً ومِن كلِ الثَمراتِ جَعل فِيها زوجينِ اثنينِ . يُغشى الليلَ النهارَ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَتفكرون** ﴾ [الرعد ١٣/ ٣] .

ثم تلا ذلك الآيات التى ذكرناها آنفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه ، إن هذه آيات لقوم يتفكرون ، وهناك يقول إنها آيات لقوم يعقلون ، والفكر هو وظيفة العقل ، ويعنى ذلك أننا عندما نقرأ أمثال هذه الآيات فإن علينا أن نتعقل ونفكر لكى نتنبه إلى ما فيها من إشارات إلى أسرار الكون ، لأن الله أعطانا العقل لنفكر به ، والفكر ميزة الإنسان الكبرى وسلاحه الذى يمكن له من حل مشاكله ومواجهة معضلات الحياة .

فأنت مثلاً إذا قرأت هذه الآيات وسألت نفسك : ما الذى يجعل شجرة التين تخرج ثمراً حلواً ، فى حين جارتها شجرة الزيتون تخرج ثمراً مرًّا، مع أن الأرض واحدة والماء واحد ؟ فهنا يجيب ذهنك : إنها البذرة أو الشتلة ، فلننظر فى أمر البذرة ومم تتكون . هنا يبدأ التحليل والبحث ، وهذا هو ما فعله واحد من أكابر النباتين فى تاريخنا العلمى وهو ابن العوام الأشبيلى . فقد كان هذا الرجل عالماً نباتياً بارعاً ، أفنى عمره كله يفحص الأرض والتربة ويحللها على قدر ماامكنته الظروف التى كان يعيش فيها فى أشبيلية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى . وعندما تقرأ كتاب النبات من تأليفه تحس بالاحترام لهذا العقل العلمى المرتب المنظم الذى دفع صاحبه إلى تحليل التربة ، فكان يأخذ بضعة من تراب الأرض ويضعها فى الماء ويحركها ليرى ماذا يذوب فى الماء منها ، ويقول : هذه تربة حلوة وتلك تربة مالحة . وهذه تصلح لزراعة كذا وتلك لكذا ، وفى كتابه من التوجيهات للزراع مالا يقل فى شىء عما تقرأ فى كتب

الزراعة اليوم .

قلت لك إن سورة الرعد يمكن أن تسمى سورة العلم أو العلوم لكثرة ما فيها من الآيات التى تحرك ذهن قارئها إلى التفكير فى الخلق وأسرار الله فيه ، وكلها أسرار لا تلبث أن تنكشف عن حقائق إذا نحن ملكناها زدنا قوة ، واقرأ قوله تعالى فى نفس السورة :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٣/ ١٧] .

فهنا نجد مثالاً من أسلوب القرآن فى فتح أذهاننا على أسرار القوة فى خلق الله ، هنا نرى السيل الرابى المتدفق الذى يحمل كل شىء فى طريقه ، فهو إذن قوة يمكن استخدامها فى توليد الطاقة بدليل ذكر الله بعد ذلك لما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ، فكأن الله يقول لك : فكر فى العلاقة بين قوة الماء المتدفق وقوة النار ، وهذه الإشارة تكفى لكى تدفع الذهن إلى التفكير فى القوى المحركة للأشياء فى هذه الأرض ، وهنا أذكرك ببدايات الكشوف العلمية الكبرى كالكهرباء مثلاً ، فإن بنيامين فرانكلين الأمريكى كان من هواة تطيير طائرات الورق التى يطلقها الصبيان فى الهواء ويمسكون بها بخيط طويل ويجرون بها لكى تزداد فى الهواء ارتفاعاً ، ولكن فرانكلين كان يصنع طائرات ورقية كبيرة يمسكها بخيط من السلك الرفيع ، فكان إذا اكفهرت السماء وتلبد الجو أحس بتيار كهربائى خفيف فى أصابعه فعلم أنها كهرباء الجو التى تصل أحياناً إلى قوة الصواعق ، ألست ترى إلى إشارة الله التى ذكرناها إلى إنشاء الله سبحانه للسحاب وتسبيح الرعد بحمده . . ألست ترى فى هذا كله ما كان يمكن لعالم

مسلم من الاهتداء إلى سر الكهرباء والتفكير فى تطويعها لخدمة الإنسان ؟ وهذا هو الذى فعله بنيامين فرانكلين ، فقد انتقل بعد ذلك إلى إنشاء الكهرباء من عجلتين تدوران فى اتجاهين متعاكسين ، وتوصل بالفعل إلى الحصول على تيار كهربائى قصير المدى ، ثم جاء غيره من بعده فبدأ من حيث انتهى ، واتصل البحث والكشف بعد ذلك حتى وصلنا إلى ما ترى من الدور العظيم الذى تقوم به الكهرباء فى حياتنا اليوم .

ذلك أن الله سبحانه أعطى الإنسان العقل لكى يستخدمه فى حل مشاكله فى حياته على الأرض ، والعقل قوة كبرى ذات طاقات مختلفة ، فالعقل يحفظ وأنت عندما توجه قوة عقلك إلى الحفظ والاستظهار فأنت تقلل من قدرته على الحركة والاستنتاج والاستكشاف ، لأن العقل يتحول عند ذلك إلى عضلات ضخمة كما يحدث لجسد الذى يدرب جسده على رفع الأثقال ، ومن هنا فإن العقل الحافظ غير قادر على الحركة السريعة النشيطة التى هى ميزة العقل المفكر والمبتكر ، وتدريب الذهن على الحركة السريعة المبتكرة هو خير استخدامات الفكر ، وهذا هو الذى ينبغى أن تفعله المدرسة ، ولهذا فإننا نقع فى خطأ جسيم عندما ندفع أولادنا إلى استظهار الكتب والمذكرات ليجتازوا الامتحانات وهم يجتازونها فعلاً ولكن أذهانهم تثقل وتجمد وتصبح عاجزة عن الابتكار .

ومذهب القرآن الكريم فى حث الذهن على التفكير والتفطن يأخذ طريق الحركة السريعة ، فهو كما رأيت فى آيات سورة الرعد يدعونا إلى العقل أى إلى استخدام العقل والتفكير فى شئون الكون لنصل إلى أسرار القوة فى خلق الله ، وله فى ذلك طرائق جميلة ، إذا نحن تنبهنا إليها زدنا إيماناً بهذا القرآن العظيم ، وتأمل قوله تعالى فى سورة فاطر :

﴿ أَلَم تَرَ أَنَّ الله أنـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مـاء فأخرجنَـا بهِ ثمـراتٍ مختلِفاً

ألوانُها ومن الجبالِ جُدد بيضٌ وحُمرٌ مُختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سُودٌ . ومن النّاس والدّواب والأنعام مُختلف ألوانُه كذلِك إنما يَخشى الله مِن عِبادِه العُلماء إن الله عزيزٌ غفور ﴾ [فاطر ٣٥/ ٢٨ ـ ٢٩] .

فهنا فى هذه الآية ذكر للكثير من إبداعات الله فى خلقه ، هنا ذكر للمطر الذى يهبط على الأرض ويخرج الثمرات ذات الألوان المختلفة ، وهنا ذكر لألوان الجبال ما بين أبيض وأحمر داكن وأسود ، وهذه الألوان تتأتى من عروق المعادن وأكاسيدها ومركباتها ، وهنا ذكر لعظم خلق الله من أصناف البشر والدواب والأنعام ، وبعد ذلك نقرأ : **﴿ إنما يَخشى الله مِن عِبادِه العُلماء ﴾** وتسأل لماذا جاء ذكر العلماء هنا ؟ لقد سبق أن قلت أن لا شىء فى القرآن يأتى مصادفة أو دون تقدير دقيق ، لأن القرآن كلام الله ، وكل شىء فيه بحساب ، ومادام هذا هكذا فلابد أن الله أتى بذكر العلماء هنا وقرر أنهم هم الذين يخشون الله لكى ينبه أهل الفكر إلى تأمل خلق الله واستخراج الأسرار منه ، فإذا وقفوا عليها زادت خشيتهم لله لما يرون من بديع خلقه ، فهنا توجيه لأهل الفكر إلى النظر والبحث ليكونوا علماء ، والعلماء هم أعرف لناس بجلال خلق الله ، ولهذا فهم أشد الناس خشية له . وكان ينبغى أن تكون هذه الآية لافتة لأذهان أهل العلم للاتجاه نحو البحث فى الجبال مثلاً سعياً وراء استكشاف المعادن واستخراجها من الجبال وتخليصها من مركباتها ، والمعادن كما نعرف أساس الصناعات العظيمة ، والمسألة كانت تجىء شيئاً فشيئاً ، وكل صاحب علم يكتشف شيئاً ، ثم تجىء غيره ويضيف شيئاً ، وهكذا يعو صرح العلم وتتوافر للأمة أسباب القوة ، وفى تاريخنا العلمى كثيرون نظروا وبحثوا وكشفوا ، ولكن العلم تراكم ، وأبو الريحان البيرونى الذى وصل إلى نظريات علمية بعيدة يقف وحده فى تاريخنا الفكرى ، ولو أنه وجد من يأخذ ما وصل إليه ويدرسه ويجرى التجارب للتأكد منه ثم يزيد عليه ما استطاع لكان حالنا اليوم غير الحال ، لأن الذين وصلوا إلى أسرار العلوم

وقواها من أهل الغرب ووصلوا ببلادهم إلى الصدارة لا يتميزون عنا فى شىء ، بل نحن ملومـون لأن الله أعطانا هذا القـرآن العظيم وفيه مفاتيح القوة كلهـا ، وكنا حريين أن نصل بها إلى قيـادة الدنيا لو أننا قـدرناه حق قدره ، وعرفنـا كيف نفيد منه ونصل عن طريقه إلى قيادة أممنا فى معارج القوة والخير .

فالقرآن الكـريم إذن مفتاح العلوم لأنـه مفتاح العقول ، وعندمـا نقرأ قول الحق سبحانه فى سـورة يونس : ﴿ **قُل انظُروا مَـاذا فِي السَّمَوَاتِ والأرضِ وما تُغني الآياتُ والنُّذُر عن قومٍ لا يُؤمنونَ** ﴾ [يونس ١٠/ ١٠١] .

يتقـرر فى أذهـاننـا أن الإسـلام ديـن العلم ، فهنـا ربط واضـح بين الإيمان والعلم ، فإذا لم ينظـر الإنسـان فى السماوات والأرض ويتفكـر فى روائع خلق الله وما تضمه من حقائق علمية فلن تغنى عنه الآيات والنذر ، ولن يصل إلى الإيمان الصحيح قط ، لأنك إنما تـؤمن بـالله لما ترى من بـدائع صنعـه . ولن تصل إلى معرفـة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكـرت لتتفتح أمامك مغـاليق أسرار القوة فى ذلك الكـون الـذى تعيش فيـه ، حقاً إن القلب المؤمـن مؤمن ، ولكننـا فى أمـة الإسلام فى حـاجة إلى أهل العلـوم الذين يتـأملون ويفكرون ويستكشفـون لكى يصلوا بأمـة الإسلام إلى درجات القـوة والرفعة ، واقـرأ معى قوله تعـالى فى سورة الأعراف :

﴿ **أَوَ لَمْ ينظروا فِي ملكوت السَّمـوات والأرضِ وما خَلَق الله مِن شيءٍ وأَن عـسَى أن يكُـون قـدِ اقـتربَ أجلُهم فبِـأى حـديث بعدهُ يؤمنون** ﴾ [الأعراف ٧/ ١٨٥] .

أجل . فإن الإنسـان يكفيه أن يتأمل فى ملك السماوات والأرض ومـا خلق الله فيهما من عجـائب المخلوقـات لكى يـؤمن بـالقرآن ورب القـرآن ، فإذا آمن ودخل فى أمة الإيمان كان عليه بعد ذلك أن يمضـى مفكراً متدبراً فى بدائع خلق

الله لكى يزداد إيماناً ، وهو فى أثناء ذلك يكتشف ويضيف بعلمه إلى قوة عالم الإسلام ، فيعز أهل عالم الإسلام بالعلم ، وهذه العزة تجتذب الناس إلى دين الله لأن الناس يحبون القوة والعزة ، وكان رسول الله ﷺ يعلم ذلك ، وطوال حياته لم يدخل وسعاً فى تقوية أمة الإسلام ، واقرأ قول الحق سبحانه فى سورة الروم :

﴿ أَوَ لَمْ يتفكرُوا فى أنفُسهم ما خَلق الله السَّمَوات والأرضَ وما بينهُما إلا بالحقِ وأجلٍ مُسمى وإنَّ كثيراً من الناسِ بلِقاء ربِهِم لكافِرون ﴾ .

[الروم ٣٠/ ٨] .

وهنا يلفت الله أنظارنا إلى عجائب خلق أنفسنا ، لأننا نادراً ما نفكر فيها ، ولابد لنا من أن نفكر فيها ، ثم ننظر فى الكون لنرى أنه سبحانه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، أى بغاية الدقة ، ثم إن هذا الخلق كله مخلوق بأجل مسمى أى بحساب زمنى مقرر ، فلكل شىء أجله وميعاده ، وإذا لم يتفطن الإنسان إلى جلال ذلك كله لم يشعر بروعة لقاء الإنسان لربه يوم الحساب .

ولست أريد أن أقول بذلك إن القرآن الكريم كتاب علم أو علوم وحسب ، لأن القرآن أعظم من ذلك وأرحب مدى ، فهو كتاب كل شىء فى هذا الوجود ، ولكنى أريد أن أقول إن الاكتشاف والاختراع ، لأن كل أسرار القوة مودعة فيما حولنا من خلق الله ، وعلينا أن نسعى إلى الوصول إليها وتملك أسرارها لأن أمة الإسلام لن تكون جديرة بالإسلام إلا إذا كانت قوية عزيزة ، لا يغلبها من البشر غالب بفضل قوتها وتماسكها واستحواذها على أسرار القوة .

ولله سبحانه أساليب شتى فى تحريك الأذهان لا يتفطن إليها إلا من قرأ القرآن قراءة تفكير وتأمل عميق ، فإن البارىء سبحانه يأتى فى القرآن بآيات تشير كلها إلى عجائب الخلق وهى ساكنة لا تتحرك مثل قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا ينظُرون إِلى الإِبلِ كيف خُلقت وإِلى السماء كَيف رفعتْ . وإِلى الجِبالِ كَيف نُصبَتْ . وإِلى الأرضِ كيف سُطحَتْ . فَذكرِ إِنما أنت مُذكرٌ . لست عليهم بمُصَيْطر ﴾ [الغاشية ٨٨/ ١٧/ ٢٢] .

فهذه كلها معجزات كونية يدعونا الله سبحانه إلى أن نتأمل عجائبها وهى ساكنة ، نعم إنها كلها تتحرك ولكننا مدعوون هنا إلى أن نتأملها ونتفكر فى عجائبها وهى ساكنة أمام أبصارنا ، ويذكر الله هنا الجمل وهو عجيبة أى عجيبة فقد ارتبط الجمل بالعربى حتى إن أحد لا يشك فى أن جزيرة العرب هى موطن الجمال ، وما أبعد هذا عن الحقيقة ، فإن مهد الجمل كان فى جبال الأنديز فى أمريكا الجنوبية فى نواحى جمهورية بيرو ، هنا نجد إلى يومنا هذا توأمى الجمل وهما اللاما والألباكا ، واللاما على وجه الخصوص جمل بدون سنام ، وهى مع الالباكا تعيش على سفوح جبال الأنديز وفى الهضاب العالية منها ، وهناك عثر العلماء على أول ما عثروا عليه من آثار الجمال الأولى ، وكانت الجمال هناك صغيرة فى حجم اللاما (ينطق الناس اسمها هناك اللياما) والالباكا وهى حيوان يشبهها ولكن فروه غزير الشعر ، والجمل بطبعه حيوان نفور أى يميل بطبعه إلى الانفراد بنفسه ، وكان شديد الخوف إذ لا سلاح له ، فارتفع بنفسه فى أعالى جبال الأنديز ، ثم اتجه إلى الشمال فى رحلة طويلة قضى فيها ملايين السنين ، ولكن الباحثين عثروا على حفائره على طول طريقه ، فقد انتهى من أمريكا الجنوبية ودخل أمريكا الوسطى وقطعها حتى وصل إلى صحراء نيفادا فى الولايت المتحدة ، وكان ذلك قبل ملايين من السنين ، وهناك فى الصحراء تبحبح الجمل واطمأن ، فقد وجد البيئة الآمنة التى كان يطلبها : صحراء واسعة لا يعمرها من كواسر الحيوانات أو من الناس أحد ، فقضى ألوف السنين ظهر فيها خفه الغليظ الذى يمكنه من التوغل داخل رمال الصحراء ، وهناك أيضاً تطورت معدته ونشأ له شيئاً فشيئاً جهاز اختزان الماء ، والجمل لا يختزن الماء فى

معدتـه ماء ، بل هو يتحـول إذا شربه إلى مـادة هلامية تختـزن فى شرايينه فى كل جسده ، وهو إذا احتاج إلى الماء استخـرج منها ما هو بحاجة إليـه ، أما ما يقال من أن من يـريد أن يقطع أرضـا صحراويـة أخذ جمالاً وسقاهـا الماء حتى تمتلىء أجوافها ثم دخل بها الصحـراء ، فإذا احتاج إلى الماء ذبحها ليشرب الماء الذى فى بطونها فغير صحيح ، وخالـد بن الوليد لم يقطع بجيشه صحراء الشـام الواسعة بعرضهـا لأن قطعها كان يحتـاج إلى أسبوعين ، وإنما هو سـار من عين التمر إلى الشمال محاذيا نهر الفـرات حتى وصل إلى أضيق ساحة من ساحـات الصحـراء ، فقطعها ثم انحدر إلى الجنوب حتى وصل إلى بصرى .

ونعود إلى الجمل فنقول إنـه عاد يسير إلى الشمال حتى وصل ألاسكا ، ومن هناك عبر إلى آسيـا ـ سيبريـا ـ ثم أخـذ ينحدر إلى الجنوب حتـى وصل صحراء جوبى شمالى الصين ، وهناك فى عمق الصحراء استكمـل تكوينه وقضى مئات الألوف من السنين ، وكبر حجمه ، ونشأ منـه صنف ذو سنامين ، وهى الجمال التى يسـميها العـرب بـالبختيـة ، ونما حجمـه ، وهنـاك استأنسـه النـاس واستخدموه ، وهـاجرت جماعة من ذات السنام الـواحد إلى شمال الهند ، ثم إلى جنـوب العراق ، ووصلت إلى أبـواب جزيـرة العـرب ، وهناك استأنس النـاس الجمل ، ودخلوا به الصحراء أيام العرب العاربة ، وبالجمل استطلع الإنسان أن يسكن الصحراء ويعيش فيها ، لأن الجمل إذا وجد الماء شرب دفعـة واحـدة ما يقرب من مائة وخمسين لتراً من الماء ، وهـو لهذا يستطيع الصبر بدون ماء فوق السبعة عشر يوماً ، وهـو حيوان قوى صبور يستطيع أن يسير أيامـا طويلة وينام وهو سائر على حداء الحادى ، وكل ما فيه مفيـد : وبره صوف ناعم كالحرير ، ولحمه طرى ، ولبنه وفير . وهو أنيس حسن العشرة ، ثم إن حضارة البدو كلها تقوم عليه فهو يأكل أقسى حشائش الصحراء ويعطى لبناً وافراً يعتمد عليه البدو فى حيـاتهم ، أرأيـت إذن لماذا قـال الله : ﴿ **أفـلا ينظـرون إلى الإبـل كيف**

خلقت ﴾ ؟ ثم يلفت الحق سبحانه نظرنا إلى السماء وما تضمه من العجائب ، والسماء فى اللغة هى كل ما علاك وأظلك ، ولكنها فى خلق الله سماوات كثيرة ، وانظر إلى السماء فى سواد الليل وتعجب لهذه القبة العظيمة وما فيها من شموس ومجرات ومساحات سود يظن أنها مواضع شموس ماتت وانحلت وذهبت كواكبها وأقمارها وبقى مكانها خالياً ، وكل شمس من تلك التى تراها إنما هى مجموعة شمسية بكواكبها التى تدور على مثال مجموعتنا الشمسية هذه ، ومن يدرى فربما كان فى كل مجموعة شمسية أرض وفى كل أرض ناس مثلنا ، ومن يدرى فربما كان فى كل أرض إنسان مثلك .

ثم يلفت الله نظرنا إلى هذه الأرض التى سطحت وما هى فى الواقع مسطوحة ، ولكن هكذا تبدو لنا بجبالها وبحارها ووديانها وما يعيش فيها من إنسان وطائر ودابة وسمكة وحشرة ، والقرآن لا يلفت نظرنا إليها لنراها ، فها هى ذى ماثلة أمام أعيننا ، ولكنه يدعونا إلى التأمل فى عجائبها والنظر فى بديع صنعها والبحث عما يمكن أن يخرج لنا منها من الخيرات .

وفى سورة البقرة يرينا الله عجائب حركة الكون ، فى الآيات السابقة نرى روعتها وهى ساكنة ، وهنا نرى إبداع الكون المتحرك .

﴿ إِنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأرضِ واخِتلافِ الليلِ والنهارِ والفُلكِ التِى تجرِى فى البَحْرِ بِمَا ينفعُ الناسَ وَمَا أنزل الله من السَّمَاءِ من ماءٍ فأحيا بهِ الأرضَ بَعدَ موتِها وبَثَّ فيها من كُلِ دابةٍ وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحَابِ المسخرِ بَيْنَ السَّماء والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقلونَ ﴾ [البقرة ٢/ ١٦٤] .

فها هنا جانب أو جوانب من حركة هذا الكون الذى لا يسكن ، حركة يبعثها الله بأمره فهى متصلة منذ برأ الله الكون إلى أن يطوى الأرض وما عليها ، والحكمة الكبرى فى قوله تعالى : **﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾** . والمهم

هنا هو العقل والتفكير . منهما يخرج الإنسان بالمعلومات التى يديرها فى ذهنه ، ومن ذلك تتأتى المكتشفات والمخترعات ، لأن الإسلام دين العلم ، وأنت مهما تقرأ فى القرآن وتتدبر فيما تقرأ فأنت فى عالم علم وابتكار واختراع .

إن بعض أذكياء معاصرينا ينظرون فى القرآن ثم يقولون : هنا يذكر الله نظرية التطور ، هنا إشارة واضحة إلى كروية الأرض ، وهذا كله طيب ومشكور ولكنه كان يكون مشكوراً أكثر لو كنا نحن على هدى القرآن أصحاب هذه الكشوف لا مجرد متحدثين عنها .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وآيةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الميتةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا منْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكلون وَجَعَلنا فيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلِ وَأَعْنَاب وَفجَّرْنَا فِيهَا من العُيونِ ليأكلوا مِن ثَمَره وَمَاعَمِلَتهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشكرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[يس : الآيات ٣٣ ـ ٣٥]

فى حديثنا الماضى تكلمنا عن العلم والتزام المسلم المؤمن بطلبه ، لأن الإسلام دين عقل وفكر وعلم ، وهذه المرة نتحدث عن العمل بصفته العماد الأساسى لرخاء أمة الإسلام وتقدمها وقوتها ، والركن الأساسى لتكوين شخصية الإنسان .

وقد كنا نستمع إلى آيات الذكر الحكيم عندما قرأ القارىء قول الحق سبحانه فى سورة الأحزاب :

﴿ إنا عَرضنا الأمَانة على السَّمَوَاتِ والأرضِ والجِبالِ فأبين أن

يحملنَها وأشفقن مِنها وحَملها الإنسانُ إنهُ كانَ ظلوماً جهُولاً ﴾
[٣٣/ ٧٢] ، وسأل سائل ماهى الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبينها وأشفقن من حملها ؟ وقال قائل هى العبادات ! قلنا : ولكن السموات والأرض والجبال تسبح لله ، وهذه عبادتها ، فكيف يشفقن منها ؟ وقيلت آراء أخرى ، وانفض السامر وعدت إلى بيتى وصليت العصر ، ثم تناولت المصحف أقرأ فيه فقرات الآيات التى جعلتها فى رأس هذا الحديث ووجدت نفسى تقول لنفسى : إن الله يتحدث فى آيات سورة يس تلك عن عُمران الأرض بالعمل ، فقد خلق الله الأرض ساكنة ، ثم أنزل عليها المطر وجاء الإنسان فزرع الحب ، ليأكل من ثمره ، لأن الله يتحدث هنا عن جلائل صنعه التى يجريها على أيدى الناس بدليل قوله تعالى : ﴿ **وفَجَّرنا فيها من العُيونِ ليأكلوا من ثَمرِه وما عَملته أيديهمْ أفلاَ يشْكرونَ** ﴾ .

فإن الله سبحانه يفجر العيون وينزل الماء ، ولكننا نحن الذين نزرع لنأكل مما عملته أيدينا ، لأن العمل هو واجبنا وعمران الأرض هو أمانتنا ، ونحن الذين قبلناها ، والله سبحانه قد خلقنا لنعبده ، والعمل فى عمران الأرض عبادة والذين يعملون أسعد وأقوى من الذين لا يعملون ، والعمل عسير وصعب ، ولكننا قبلنا أمانته دون أن نفكر فى مصاعبه وعلينا الآن أن نعمل لأننا التزمنا به لعمران الأرض .

وما قيمة الحياة أو معناها بدون عمل وكسب ؟ وكيف يصل الإنسان إلى شىء إذا هو لم ينهض ويسع فى رزقه ورزق عياله ؟ إن العبادات واجبة وهذا حق ولكن الله حدد هذه العبادات وجعلها هينة لا تستغرق من وقت الإنسان إلا شيئاً قليلاً ، فما عساه يفعل بالبقية ؟ هذا بين يدى كتاب رسالة التوحيد فى مقدمات الشيخ أبى سعيد ، وهو أبو سعيد بن أبى الخير الميهنى وهو واحد من كبار صوفية إيران فى العصر السامانى فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى

وكان يرى نفسه ولياً صاحب كرامات ، لانه فيما يزعم وهب نفسه للعبادة والوعظ والتف حوله دراويش كسالى لا عمل لهم إلا الطعام والنوم وأداء العبادات وشيء من الذكر والاستماع إلى الشيخ أبي سعيد والسير في موكبه ، وفي أخبار هذه الجماعة من المتعطلين الذين لا يقومون بأي عمل نافع لأنفسهم أو للناس حتى العبادات يقومون بها لإرضاء الشيخ أبي سعيد ، في هذا ما يدل بالبرهان العملي على أن نفس الإنسان لا تصلح إلا بالعمل ، فهو الذي يشحذ الهمم ويجلو الذهن ويقوي الإحساس بالفضائل ويعلم المهارات ، وإليك هذه الحكاية التي اخترتها من حكايات ذلك الشيخ العاطل وجماعته من المتبطلين :

« روى أنه جاء وقت في ميهنة (القرية التي كان هذا الشيخ وأتباعه يعيشون فيها قرب نيسابور) لم يتناول فيه الصوفية لحماً لعدة أيام ، ولم يكن حسن (خادم الشيخ) يستطيع إحضاره ، لأن جميع القصابين كانوا يطالبونه بأثمان لحومهم ، وفي ذات يوم نهض الشيخ وسار الجميع في رفقته حتى خرج من البوابة المؤدية إلى طريق مرو ، وأصبح على هضبة بصحراء مرو ، وعندما كانت تعتري الشيخ حال من القبض (أي من الضيق) كان يذهب إلى ذلك المكان ، ولما اعتلى الهضبة وقف وتريث برهة وظهر غزال في الصحراء ، ثم تحكي القصة كيف تقدم هذا الغزال من الشيخ أبي سعيد ، وجعل يتمرغ في الأرض كأنه يرجو الشيخ أن يأمر بذبحه ليأكل الدراويش ، وفعل الشيخ . وتختم الحكاية بعبارة ، وتمتع الدراويش بلحم ذلك الغزال ، وهذه من أبسط حكايات هذه الجماعة المتعطلة التي زعمت أنها تعيش للعبادة فأصبحت جماعة من المتسولين يفرضون أنفسهم على الناس ، ويطالب لهم شيخهم « باللحم والفطير وعليه التفكر » لكي يظلوا حوله يسبحون بحمده ، وهو يتهادى وسطهم كأنه ملك زاعماً أن له عند الله كرامة ، وأن الله يكشف له الغيب ويرسل إليه وإلى أتباعه المال والثياب

وأطايب الحياة ، وهم يسيرون وراء شيخهم كسالى متبلدين ولا خير فيهم لأحد .

وكما أن الإسلام دين العلم ، فهو كذلك دين العمل ، لأن العمل الذى يتحصل للإنسان عن طريق الدراسة والبحث والتجريب ، يفتح لصاحب العلم طريق العمل النافع ، والعمل كسب وكرامة وعزة ، وقد كانت أوروبا فى مثل حالنا من قلة الموارد والحاجة حتى قامت النهضة الأوربية وتحرك نفر من الناس إلى التفكير والبحث والتجريب ، وتحركت همم ناس أمثال ميكيلانجلو إلى العمل بأيديهم وفتحوا للناس آفاقاً واسعة للعمل ، واجتهد رجال مثل لوفن هوك الهولندى فصنعوا العدسات ، ونحن كنا نعرف العدسات ونظرياتها واشتغل بأمرها الحسن بن الهيثم ، وألف فيها وفى البصريات كتباً ، وهو من أعاظم أهل العلوم فى التاريخ ، ولكن الحسن بن الهيثم كتب ورسم واجتهد فصنع عدسات ولكنه لم يصنع كما صنع ذلك الهولندى لوفن هوك أى أنه لم يحول العلم إلى عمل ، ومن هولندا انتقلت العدسات إلى إيطاليا ، واشتغل بأمرها ميكلانجلو وجاليلو وصنع جاليليو منظاره البعيد ونظر إلى الشمس والكواكب وجاء بعده كوبرنيق فصنع منظاراً ضخماً وتأمل الكواكب ، وجعل ينظر به فى السماء فتكشفت له الحقيقة الكبرى التى بدأت فى تاريخ الفلك والعلم كله عصراً جديداً : رأى أن مركز هذا الكون هو الشمس لا الأرض ، وأخذ هذا الكلام جاليليو وطار به وجعل يذيعه فى الناس وأمسكت به الكنيسة وحاكمته وأرغمته على أن يكذب نفسه ويرجع عن كل ما قال ، وفعل ذلك علناً أمام الناس حتى لا يحرقوه ، ولكن أبواب العلم كانت قد تفتحت ولا سبيل إلى إغلاقها ، ومع العلم سار العمل واكتشفت أوروبا قيمة العمل القائم على العلم وقامت المعاهد والمدارس والمصانع فى كل مكان ، وسار أهل العلم فى الطليعة ووصلوا فى النهاية إلى ما نراهم عليه اليوم ، وكل الفرق بيننا وبينهم فرق علم

وعمل ، إنهم يؤمنون بالعلم إيماناً تاماً ، وإيماننا به قليل ، إنهم يؤمنون بالعمل الجيد المتقن ، ونحن لم نصل بعد إلى هذا الإيمان ، والعلم والعمل وصلا بهم إلى القوة والصدارة والامتياز والحياة الأحسن ، ونحن نسير وراءهم ولا نسبة بين مانحن فيه وما هم فيه ، مع أن الإسلام يؤكد لنا أن العمل هو أساس الحياة الطيبة ، واقرأ قول الله سبحانه في سورة النحل : ﴿ **مَنْ عملَ صَالحاً مِن ذَكر أو أنثَى وهو مُؤمنٌ فلنُحيينَّه حياةً طيبةً ولنجْزِينّهُمْ أجْرَهم بأحْسَن ما كَانوا يعملونَ** ﴾ [النحل ١٦/ ٩٧] .

فهنا يفصل الله أمر العمل الصالح بأجلى بيان ، فهو عمل كسب المعاش بدليل قوله تعالى هنا ﴿ **فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ وهذا طبعاً من كسب عمل اليد في الدنيا وهو غير عمل العبادة ، بدليل قوله تعالى ﴿ **ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ فهذا جزاء أعمال التعبد ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله خفف عبدات الإسلام حتى أصبح الواحد منا يقوم بكل عبداته بفرائضها ونوافلها فلا ينفق في ذاك إلا أيسر الوقت ، ويتسع أمامه المجال بعد ذلك ليقوم بأعمال معاشه ويكسب رزقه على قدر ما يعمل فنحيا حياة طيبة رخية سعيدة ، ثم إن في القرآن من مفاتيح العلوم والأعمال ما يتعذر حصره إذا نحن قرأنا القرآن فعلاً قراءة تمعن وتفكير وتدبر ، وخذ مثالا لذلك قول الحق في سورة الحجر :

﴿ **ولَو فتَحنا عليهم باباً من السماءِ فظلُّوا فيهِ يعرُجُون . لقالُوا إنما سكِّرَتْ أبصارُنا بَل نحن قومٌ مسحورُونَ . ولقد جعلنا في السماءِ بُروجاً وَزَيَناها للناظِرينَ . وحفِظناها من كلِ شيطانٍ رجيمٍ** ﴾ .

[الحجر ١٥/ ١٤ ـ ١٧] .

ثم سألنا أنفسنا : لماذا يقول الله هنا يعرجون بدلا من يدخلون ؟ فإذا مضينا

نستقصى حقيقة ذلك نلاحظ أن القرآن يستعمل لفظ « عرج بعرج » وما يتصرف منه فى معظم مناسبات الصعود إلى السماء فنقرأ فى سورة المعارج : ﴿ **سَأل سائل بعذاب واقِع . لِلكافِرين ليسَ لهُ دافِعٌ . من الله ذِى المعارِج . تعرُجُ الملائِكةُ والرُوحُ إليهِ فى يومٍ كان مِقدارُهُ خمسِين ألفَ سنةٍ** ﴾ .

[٧٠/ ١ ـ ٤]

فالله سبحانه يصف نفسه هنا بأنه ذو المعارج . جمع معراج والملائكة تعرج إليه سبحانه . ويقول فى سورة سبأ : [٣٤/ ٢]

﴿ **يعلمُ ما يلِجُ فى الأرضِ وما يخرُجُ منها وما ينزِلُ من السماءِ وما يعرج فيها وهو الرحِيمُ الغفورُ** ﴾ [٣٤/ ٢] .

ويقول فى سورة الحديد :

﴿ **يعلمُ ما يلِجُ فى الأرضِ وما يخرُجُ مِنها وما ينزِلُ من السماءِ وما يعرُجُ فِيها وهو معكم أين ما كُنتُم والله بما تعملُون بصيرُ** ﴾ [٥٧/ ٤] .

فإذا رجعنا إلى القواميس نجد أن لسان العرب مثلا يقول فى مادة « عرج » : وعرج فى الدرجة والسلم يعرج عروجاً أى ارتقى ، وعرج فى الشىء وعليه يعرج ويعرج عروجاً أيضاً . . وفى التنزيل : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ أى تصعد ، عرج يعرج عروجاً وفيه : من الله ذى المعارض ، المصاعد والدرج ، قال قتادة : ذى المعارج ذى الفواضل والنعم . وقيل : معارج الملائكة مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها ، وقال الفراء : ذى المعارج من تحت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك . . والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى فيه الملائكة ، والمعراج شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . يقال : ليس شىء أحسن منه إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرج . . إلى آخره ، وهذا كله كلام طيب ، ولكنه لا يجيب عن سؤالنا : لماذا

يقال فى الصعود إلى السماء إنه عروج ؟ ثم إن العروج ليس مقصوراً على الأرواح والملائكة ، فرسول الله ﷺ عرج به إلى السماء ، وصعوده إلى السماء هو المعراج المعروف .

فإذا نحن فكرنا فى الأمر على ضوء ما وصل إليه أهل العلم فى زماننا فى صعودهم إلى السماء ، وجدنا أنهم يعرجون عندما يصعدون ، فإن المركبة الفضائية إذا انطلقت فى خط مستقيم لم تلبث أن تنعرج وتدور فى اتجاه دوران الأرض حول نفسها موسعة خط دورانها شيئاً فشيئاً حتى تخرج من الغلاف الهوائى ، ثم تمضى فى الفضاء فى طريقها إلى غايتها فى خط منعرج أيضاً ، والمراد منحنى ، وعندما وصلوا إلى القمر دارت المركبة حوله فى اتجاه دورانه حول نفسه حتى إذا صارت على الارتفاع المحسوب عن سطحه هبط المحلقون إلى سطح القمر هبوطاً منعرجاً كما تفعل الطائرة فى هبوطها على مدارج المطارات وصعودها منها ، واستمرت المركبة تدور حول القمر فى انتظارهم لتعود بهم إلى الأرض ، لأن الخط المستقيم لا وجود له فى الكون على المدى الطويل ، وهذه نظرية قررها أينشتاين من أوائل هذا القرن ، وإذن فكل شىء ينطلق من الأرض إلى السماء لابد أن يسير فى خط منحن حتى ينسجم مع حركة الكون ونظامه ، ولهذا فإن الملائكة تعرج إلى السماء ، وكذلك الأرواح ، والحق سبحانه ذو المعارج وهى الطرق منا إليه .

وهذا تفسير أرجو أن يكون مقبولاً ، وهو مأخوذ من عمل الآخرين ، وكان ينبغى علينا نحن ـ أهل القرآن والقبلة ـ أن نكون نحن مكتشفيه ، ولكن هذا لم يحدث ، لأننا لم نعمل مع أن ديننا دين عمل ، والقرآن لا يزال يحث على العمل ورسول الله ﷺ لم يكن يضيع لحظة من وقته دون عمل ، كان يتعبد ويصلى ويقرأ القرآن ويسبح ربه على نحو لم يصل إليه متعبد بعده ، وكان يجد بعد ذلك من الوقت ما مكن له من القيام بأداء رسالته كاملة ، فأنشأ أمة المدينة بالجهد البالغ

والعمل المتصل مع التفكير الدائم ورسم الخطط المحكمة مع الهدوء التام وكمال الخلق وسعة الصدر والصبر على الناس ومتاعب العمل الدقيق المحكم .

وهذه كلها سنن كان علينا اتباعها والسير على منولها إذا أردنا حقاً أن نصل بأمتنا إلى حيث كان ينبغى أن يصل بها الإسلام العظيم ، وهكذا فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، فوصلوا بالأمة إلى حيث نعرف .

ونحن عندما نقول إننا نعجب بأبى بكر أو عمر أو على رضوان الله عليهم ، فنحن فى الحقيقة نعجب بالجوانب التى أخذوها عن الرسول ، وساروا عليها ، وأبو بكر فى خطبته المشهورة التى بين فيها منهجه للأمة على مذهب الشورى قال : أما بعد فإنى وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبى ﷺ وعلمنا فعملنا . إنما أنا متبع ولست بمبتدع . وهو هنا يقول إنه متبع للقرآن وما سن النبى ، ومع ذلك فإن اتباعه كان ابتكاراً كله ، أقصد أنه كان ابتكاراً فى حدود القرآن وما سن الرسول ، لأن السنة ليست قيوداً ، وإنما هى طريق رسول الله ، أو طريقته فى مواجهة المشاكل على هدى ما جاء فى القرآن الكريم ، وكانت المشاكل التى واجهها الرسول وحلها أحسن الحل كثيرة جداً ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر ، فقد سارا فى طريق العمل المتصل لما فيه خير الأمة ، وكان رسول الله ﷺ صاحب شورى ، ينزل به الأمر فيعرضه على أصحابه ، ويتصرف دائما باتفاق معهم ، بهذا أمره سبحانه وعليه سار . وفى طريقه سار الشيخان ، وخلال عامين عالج أبو بكر أمر المرتدين ، ولم يكن معظمهم بمرتدين ، وإنما هو أبو بكر فسر التوقف عن إخراج الزكاة وإعطاء حق الله ورسوله انفصالا عن الأمة ، ورأى أن إعطاء هذا الحق رمز للانتهاء إلى الأمة ، فإذا ترك الناس أحراراً فى أدائه أو عدم أدائه ـ وكان هذا رأى عمر ـ لم يلبث عقد الأمة أن ينفرط ، فإذا انفرط عقد الأمة تفكك أمر الإسلام وضعف ، ومن هنا رأى أبو بكر أن الممتنع عن أداء هذا الحق فى مرتبة المرتد ، وعلى هذا التفسير استجاز حرب الممتنعين ،

وهذا كله ابتكار ، ولكنه ابتكار في نفس خط الرسول ﷺ ، وكذلك كان عمر يفسر ويبتكر على ضوء ما تعلم من القرآن ورسول الله . وكلاهما كان ـ على مثال رسول الله ﷺ رجل عمل لا يتوقف عن الجهد لصالح الأمة لحظة من نهار أو ليل ، وهذا هو طريق الإسلام : طريق عمل واجتهاد متصل في الخط الذى رسمه القرآن وسار فيه رسول الله ﷺ .

وعندما تقرأ قول الله سبحانه فى سورة النور :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور ٢٤/ ٥٥] .

نفهم المعنى الحقيقى لمصطلح الاستخلاف فى الأرض ، فإن الله عندما يستخلف قوماً فى الأرض ، لا يجعلهم بذلك ممثليه ولا حالين محله . بل يمكن لهم فى الأرض ويثبتهم فى الدين الذى ارتضى لهم ويجتهدون فى عمران الأرض ، وهذا بالضبط هو ما فعله رسول الله فى إنشاء أمة الإسلام وتعمير وطنها بالعمل الدائب والتمكين لدينها فى الأرض بالاجتهاد والاستعداد للتضحية فى كل حين ، وكان رسول الله يعرف ذلك ولا ينساه لحظة ، ولهذا فقد كان دائب العمل ، وأمة المدينة التى ولدت بمجرد وصول رسول الله ﷺ إلى يثرب واجتماعه بالمهاجرين والأنصار بدأت ضعيفة جدا ، ولكن رسول الله وَالَى العمل يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى اشتد أزرها وقام أمرها ، وكان ذلك بالعبادات طبعاً . وهى أولى الصالحات ، ثم كان باستصلاح الأرض وزرعها حتى تحصل المدينة على قوتها ، ومنذ اللحظة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن هذه الأمة لابد أن تأكل أكلاً كافياً ليشتد عود أفرادها ، وهى لا تستطيع أن تعتمد فى ذلك على غيرها ، فهى لن تلبث أن تدخل فى معركة الحياة والموت مع كل معاند ومكابر . ولم يكن أهل

المدينة كلهم قد دخلوا فى الإسلام بعد ، فكان هناك يهود ومترددون ومنافقون وناس كثيرون ينبغى أن يعطوا الوقت الكافى ليطلعوا على فضائل الإسلام وما يعود عليهم من الخير إذا هم دخلوا فيه ، ولكن العمل الأول الذى كان لابد من البدء فيه هو إيقاف تجارة مكة ، فإن مكة قوية بتجارتها ، وكبار أهلها قام جاههم على المال ، فهم لن يؤمنوا بالإسلام طواعية أبداً ، فلابد من الضغط على عنق الحياة المكية وهو طريق التجارة ، ولهذا بدأ الرسول بإرسال بعث إلى منازل قبيلة جهينة لإشعارهم بقيام أمة المدينة وضرورة الدخول فى الإسلام أو فى حلف المدينة على الأقل ، لأن التجارة المكية لابد أن تقف ، وطريق التجارة يمر فى أرض جهينة من ذى خشب إلى ينبع ، وكان قائد البعث عبد الله بن جحش وكان من أجلاء المهاجرين ، ورئيس جهينة معبد بن عمرو الجهنى يرى نفسه أمام قوة من المسلمين على أهبة القتال . وعبد الله بن جحش يطلب إليه أن يدخل فى حلف أمة المدينة ، ويتوقف عن حماية متاجر مكة ، وكان معبد رجلاً ذكياً فأدرك فى الحال أن عليه أن يطيع . فطلب إلى رسول الله أن يوثق موثقاً مع جهينة لتأمنه ويأمنها ، ورسول الله يستجيب ، وفى أثناء ذلك تحركت جماعة من كنانة كانت تنزل بأطراف أرض جهينة ، فأرسل إليها عبد الله بن جحش نذيره فرفضوا الاستجابة وطاردوا وفد المسلمين إلى أرض جهينة .

ويختلف أمر المسلمين على رئيسهم ، ويبلغ الأمر رسول الله ، فلا يرضيه هذا من المسلمين ، إذ لا يجوز أن يخرجوا من عنده متحدين ثم يقع الخلاف بينهم وبين عبد الله بن جحش أميرهم ، فهو واجب الطاعة ، ويعود البعث إلى المدينة وبعد قليل يفد معبد بن عمرو الجهنى إلى المدينة ، ويلقى الرسول فيكرمه ويكسوه ولكن معبد الجهنى لم يفهم الأمر على حقيقته فهو لا يزال على مودته مع القرشيين ، فيرسل الرسول ﷺ عمه حمزة فى بعثة إلى سيف البحر وهذه أول سرية يذكرها أصحاب السيرة ، أما سرية عبد الله بن جحش فقد تبين لنا أمرها من

المطالعة الدقيقة لدلائل النبوة للبيهقى ، وكتاب شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام للفاسى ، ويعود حمزة إلى المدينة وبعد قليل يرى رسول الله ﷺ أنه لابد له من أن يحسم أمر جهينة بنفسه ، فيخرج فى غزاته الأولى ووجهتها يواط فى اقليم الفرع ويلقى معبد بن عمرو الجهنى ويقول له : أتحب أن ننبذ إليك ؟ . ويدرك الرجل أن الأمر أخطر مما كان يظن ، فيقول لسنا بحاجة إلى حربك ، وهنا فقط يطمئن رسول الله إلى أن الرجل فهم ، وأنه منذ الآن لابد أن يقف إلى جانب المدينة ، ويدخل الجهنيون الإسلام أفواجاً .

وهذا كله وما تبعه من غزوات وسرايا قبل بدر تم خلال أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ إلى مكة ، وهو يدلك على مقدار الجهد الذى كان رسول الله يبذله للقيام بحق رسالته ، فإن الغايات لا تدرك إلا بالأعمال ، ورسول الله رجل نشيط لا يطمئن له جنب مادام أمامه عمل لابد أن يقوم به .

ففى أثناء هذه السرايا والمغازى التى كان يمهد بها للقاء الحاسم مع مكة كان يعمل دائباً فى إنشاء أمة المدينة وتثبيت دعائمها بالعمل المتصل ، فهو يؤاخى بين المهاجرين والأنصار، وهو يجتمع مع أصحابه ويشاورهم فى تنظيم أمر الأمة على أساس قانونى واضح ، فإنه استقر فى المدينة على أساس اتفاق بسيط عقد يوم العقبة الثانية ، وهذا الاتفاق هو بيعة العقبة الثانية ، وهى مجرد تعهد من جانب أهل المدينة باستضافة الرسول وحمايته من العدوان ، ولكن محمداً صلوات الله عليه غيّر الموقف تغييراً حاسماً خلال الشهور الأولى لهجرته إلى المدينة ، فهو لم يكن قط مهاجراً إلى المدينة ، بحثا عن مكان يأمن فيه على نفسه وجماعته ، ويمارسون فيه عباداتهم دون تعرض من جانب المكيين ، لقد هاجر لغاية أخرى أعظم من ذلك بكثير ، إنه يريد أن ينشىء أمة الإسلام ويشد عضدها ويقوى بنانها لتقوم بالعمل العظيم ، ومن ثم فهو يريد أن يستبدل ببيعة

العقبة الثانية اتفاقاً أكبر وأشمل لتقوم عليه الأمة الإسلامية ، وهذا الاتفاق لا يمكن فرضه ، بل لابد أن يكون بتفاهم ورضا من الأمة ، ومن هنا تبدأ المفاوضات التى تنتهى بالصحيفة التى أملى رسول الله جزءها الأول على على بن أبى طالب كاتب الوحى إذ ذاك ، وبعد قليل ومع نمو الأمة يكتب الجزء الثانى بعد بدر ، والثالث بعد أحد ، ثم تستكمل المواد بحسب الظروف بعد ذلك .

وفى أثناء ذلك يجرى العمل على قدم وساق داخل المدينة ، فيقوم مسجد رسول الله ﷺ وتنشأ المنشآت ، وكل هذه هى الأعمال الصالحات التى تذكرها الآيات الكريمة ، وبها تستحق أمة الإسلام الاستخلاف ، لأن الاستخلاف فى الأرض معناه تأييد الله سبحانه للأمة الصالحة التى تقوم بأمانة الإيمان السليم ، وتقوم بأمانة تعمير الأرض ، فالله سبحانه خلق الأرض لعباده الصالحين لتعميرها ، وهو سبحانه قد منح الإنسان العقل ليستخدمه فى الطاعة لرسله واتباع طريقه والدخول فى دينه عن قلب واع مدرك ، ثم تقوية هذه الأمة بالعمل الصالح لتعمير الأرض حتى تكون بلاد أمة الإسلام أجمل وأرقى أمم الأرض ، فيكون هذا الجمال وذلك العمران أنصع دليل على فضائل الإسلام .

وكانت هذه المعانى كلها فى ذهنى ، ولكنى قرأت خلال العام المنقضى قراءات طويلة عن الاستعمار وماذا فعله المستعمرون ببلاد الإسلام ، والكثير من الكتب التى قرأتها كتب مصورة ، وتصاويرها رسمها رسامون زاروا بلادنا أثناء عصر التوغل الاستعمارى ، بعضهم كانوا مصاحبين للجيوش الأوربية المعتدية ، وهؤلاء المصورون رسموا ما رأوا من مناظرنا ومناظر بلادنا ، وأصارحك القول بأننى شعرت بالخجل وأنا أنظر إليها ، فإن مناظرنا قبل عصر الاستعمار كانت مزرية جداً ، وفقر بلادنا كان شديداً ، ومدينة الاسكندرية التى كان ينبغى أن

تكون أعمر وأجمل وأغنى من لندن ، كانت قد تدهورت حتى أصبحت قرية لا يسكنها إلا خمسة آلاف إنسان ، وكل ذلك نتيجة للكسل والقعود عن العمل وظلم الحكام ، وكل هذه أمور ليست من الإسلام فى شىء ، فإن العبادات فى رأس الصالحات ولكنها ليست كل الصالحات ، فالدراسة والتعليم والبحث والابتكار والعمل لما فيه خير الإنسان وجماعته صالحات ، ولقد فهمت وأنا أتأمل هذه الصور لماذا جرءوا علينا واقتحموا بلادنا وهزمونا بأيسر مئونة ، والمماليك الذين صور لهم غزوهم وجهلهم أن لا قوة فى الأرض تقف أمامهم تبددوا فى معركة لم تستغرق أكثر من ساعة ، والأهرام تنظر إليهم وتتحسر على أحوالهم ، وعندما دخل الفرنسيون القاهرة ونزل رئيسهم نابليون بونابرت فى دار واحد من كبار المماليك دهش من الفقر الذى رآه ، فهو يأتى من بلاد فيها قصور ملكية تروع النفس بهجة وجمالاً وغنى ، فإذا بقصر هذا الرئيس المملوك الكبير أقل بكثير من دار ضابط فرنسى صغير فى باريس .

وذلك كله أتى من الكسل والقعود عن العمل ، وحسباننا أن الأعمال الصالحات هى العبادات وحسب ، وفاتنا أن نعرف أن الصالحات يدخل فيها عمران الأرض ، وما كان ربك سبحانه ليستخلفنا فى الأرض وقد تكاسلنا ونمنا ورضينا بالفقر والذل ، ومن يطلب الاستخلاف فى الأرض فليكن على مستواه ، والحياة فى الأرض جهد وعمل واجتهاد ، والقيام بالعبادات أداء لحق الله على الإنسان ، ولكن الله سبحانه يريد لأمته أن تكون أمة علم وعمل واجتهاد وبناء وعمارة وزراعة وصناعة وقوة فى العقل والجسد ، وكل ما نعمله فى سبيل ذلك يدخل فى صوالح الأعمال ، وكل أزماتنا ومتاعبنا علاجها العمل ، العمل الطيب المتقن القائم على علم ودرس وتجربة ، والله سبحانه يحب العمل الجيد ، وهو سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، وصدق الحق سبحانه فى قوله : ﴿ **ذلِك أن لم**

يكُن ربك مُهْلك القُرى بُظلم وأهلُها غافلـونَ . ولكُل درجاتٌ مِما عملُوا وما ربك بغـافِـلٍ عما يَعْمَلـون . وربك الغَنِى ذو الـرَّحمةِ إن يَشـأ يُـذهِبكُمْ ويَستخلفْ من بعدكُم ما يشاء . كَما أَنشأكُم مِن ذرية قومٍ آخرين . إن ما تُوعـدون لآتٍ وما أنتم بِمُعجـزين . قُل يَا قـومِ اعملوُا علَى مكـانتكُم إنِي عامِل فسَوف تعلمون من تكُون له عاقبةُ الدارِ إِنهُ لا يُفلِحُ الظالِمُونَ ﴾ .

[الأنعام ٦ / ١٣١ ـ ١٣٥] .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

« صدق الله العظيم »

[النحل : الآية ٧٦]

جرينا على أن نقول إن الإسلام قاعدة حضارة ، وإن حضارة الإسلام هى التى قامت على أساس من الإسلام .

ولكننا فى هذه الدراسة نقول : إن الإسلام نفسه حضارة ، عقيدته حضارة وشريعته حضارة ، والشريعة تتضمن العبادات ، وقد رأينا الجوانب الحضارية من كل منها ، وتتضمن المعاملات ، وهى القانون الإسلامى الذى يتضمنه القرآن كلام الله وسنة نبيه ، وهى التطبيق والتفصيل ومكارم أخلاقه أو المروءة الإسلامية ، وكل هذه حضارة ، وأنت عندما تقول لا إله إلا الله . . محمد رسول الله ، فأنت بهاتين الشهادتين تدخل عالم حضارة الإسلام الرحيبة

هنا أنت فى جماعة العلم والعمل والإيمان والتعاون على الخير ، أنت فى أمة

أمان الله وضمانه ، وهو جل وعلا يشملك بهديه وحنانه ، ويسير بك فى الطريق القويم وصراطه المستقيم ، وهو طريق إيمان وعمل وفكر ، يصل بك إذا أنت سرت فيه عن فهم ويقين إلى أحسن مما ترجو وأرفع مما يبهرك من المكتشفات والمخترعات ، لأن الذين وصلوا إليها لم يتسلحوا بأكثر من قوة الفكر وعزيمة العمل ، والعلم أساساً هو التفكير السليم الحر الذى يتدرج بصاحبه فى مدارج الكشف عن حقائق الكون خطوة خطوة ، وهذا الكلام قاله رجل من أعلام حضارة الدنيا هو الشيخ الرئيس أبو على بن سينا صاحب الفكر الصافى ، وقد كان ابن سينا معجباً بأفلاطون وطريقته القصصية الجميلة فى سياقه كلام سقراط فى دفاعه عن نفسه عندما اتهمه الأثينيون بإفساد أفكار الشباب وقدموه للمحاكمة ، وكان يعجبه فى كلام سقراط إيمانه بخلود الروح ، وهو كلام ساقه أفلاطون فى محاورة « الفايدون » المشهورة ، فنظر فيها ابن سينا وقال : كل هذا عندنا فى القرآن الكريم ، وسبحانه من جمع لنا الخير كله والحق كله والجمال كله فى آياته البينات ، وما أكثر ما يغيب عن المسلمين من فضائل دينهم العظيم .

ومن أكبر أسباب غيبة الذهن هذه هو النقل والاكتفاء بما قال السابقون ، مع أن القرآن مرسل لنا جميعاً ، وكل منا مطالب بأن يقرأه قراءة تفكير وتدبر ، لينجلى له من أسرار الكتاب العظيم ما غاب عن الآخرين ، ومثال ذلك أننا جميعاً نقول : إن معنى العدل هو أنه ضد الظلم ، مع أن للعدل فى الإسلام معانٍ أخرى واسعة المدى ، إذا نحن جمعناها تبينا أن العدل فى الحقيقة هو الميزان الخلقى للمسلمين ، وانظر إلى الآيات التى توجنا بها هذا الحديث ، وسل نفسك ماذا أراد الله سبحانه بالعدل فى هذه الآية البينة ؟

إن المراد هنا ليس عدل القضاء ، فلا قضية هنا ولا حكم ، وإنما هو سؤال يوجهه الحق سبحانه إلى عقولنا عن رجلين أحدهما عاجز لا يستطيع شيئاً ، والآخر ذكى عامل يأمر بالعدل ، وهو مؤمن يسير على صراط الإيمان ،

ومادامت هنا مقارنة بين الرجلين فلابد أن يكون الثانى منهما خلاف الأول ، ولابد إذن أن يكون الرجل الثانى رجلاً سويا قادراً على إنجاز الأمور يسير فى حياته فى الطريق السليم الذى يرضاه الله ، وهذا هو الرجل العدل كما سنرى فى آيات أخرى قادمة ، ولابد أن نذكر هنا أننا هنا فى سورة النحل ، وهى سورة بديعة فيها أسئلة وأجوبة ومنطق وأخذ ورد و إيقاظ للأذهان إلى حقيقة الإيمان ، فهنا فى هذه السورة يقول الحق سبحانه : **﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾** (الآية ٧٩) فمثل هذه الآية لابد أن يقرأها الإنسان بذهن مفتوح وقلب واع مدرك ، لأننا نرى الطير سابحة فى السماء دون أن نسأل : ما يمسكها فى جو السماء ؟ والجواب هو أنها مسخرات بإرادة الله ، فالطير لا يفكر ولا يعقل ، وإنما هو يعيش بالقوى التى منحه الله إياها ، يفكر ولا يعقل ، وإنما هو يعيش بالقوى التى منحه الله إياها ، فهو سخر لما خلق له ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان والسمك والحشرات وكل ما خلق الله ، عدا الإنسان الذى وهبه الله العقل ليستخدمه فى شئون حياته وأولها الإيمان بالله ، لأن الإيمان كما قلنا يحتاج إلى ذكاء ، بل هو فى ذاته دليل ذكاء ولهذا يقول الله جل جلاله فى ختام الآية : **﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾** ومادام مؤمنين عن عقل وفكر واقتناع فهم أهل فهم وإدراك ، ولهذا فإن الله يخاطب عقول المؤمنين المدركين بعد ذلك بقوله : **واللهُ جَعَلَ لَكُمْ من بُيُوتِكُمْ سَكَناً وجعَلَ لكم من جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يومَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ومن أَصْوافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثاثاً ومَتَاعاً إلى حِينٍ ﴾** وبناء البيوت ابتكار إنسانى لم يصل إليه البشر إلا بعد مئات الألوف من السنين فى الظلال والضياع فى البرارى والغابات ، فبنى الإنسان البيوت من الحجر أو الخشب أو الآجر أو اللبن بذكائه الذى يسر له الاهتداء إلى ذلك ، وهنا وجه مقارنة بين الطائر المسخر بأمر الله ، فهو يطير بقوة

من عنـد الله ، والله سبحانـه يمسكـه فى جو السماء ، بينما لم يصل الإنســان إلى الطيران إلا من حـوالى مائة سنـة مع أنه يحاول ذلك من أيـام الإغريق ، لأنـه لا يصل إلى شىء إلا بعقله ، ولهذا يشير الله بعد ذلـك إلى اهتداء الإنسان إلى عمل الخيام ، وهى البيـوت الخفاف التى يستعملها الإنسان فى سفـره ، والله سبحانه أعطانـا الأصواف والأوبار والأشعار ، فصنعنـا منها الثياب والأثـاث والخيام .
فالـرجل العدل المذكور فى الآيـة : هو الـرجل السوى العاقل الـذى يعتمد على ذكائه فى حياته وحل مشاكله والوصول إلى الصراط المستقيم ، وهو طريق الإيمان بالله ، الذى هو رأس كل فضيلة ، ولهذا يقول الحق سبحانه فى الآية التسعين من نفس سورة النحل :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل ١٦/ ٩٠) .

وهى آيـة نقرؤهـا ونسمعها كل يـوم دون أن نفكر فى المراد بـالعدل فيهـا ، وواضح أن المراد هنـا ليس العـدل فى الأحكـام فحسب ، فلسنا كلنـا قضـاة أو حكاماً ، ولكننا كلنا مطالبون بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فالعدل هنا هو الحظ الأخلاقى السلوكى السليم المطلوب من كل مسلم ، مثله فى ذلك مثل الإحسـان ، وهـو التصرف الحسن والاعتدال فى كل شىء يفعلـه الإنسان ، ومن أهم ذلك إيتاء ذى القربى أى رعـاية المستحق للرعايـة منهم ، ولو رعى كل منا ذوى قرباه لاعتدل ميزان المجتمع ، لأن هذا المجتمع مكون من أسر ، والأسرة ـ كما سنرى فى فصل قـادم ـ هى أسـاس المجتمع ، وسلامتهـا أساس سـلامته ، وليس معنى إيتاء ذى القربى رعايتهم بـالمال فحسب ، فليس كل منا غنياً قادراً على تقديم العون المادى ، ولكن هناك العـون العاطفى والعقلى ، ومراعاة الأسرة بضرب المثل الصـالح لأفرادهـا ، ورسـول الله ﷺ مع نبوتـه ورسـالته كـان دائم الإحساس بهاشميته ، يمتدح المحسنين من آل بيته ويضرب لهم المثل الصالح فى

كل موقف . وبعد أن يأمرنا الله بهذه الثلاثة : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ينهانا عن ثلاثة أشياء تضر بالمجتمع وتفسده : الفحشاء وهى - كالفاحشة - مؤنث الفاحش وهو القبيح الشنيع من قول أو فعل ، والمنكر هو كل ما ينكره المجتمع من الأقوال والأفعال ، والبغى وهو الظلم والعدوان والتعدى . وهذه أمور ثلاثة تفشت فى مجتمعنا اليوم ، وجعلت حياتنا عسيرة كل العسر ، وكل ما ترى من الشطط فى رفع الأسعار والمتاجرة بأقوات الناس واستغلال حاجتهم إلى المساكن بغى ، ومغالاة الأطباء فى أتعابهم بغى . وليس أحسن من العدل فى التصرف ، فيعمل به الإنسان السليم المستقيم الذى يرضاه الله سبحانه والناس . ولو تعاملنا بعضنا مع بعض على أساس العدل لكنا فى الحال التى نتمناها لأنفسنا وأوطاننا .

وفى سورة المائدة نقرأ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [٥/ ١٠٦].

فالإشارة هنا إلى الرجال العدول الذين يوثق فى أمانتهم وخلقهم وسريرتهم للشهادة على الوصية ، وهذه الآية هى أصل نظام العدول الذى أصبح مع الزمن جزءاً من تنظيم القضاء فى معظم البلاد الإسلامية . فالناس فى الماضى كان يعرف بعضهم بعضاً ، فكان القاضى يختار - أو يختارون له - رجالاً من أهل الأمانة والصدق للاستعانة بهم فى التحقق مما يدعيه الناس بعضهم على بعض ، وقد كتب الدكتور محمد محمد الأمين الأستاذ بجامعة القاهرة دراسة عظيمة

القيمة عن الشاهد العدل فى القضاء الإسلامى ، بين فيها تطور نظام الشهود العدول واهتمام القضاة به فى بلاد الإسلام ومصر الإسلامية خاصة ، وفى بلاد الأندلس كان العدول أساساً من أسس التنظيم المدنى ، وفى المغرب الذى أخذ الكثير من تنظيمات المدن الأندلسية نجد أن العدول فى كل بلد وقرية أصبحوا من أعمدة المجتمع ، وهم ملأ الناس أى الشخصيات التى تملأ العين والقلب مهابة وشهاداتهم فى المناسبات الاجتماعية كالزواج والصلح بين الناس قاطعة ، ولا يستغنى عن آرائهم القضاة فى نظر القضايا ، وأخلاقهم وثقة الناس فيهم هى التى كانت ترفع أقدارهم إلى مراتب العدول ، والواحد منهم ـ الرجل العدل ـ يرتضى الناس رأيه وشهادته فى كل مجال .

هنا نجد للعدل فى المجتمع الإسلامى معنى آخر غير ما يقابل الظلم ، فالعدل مقياس خلقى ، هو ميزان الناس فى المجتمع ، هو جماع لكمالات الأفراد .

وعندما نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ أفغَيرَ الله أبتغى حَكماً وهو الذى أنـزل إليكُم الكِتاب مُفصلاً والّذين آتيناهُمُ الكِتابَ يعلمُون أنه مُنزلٌ من ربك بالحق فلا تكُوننَّ من الممترينَ . وتَمت كلمة ربك صدْقاً وعَدلاً لا مُبدلَ لِكلماتِه وهو السميعُ العليمُ ﴾ . [الأنعام ٦/ ١١٤ ـ ١١٥] .

نجد للعدل معنى آخر ، فالكلام فى هاتين الآيتين عن صدق القرآن الكريم ، والآية ١١٥ تقول إن كلمة الله تمت صدقاً وعدلاً ، فالمراد بالعدل هنا توضحه بقية الآية : لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . فنفهم من هذه الجملة أن المراد بالعدل هنا هو الدقة والإحكام والضبط ، وكلمات ربك تم إبلاغها للناس بغاية الصدق والضبط والدقة ولا مبدل لكلمات الله من بعد ،

وذلك كله بفضل صدق الرسول وأمانته وضبطه ، وإذا كان رسول الله ﷺ قدوتنا ومثالنا فتكون الدقة والضبط من أخلاقيات الإسلام ، ومن السنن الأساسية التى ينبغى أن نأخذها عن الرسول .

وهذا المعنى للفظ العدل نجده مرة أخرى فى قول الحق سبحانه فى آية الدين فى سورة البقرة ، وهى من آيات الضبط والدقة والإحكام ، لأن الأمر هنا يتعلق بالأموال :

﴿ يَا أيُّها الذين آمنوا إذا تَداينتُم بدين إلى أَجل مُسمىً فاكتُبُوه وليَكتُب بيَنكُم كاَتب بالعدلِ ولا َيأبَ كاتبٌ أن يكتب كَما علمَهُ الله فليَكتب ﴾ . [البقرة ٢ / ٢٨٢] .

فالكاتب الذى يكتب وثيقة الدين هنا مجرد كاتب ، والكاتب ليس قاضياً ولا حكما ولا طرفاً فى النزاع ، وإنما هو كاتب ما يملى عليه بغاية الدقة ، ولهذا يقول الحق سبحانه : **﴿ ولا يَاب كاتِب أن يكتبَ كما علمَه الله فليكتب وليُملل الذى عليهِ الحق ﴾** فنحن لا نتطلب فى الكاتب معرفة قانونية ، وإنما الدقة والأمانة فى تسجيل ما يملى عليه ، وهنا يتضح تماماً أن المراد بالعدل هنا الأمانة والدقة والضبط ، وهى خصال إسلامية ينص عليها القرآن الكريم ، وكان رسول الله ﷺ آية فى الأمانة والدقة والإحكام ، وكان يمتدح الدقة فى العمل والضبط فى الأداء ، وعندما أعيد عمل الصفة فى مؤخرة المسجد بعد تعديل القبلة قال : « لم يكن يعجبنى ما صنعتموه آنفاً فانظروا فى رجل من أصحاب الأعواد يقيم لكم ما تريدون » ، وأشار عليهم بمولى لإحدى الصحابيات كان نجاراً ماهراً ، وهو الذى صنع أول منبر خطب عليه رسول الله ﷺ فى المسجد ، وسمع برجل وفد من اليمن إلى المدينة يحسن غرس النخل ، فذهب ليرى كيف يعمل هذا الرجل ، وأعجبته دقته وإحكامه ، حفر الموضع الذى ستغرس فيه

الفسيلة ورآه يتنخل التراب قبل أن يضعه ، ورآه بعد أن غرس الفسيلة ورواها ترك قدر ربع ذراع من بئر النخلة ، فسأل الرجل فى ذلك ، فقال إنه سيملأ البئر عندما تبرز النبتة من باطن الأرض ، وعنده لذلك تربة مرة تحمى النبتة من الهوام فابتسم وهو يتأمل الرجل يعمل ، وقال : « هـذه يد يحبها الله » ، بهذا كله نقول إن الدقة فى العمل وإحكامه سنة ، وكان رسول الله متحريا للدقة التامة فى كل ما يعمل ، فالدقة والضبط جزء من أخلاقيات الإسلام ، ومن بديع أحاديثه قوله : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طائر أو سبع إلا كان له صدقة » .

ومن محكم كلام الله قوله فى سورة الانفطار :

﴿ يَآ أَيُّهَا الإنسان ما غركَ بربكَ الكريم . الذى خلقك فسَواك فعَدلَك . فى أىِّ صورةٍ ما شاء رَكبك ﴾ [٨٢ / ٦ ـ ٨] .

وهذه الآيات تأتى فى سورة الانفطار وبعد قيام الساعة وتفطر السماء وانتثار الكواكب وتفجر البحار وطغيان مياهها على اليابس وتفتح القبور وخروج الناس للحساب بين يدى الرحمن ؛ هنا تعلم نفس الإنسان أثناء الحساب ما قدمت وما أخرت من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، وهنا يكون عتب الخالق سبحانه على الإنسان الذى أحسن خلقه فسواه وعدله فى الصورة التى اختار أن يركبه فيها ، وهى صورة سوية معتدلة ، والوصف هنا لا يقتصر على الجسد ، بل على النفس ، فإن الله سبحانه خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأراد منه أن يسير فى الطريق المستقيم على أحسن هدى وأقومه ، ولكن الإنسان عصا ربه وخالف أمره ، وأزله الشيطان فقارف ما نهاه الله عنه ، فرده الله سبحانه وتعالى إلى أسفل سافلين أى إلى الأرض ، وتحول كما قلنا من مخلوق فردوسى رفيع إلى حيوان أرضى وفى الفتوحات المكية يقول أمير الصوفية محيى الدين بن عربى : « إن آدم وحواء

عندمـا أهبطا إلى الأرض حفـظ الله عليهما صورتهما الفردوسيـة السويـة ، ولكن المعاصى هى التى أدخلت القبح فى هيئات الناس ظاهـراً وباطناً ، فالخطايا هى التى غيرت أشكال الناس فظهر الاعوجاج النفسى والخلقى ، ورأينا من أشكال القبح الخلقى ما نرى » .

ومن بين شيوخ ابن عربى كانت امرأة صالحة تسمى نونا فاطمة أى السيدة فاطمة ، نيفت على الثمانين ووجهها أجمل من البدر ، لأن باطنها كان زكياً قوياً ، فظهر ذلـك فى خلقتها ، فهى مع شيبهـا حلوة لا تشبع العين من النظـر إليها ، وقد أعـاد ابن عربى ذكرها والكـلام عليها فى رسالة القـدس ، وهى من أجمل ما كتب وأبعده عن الشطحات التى لايحبها بعض الناس .

وقد استعمل الحق سبحانه لفظ العـدل فى سياق الكلام عن الزواج وتعدد الزيجات ، لأن الإسـلام دخل على العرب ومجتمعهـم وبقية المجتمعـات الأخرى المعـاصرة لعصر النبـوة ، كانت لا تضع أى ضـوابط للـزواج ، فـالناس كـانـوا يتزوجون و ينجبـون و يطلقون دون ضابط لعدد الزوجـات وأسلوب معاملتهن ، إلا الأسرة ، فالمرأة المنحدرة من بيت قوى تحترم وتصان كما نرى فى حالة هند بنت عتبة بن ربيعة وزوج أبى سفيان صخر بن حـرب التى فعـلـت بحمزة الشـهيد ما فعلت يوم أحد ، فقد كانت امـرأة محترمة تضرب أبا سفيان بقدمها فى صدره ولا يستطيع أن يفعل معها شيئاً ، أمـا المرأة من البيت الوسط أو الفقير فلم يكن لها من الأمر شىء ، تطلق وتعاد إلى أهلها دون أن يهتم بأمـرها أحد ، وإذا مات عنها زوجها استولى أخو زوجها على تركته كلها ، وله الحق فى أن يتزوجها إذا شاء وفى المسيحية كانت المجامع الدينية قد قررت الزوجة الواحدة ، وجعلت الطلاق بيد الكنيسة والقسس ، ولكن المسيحيين كانوا يتزوجون ما شاءوا من النساء دون حرج ويطلقون النسآء دون أن يسائلهم أحد ، لأن قرارات المجـامع المسـكونية (العالميـة) لم تكن ملزمة لأحـد ، لأن العالـم المسـيحى ضـم أكثر من

كنيسة ، والكنائس فيها بينها متعادية ، حتى القساوسة ورجال الكنيسة كان لهم النساء الكثيرات ، بل إن بعض الأساقفة كان لهم العشرات من النساء والجوارى ، فجاء الإسلام ليدخل النظام على هذه الفوضى ، فحدد عدد من يباح للرجل أن يتزوجهن بأربع فى وقت واحد ، ووضع لذلك من الضوابط ما يجعل الزوجة الواحدة هى الأمثل ، ومثل هذا الشأن الإنسانى العاطفى من شئون الناس لا تضبطه حق الضبط القوانين بل النفوس ، فالرجل قد يتزوج المرأة على رغمها ويعضلها ويذلها ويكسر نفسها بالإهمال وسوء المعاملة ، وهنا يستعمل الله سبحانه ميزان العدل وهو الخط السلوكى الأخلاقى القويم ، فالشريعة تحكم مسائل الزواج والطلاق ، ولكن قانون العدل هو الذى يحقق السعادة وهناءة الحياة الزوجية ، والعدل خط سلوكى نفسى لا يحس به إلا الإنسان وحده ، ولهذا فإن الله يقول مثلاً فى سورة النساء :

﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ . [النساء ٤/ ٣ ـ ٤] .

فهنا لأن مسائل الزواج والطلاق مسائل قلوب تحكمها ـ إلى حد بعيد ـ العواطف والميول والأذواق ، يستعمل القرآن الكريم لفظ العدل ، ولأنه ميزان خلقى داخلى فإن الانسان فى مسائل بيته يعتمد على الأحاسيس قبل القانون والحقوق والواجبات . فهنا يدخل التوافق والنفور والحب والكراهية ، ومن ثم فالمسألة دقيقة ، ولهذا يقول سبحانه : فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . والعدل بين النساء ـ فى الزواج ـ مستحيل والله سبحانه وتعالى يقول فى نفس سورة النساء : **﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أن تَعدِلُوا بَيْنَ النِسَاء وَلَو حَرصتُم فَلاَ**

تميلوا كُلّ الميل فَتَـذَرُوها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غَفوراً رحيماً ﴾ [النساء ٤ / ١٢٩] .

وسبب استحالة العدل بين النساء هنا هو الطبيعة الإنسانية نفسها ، فإن الزوجة ـ كل زوجة ـ تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهى لا ترضى أن يعطى شيئاً من نفسه لأى إنسان آخر ولو كانت أمه أو أخواته ، والمرأة بطبيعتها تعطى لنفسها ومحبتها كلها لرجل واحد ، وهى تريد من الرجل المثل ، وعلى كثرة ما سمعنا وعاينا لم نر ولم نسمع عن رجل تزوج اثنتين أو ثلاثاً وكان سعيداً مهما فعل لأن الزواج صلة إنسانية خاصة جداً بين الزوجين ، فيها حب وأنس وثقة إلى جانب مسائل الاستقلال بالمسكن والأولاد ، وهذه كلها مسائل لا يمكن أن تتقاسم بين رجل وامرأتين أو ثلاث نساء ، هذا إلى جانب الأولاد فى الزواج المتعدد ، فهم لا يكونون إخوة حقيقيين قط ، بل إنهم يشبون منذ البداية أعداء

والرجل الذى يشط به عقله ويتزوج امرأة ثانية ويسكنها مع الأولى أو فى بيت آخر لا يلبث أن يعلم أنه فقد السعادة الزوجية وسكون البيت وراحته ، فإن الزوجة الأولى ـ حتى فى الحالات التى توافق فيها على زواج رجلها بامرأة أخرى ـ تفقد الثقة والأمان ومعهما الحب ، وتتحول إلى عدو كسير الجناح يصمت لأنه يخاف أن يتكلم . ولكنه يتكلم فى صمت ، ويتحرك فى سكون ويبتسم وهو يبكى ، معظم مآسى البيوت الحاكمة فى تاريخنا آتية من تعدد النساء فى قصور الحكام ، ولكل امرأة أولاد ومخاوف ومطامع ولها كذلك أنصارها ، والقصور تتحول إلى ساحات قتال وتدمير ، وصاحب السلطان الذى يعيش فى قصر كأنه مدينة لا يجد غرفة واحدة يستطيع أن ينام فيها هادىء البال مطمئن النفس ، ولا يتصورنَّ أحد أن الخلاف بين الأمين والمأمون مثلاً نشأ عن أن السيدة زبيدة أم الأمين عربية والخيزران أم المأمون فارسية ، بل إنه نشأ من الزوجتين ، فإن السيدة زبيدة كانت امرأة عاقلة كريمة مؤمنة أنفقت من مالها الكثير جدًا فى سبيل الخير

وهى وحدها ومن مالها قامت بتعمير طريق الحج من العراق إلى الحجاز ، ولكنها قبل كل شىء امرأة تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهذه هى طبيعة البشر لا طبيعة زبيدة وحدها ، وابنها الأمين لم يكن منذ البداية سيئاً ولا غبياً ولا ناقص العقل والخلق ، ولكن المأمون ابن الخيزران خلق له مشكلة تجاوزت طاقاته ، فهنا الخلافة والسلطان ومن خلف الأمين ناس لهم مصالح ومطامع ، وكذلك الأمر مع المأمون . ثم إن المأمون كان يكبر الأمين بستة شهور فحسب . فهما صنوان فى السن وعديلان فى الحق ، ولم يكن من الممكن أن يكون بينهما هذا الفرق القليل فى السن لو أنهما كانا ولدى زوجة واحدة ، ففى هذه الحالة يكون واضحاً جدًّا ، ويكون صاحب الحق فى ولاية العهد واضحاً جداً أيضاً ، والمأساة كلها ظهرت فى أيام الرشيد أبيهما ، فهذا الرجل الشهم الذكى المثقف ثقافة واسعة كان عاطفياً رقيق القلب سريع الدمعة ، وكان فى حاجة إلى زوجة واحدة تحبه وترعاه لأن صحته كانت ضعيفة فكان من أوائل الثلاثينات من عمره يشكو من متاعب فى البطن والأمعاء ، ثم أصابه شىء فى القلب ، وأذكر أننى قرأت فى كتاب الأغانى ــ وربما فى كتاب الكامل لأبى العباس المبرد ــ أنه جلس تحت شجرة ليستريح وهو فى الطريق إلى طوس وكان متأخراً عن كتلة الجيش ومعه واحد من ندماه وأهل صفوته من رجال الفكر ، فشكا له همومه ومتاعبه وكشف عن بطنه ليرى مابه ، والرجل الذى حكى الحكاية يتعجب من أن هذا القسط الضئيل من السعادة والأمان يكون نصيب أكبر ملوك الدنيا فى وقته ، وغاب عنه أن المأساة مأساة الزوجتين ! ولو كانت للرشيد امرأة واحدة لما اضطر إلى أن يشكو آلامه لهذا النديم تحت شجرة فى الطريق إلى طوس ، لأن مكان هذه الشكوى يكون فى البيت مع الزوجة المحبة ، ولكن هارون الرشيد لم يكن يجد السعادة فى قصره ولا فى بغداد كلها ، ولهذا كان لا يطمئن إلى العيش فيها ، وكان معظم الوقت خارجها ، وهذا هو تفسير ما نقوله من أنه كان يحج سنة ويغزو أخرى .

وهذه المأساة يعرفها كل من تزوج بأكثر من واحدة باستثناء حالات الضرورة كالعقم أو المرض الوبيل وما إلى ذلك . . والله سبحانه أباح التعدد ولكنه قيده بالعدل ، وهو الميزان الخلقى الداخلى الذى لابد أن يستخدمه المسلم فى تقدير أعماله قبل القيام بها أو قبل الحكم على الأشياء .

والعدل ضد الهوى . ومعظم المصائب فى تصرفات الإنسان تأتى من الهوى ، ولهذا أعطانا الله سبحانه ميزان العدل ، وجعله علاجاً لأخطار الهوى ، واقرأ هنا قول البارىء سبحانه :

﴿ يَـأَيُّهَا الذين آمنُوا كوُنـوُا قوامينَ بـالقسْطِ شُهداءَ لله ولـو على أنفُسكم أو الـوالديْنِ والأقـرَبين إن يكُن غنيـاً أو فقيراً فالله أولَى بهما فـلا تَتَبعوا الهوَى أن تعدلوا و إن تلوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملوُنَ خبيراً ﴾ [النساء ٤/ ١٣٥] .

فهنا يضع الله العدل أمام الهوى ليحمينا من شرور الهوى ، وهو آفة حياتنا وتاريخنا الكبرى ، وما دخل الهوى شيئاً إلا أفسده وضيع جماله ، وجعله نقمة بعد أن كان نعمة ، وفى الغرب ابتكر الناس نظم المحلفين ليأمنوا الهوى فى الأحكام ، أما فى الإسلام فقد منحنا الحق سبحانه العدل وهو الفيصل الذى يفرق بين الصواب والخطأ ، بين ماهو صالح وماهو ضار فى حياتنا الخاصة والعامة . وقد كان العدل مبدأ من مبادىء المعتزلة ولكنهم قصروه على عدل الله سبحانه ، وهو أمر لاشك فيه ، ولا مجال للمناقشة فيه ، وكان جديراً بهم أن يوجهوا أذهانهم إلى العدل الإنسانى الذى يحمى الإنسان من الهوى ، والمعتزلة أنفسهم لم يكونوا أهل عدل بل كانوا أهل هوى ، والهوى ضيعهم .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِن فى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفكرون ﴾

« صدق الله العظيم »

[الرُّوم : الآية ٢١]

كلامنا كثير عن المرأة ومركزها فى التنظيم الاجتماعى الإسلامى وكلامنا عن حقوق المرأة فى شريعة الإسلام أكثر ، وقبل أن أكتب هذه السطور قرأت كل ما وقع تحت يدى من كلام المفسرين سابقين ولاحقين ، فأما السابقون من أهل العلم بالقرآن وتفسيره عندنا ، فكلهم كانوا أبناء عصورهم فى هذه الناحية والعصور الماضية كلها كانت عصوراً ظالمة للضعفاء قاسية على من لا يستطيع أن يحمى نفسه وحقوقه ، ولهذا فلا فرق بين العالم والجاهل فيما يتعلق بالنظر إلى المرأة ومعاملتها حتى حقوقها التى منحها الله إياها فى القرآن الكريم أكلوها واعتدوا عليها ، ومازال الكثيرون منهم على هذه الحال إلى أيامنا هذه ، وقد حضرت من سنوات طويلة كثيراً من جلسات المحاكم الشرعية ، ورأيت من صور الظلم للمرأة والاحتقار لها مالم أتصور قط صدوره عن رجل صحيح الإسلام يعرف أن الإسلام هو دين العدل والرحمة والإنسانية .

حتى مفكرون وكتاب كالجاحظ وأبى حيان التوحيدى لا تجد للمرأة عندهم مكاناً يفضل مكان الخادمة الأجيرة اللهم إلا إذا كانت أما فهى تحترم فى هذه الحالة للأمومة لا لمكانها ، وقد عرفنا فى تاريخنا نساء فرضن احترامهن على الرجال وهؤلاء يخرجن من الحساب لأنهن كن جميلات جداً ، ورجالنا فى الماضى كانوا ضعفاء أمام المرأة الجميلة ، فى سبيلها قتل الرجال الرجال وقامت حروب ، ولكن حتى فى هذه الحالة نجد أن الرجل إذا حصل على المرأة ونال إربه منها تركها جانباً وانصرف عنها ، بل ربما كان جمالها مصيبة عليها فهو يثير حسد الأخريات ويدفعهن إلى السعى فى أذاها .

وفى كتاب بدائع الزهور لابن إياس حكاية امرأة جميلة اشتريت جارية من بلاد القوقاز وعرضت للبيع فى دمشق ، وتنافس فيها عدد من علية القوم ، ووصل الأمر إلى القاضى ليفصل فى القضية ، واجتمع المتنافسون فى حضرة القاضى ، فنهض واحد منهم وضرب الجارية بالسيف فقتلها وقال : هاهى ذى ليأخذها من يريد ، وريع الناس لما حدث ولكن القاتل ـ وكان من أبناء كبار القادة المماليك ـ طلب من الخادم أن يصب له الماء على سيفه ليغسله قبل أن يضعه فى قرابه ويخرج ، وصاح التاجر صاحب الجارية : ياسيدنا القاضى ألا تحاسبه ؟ فقال القاضى بعد أن استعاد روع نفسه : أحمد الله على أنه لم يقتلنى ويقتلك ، فهذا مجنون ابن مجنون ، ولنحمد الله على أن المسألة انتهت بقتل امرأة لا روح لها ! .

وهذه الأفكار تخطر ببالى عندما أقرأ آيات الله سبحانه التى تراها فى رأس هذا الفصل ، فهى إذا تدبرتها وقلبت معانيها رأيت أنه تضم فعلاً آيات من الحكمة الآلهية فى شأن الزواج والحياة الزوجية ، فإن الزواج الإسلامى فى أساسه محبة ورحمة ومودة بين الرجل والمرأة ، لا يمكن أن يكون هناك زواج سعيد يملأ القلب بهجة والنفس أمنا إلا بهذه المودة والرحمة ، وهنا ترى كيف أن

عامة الناس عندما لا يفهمون الزواج ولا يشعرون بهذه الناحية الروحية فيه ، ويعتبرونه مسألة مصلحة أو منفعة ، وفيما مضى كان الآباء هم الذين يزوجون البنات ، وكانوا يرغمونهن على قبول الزوج الذى يختارونه وكلمتهم المشهورة : إننى أبوها وأعرف بمصلحتها ، ويغيب عنهم أن الزواج ليس كله مصلحة ، حقاً إن المصلحة جزء منه ولا يمكن إهمالها ولكنه قبل كل شيء مودة ورحمة وسكن ، وإذا لم يجد الرجل فى زوجه السكن الآمن الذى تستريح إليه نفسه فلماذا يتزوج ؟ ثم إن عقد الزواج أيا كانت طريقة إتمامه هو فى النهاية عقد بين ازوج والزوجة دون غيرهما ، وفى سورة النساء آيات بينات عن بعض جوانب الزواج أحب أن آتيك بها لتقترب من معنى الزواج وروحه فى الإسلام :

﴿ يَـأَيُّهَا الذِين آمَنُوا لاَ يحل لكم أن تَرِثُوا النِسَاء كرهاً ولا تَعضُلُوهُن لتذهَبُوا ببَعض ما آتيتُموهن إلا أن يأتِينَ بفَاحشةٍ مبينةٍ وعَاشِرُوهُن بالمعرُوفِ فإن كرِهتُمُوهُن فعَسَى أن تكرَهُوا شيئاً ويجعل الله فِيهِ خَيراً كثِيراً . وإن أرَدتم استِبدال زَوج مكَان زَوج وآتيتم إحدَاهُن قِنطاراً فلا تأخُذُوا مِنهُ شَيئاً أتأخُذُونَهُ بهتَاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخُذُونه وقَد أفضَى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذن مِنكم مِيثاقاً غليظاً ﴾ .

[النساء ٤/ ١٩ ـ ٢١] .

ولو أنك تأملت هذه الآيات لرأيت أننا ـ نحن المسلمين جميعاً ـ نخالفها فى زيجاتنا . فإن المرأة هى الجانب الضعيف فى المجتمع الإسلامى . إنها الجانب المظلوم الذى يحمل عبء المجتمع ولا يكاد يفوز إلا بالجانب الأقل من خيره ، وأصحابنا الذين صاغوا قانون الأحوال الشخصية الصادر سنة ١٩٢٩ نسوا تماماً أنهم يشرعون لزواج إسلامى يقوم على الرحمة والمودة ، وإلى حين قريب كان القاضى الشرعى يقول وهو على منصة القضاء : إن الشريعة شيء وقانون

الأحوال الشخصية شيء .

وكانت عندنا من سنوات طويلة طاهية زوجوها من رجل عتل يعضلها ويثقل عليها ويذهب بمعظم ما تكسبه ولكراهتها فيه لم تنجب منه ، ولكنه كان يمسك به طمعاً فى مالها فشجعناها على رفع قضية طلب الطلاق بسبب الضرر والقاضى رفض الطلاق ، دون مناقشة وقال له المحامى : يامولانا أنت تقتل المرأة بهذه الصورة فإنك لا تعرف مقدار تعاستها معه ، فكان رد القاضى وهو ينتقل فى سأم إلى القضية التالية : لو كان هذا الرجل قادراً على الكسب لأنفق على امرأته ، أما وهى تكسب فلتنفق هى عليه أم أنك تريد أن تعيش المرأة ويموت الرجل ؟ واستأنفنا الحكم وأتينا بمحام إنسان يفهمنا ونفهمه فاستطاع الحصول على الطلاق لا بسبب الضرر أو سوء المعاملة بل على أساس أن الرجل عاقر لا ينجب وكانت الزوجة فى السادسة والعشرين عندما طلقت ، وبعد سنتين من الطلاق زوجناها فتى نجاراً اختارته بنفسها فسعدت معه أعظم سعادة وأهدته ذكوراً ثلاثة وبنتاً .

وأنا عندما أفكر فى موضوع الزواج والحياة الزوجية فى مجتمعنا الإسلامى إنما يتجه ذهنى فى الغالب نحو الفقراء وهم غالبية المسلمين ، وهنا تجد الزواج يخرج عن حدوده الإسلامية فعلاً ، وتتحول الزوجة إلى خادمة لزوجها ومنجبة لأطفاله وفى هذه الأوساط لا مكان للسعادة أو السكن أو الرحمة أو المودة ، وقد درجوا على ذلك وعاشوا فيه ولم يعودوا يشعرون بما يفوتهم من جمال الدنيا عندما يفوتهم الزواج الإسلامى القائم على الرحمة والمودة .

ونعود إلى آيات سورة النساء لنرى ما فيها من أسرار السعادة فى الحياة الزوجية ، ولنرى أيضاً كيف أن غالبيتنا العظمى لا تكاد تلتفت إليها ، ففى الآية الأولى نرى كيف أن الله سبحانه يحرم علينا أن نستعمل قوتنا لكى نتغلب

على النساء وهن المستضعفات فى مجتمعنا ، وأذكر بهذه المناسبة أن هناك جماعات كثيرة من المسلمين فى كل بلاد الإسلام لا تورث النسوة وتحرمهن من حقهن الشرعى فى الميراث بحجة أن المرأة تتزوج أجنبياً عن الأسرة فإذا هم أعطوها نصيبها من الميراث ، خرج جزء من ثروة الأسرة إلى رجل غريب أو أسرة غريبة ، وهذا الفريق من الناس ينسى أن الله سبحانه حرم هذا وقال إنه لا يحل ، ولكن بُعْدَ الكثيرين منا عن روح الإسلام يصل بهم إلى مقارفة ما حرم الله فى سبيل ما يسمونه بثروة الأسرة ، وقد حضرت ذات مرة مناقشة بين رجل من صعيد مصر ينتسب إلى أسرة تجرى على هذا المذهب، وكان يناقش الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان آل عبد الرزق أسرة مستنيرة تعرف الله والإسلام ولهذا فقد كانت تورث النساء ولا تقارف هذا الإثم العظيم .

ومن غريب ماسمعت من رأى المنادى بحرمان النساء من الميراث قوله إن النساء أنفسهن يرضين عن ذلك ولا يكرهنه ، فقال له الشيخ مصطفى بصوته الهادىء الرصين : صدقنى يا فلان لا توجد امرأة واحدة فى الدنيا ترضى أن يؤخذ منها ميراثها وحقها ، ولكنكم قساة غلاظ الأكباد تفعلون هذا الباطل وغيره وتقولون إنه الحق أو أن النساء يردنه لأنهن لا يحببن أن يصير مال الأسرة إلى غريب .

ثم يحرم الله عضل النساء لإكراههن على التنازل للرجال عما أعطوهن إياه من المهور أو الهدايا ، وهذا أيضاً يمارسه الكثيرون منا إلى يومنا هذا ابتزازاً للنساء وعدواناً عليهن ، وقد عرفنا رجالاً كثيرين تصل بهم الخسة إلى مطالبة النساء بالمال فى مقابل الطلاق عندما تستحيل الحياة الزوجية بين الاثنين ، وأكثر من مرة سمعنا عن رجل طلب خمسة آلاف أو حتى عشرة لكى يطلق امرأة لا يحبها ولا تحبه ، ويصر على تركها كالمعلقة فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة وهذا أيضاً حرمه الله فى آيات أخرى من سورة النساء قال سبحانه :

﴿ وإن امرأةٌ خَافتْ من بعلها نشُوزاً أو إعراضاً فَلَا جُناح عليهما أن يُصْلِحَا بينهما صُلحاً والصُلحُ خيرٌ وأحضِرتِ الأنفُسُ الشُح وإن تحسِنُوا وتتقُوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . ولن تستطيعُوا أن تعدِلوا بَين النِساءِ ولو حَرَصْتم فلا تَمِيلوا كُل الميلِ فتَذروها كالمُعلقة وإن تُصْلحُوا وتتقوا فإن الله كان غفُوراً رحِيماً . وإن يَتفرقا يُغْن الله كُلا من سَعَتهِ وكان الله واسعاً حكِيماً ﴾ [النساء ٤/ ١٢٨ ـ ١٣٠] .

وهنا كذلك نرى من جوانب الحكمة الإلهية فى تنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة ما يدلنا بالبرهان الساطع على أن هذا التنظيم الإسلامى هو خير تنظيم إذا أدركه الإنسان على وجهه وطبقه عن ثقة فى أنه يضم كل جانب الخير لنا لو أننا نطبقه حق التطبيق ، فهنا نجد أن الله يعطى امرأة التى تخاف إعراض زوجها أو فقدان الحق فى أن تسعى إلى الصلح إما بأن تناقش الأمر مع زوجها إذا توسمت فيه العقل والعدالة ، وإما عن طريق بعض أقاربها لأن الصلح خير ، وقد يتخاصم الزوجان وتبعد الشقة بينهما حتى يظنا أن سبل عودة الوئام قد تقطعت جميعاً فإذا جلس الزوجان وناقشا خلافهما فى روية وحكمة تبين لهما أن الأمر أهون مما يظنان ، وهنا يذكرنا الله بأن نفوس الناس شحيحة بالخير ضنينة بما تملك وهذا جزء من طبائع المخلوقات ، ولكنه لا ينبغى أن يكون جزءا من أخلاق المؤمنين فنفس المؤمن لا ينبغى أن تكون أسيرة الأنانية والشح والبخل فيما يتعلق بعلاقات الإنسان مع أهله ، لأن امرأة الإنسان هى نفسه أو ينبغى أو تكون كذلك ، ثم توجه الآيات النصيحة بعد ذلك للرجال لأنهم هم الأقوى والأغلب فيقول لهم الله سبحانه إنهم لو أحسنوا وتفضلوا وأعطوا عن تقى ومحبة فى الله سبحانه فإن الله يعلمه ولا ينساه لصاحبه ، وليس أبغض إلى الله سبحانه من المسلم الأنانى المتمسك بقشور الحياة بكسبها ويفسد بذلك حياته الزوجية وهى ركن السعادة فى هذه الدنيا ، ثم يؤكد الله للرجال وهو خالقهم وأعلم بأحوالهم

أنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا على ذلك ، لأن الحقوق المادية هى أهون الحقوق على المرأة ، وإذا هى ضمنت حب زوجها وإعزازه إياها .

وقد عرفت فى بعض البلاد العربية رجلاً واسع الثراء متزوجاً من أربع نساء وكان شديد الاجتهاد فى المساواة بينهن فى كل ما يعطى حتى ألوان السيارات كانت واحدة ولكنه كان مع ذلك بعيداً كل البعد عن السعادة وما نظرت إليه مرة وهو شارد بأفكاره عنى وعن الناس إلا وجدت غمامة أشبه بالسحابة السوداء تظلل وجهه ، وكنت أحاذر ألا أسأله عن شأنه ولكنه فى ذات مرة قال عندما عاد إلى نفسه ألا لعنة الله على الإكثار من النساء كلهن فى النهاية واحدة والواحدة أفضل فقلت له هذا يا أخى مذهبى وأحسب أنه مذهب الإسلام لمن ينشد السعادة الزوجية ، أما طالب المتاع الذى يحسب أن زوج الاثنتين أو الثلاث يجد ما لا يجده المقتصر على الواحدة فهو واهم .

ثم يأمرنا الله سبحانه بألا نميل عن زوجة كل الميل وندعها مربوطة بنا بخيط هالك فهذا ظلم للمرأة بين ، فإذا استحالت الحياة بينهما ، وانقطعت سبل الإصلاح فلا معنى للإمساك بالمرأة على رغمها وليكن الطلاق البغيض ففيه تحرير لنفسين من إسار زواج ظالم ، والله سبحانه ييسر لكل منهما سبيلاً للسعادة من عنده وهو سبحانه كريم واسع الأرزاق حكيم .

وفى الآيات الأولى التى استشهدنا بها فى هذه الدراسة عن الزواج والأسرة فى الإسلام نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وإن أردتمُ استِبدالَ زوجٍ مكَانَ زوجٍ وآتيتُم إحداهُن قنطاراً فلا تأخُذوا مِنه شيئاً أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذُونَه وقد أفضَى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذن منكُم مِيثاقاً غليظاً ﴾ .

وفى هذه الكلمات القرآنية الحكيمة من الموعظة الحسنة مالا يتفطن إليه إلا القليلون منا ، وفى معظم كتب التفسير تقرأ أنه كان من عادة الجاهليين إذا أرادوا طلاق امرأة لم يطلقوا سراحها إلا بعد أن تعيد إليهم كل ما قدموه لها من مهر وهدية قبل الزواج ، فجاءت هذه الآيات لتوقف هذا الظلم البين ، وأنا عندما أقرأ مثل هذا الكلام يملكنى العجب لإصرار الكثيرين على أن هذه الأعمال تقتصر على الجاهلية وأهلها مع أنها تصدر عن كل إنسان قاسى القلب عديم الإحساس ، وإلى أيامنا هذه مازال بيننا ناس يبغضون زوجاتهم ويتمنون الخلاص منهن ولكنهم يطلبون منهن مالاً فى سبيل إخلاء سبيلهن ، والنساء فى أحيان كثيرة يجدن أنفسهن مضطرات إلى الخضوع ، لأنهن لا يستطعن الزواج أو التصرف فى حياتهن مادمن على ذمة رجال أما الرجل فلا يضيره أن تظل الزوجة المكروهة فى عصمته ، لأن ذلك لا يمنعه من الزواج والتصرف كيف يشاء ، وهذا وجه من وجوه سوء استعمال الرخصة التى أباحها الشرع للرجال فى أن يتزوجوا الاثنتين والثلاث ، وقد أباح الشرع ذلك تيسيراً لشئون الحياة ، فإن الرجل قد يجد امرأته عقيماً أو مريضة أو غير قادرة على القيام بمسئوليتها ، وبدلاً من أن يكون الحل الوحيد أمامه هو التخلص من تلك الزوجة للزواج بأخرى أبيح له أن يحتفظ بالزوجة الأولى والتزوج عليها ، وفى هذه الحالة تكون الزوجات الأوليات شاكرات للشرع الحنيف الذى يسر لهن البقاء زوجات على ذمة رجال يتولون شئونهن .

المهم أن القرآن يحرم على الرجال استخدام الرخصة التى منحهم الله إياها فى استرجاع ما سبق أن قدموه إلى الزوجات ، والقرآن ينكر ذلك يقول : ﴿ **وكيف تأخُذُونَهُ وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذن مِنكم مِيثاقاً غليظاً** ﴾ .

والمسألة الأولى هنا هى مسألة إفضاء الرجل والمرأة بعضهما إلى بعض بعد الزواج ، والكثيرون منا لا يدركون أن المرأة إذا تزوجت وأفضت بنفسها لزوجها

فهى فى الحقيقة تقدم له أغلى ما فى كيانها ، لأن جسد المرأة هو سرها وقوتها وهى عندما تتزوج وترتبط برجل فهى تقدم كل ما عندها بذلك وانفصام عقد الزواج بعد ذلك يصيبها بخسارة كبرى ، وإذا لم تكن من ذوات الجمال الفائق الذى يتهافت عليه الرجال أو من بنات البيوت الكبيرة أو الغنية التى لا يعسر عليها العثور على زوج آخر قلما تتزوج بل إن مجتمع الرجال الذى نعيش فيه وتحكمنا عقليته يهبط بالمطلقة درجات لمجرد أنها مطلقة .

ولهذا فإن الإسلام أبغض الطلاق مع إباحته إياه ، فهو فى بعض الحالات القليلة حل لزيجات مستعصية .

ولكن ذلك فى الحقيقة قليل جداً والأساس فى الزواج هو الدوام مدى الحياة والمرأة تتزوج على هذا الأساس ، والزواج هو وظيفتها الأساسية فى الوجود ، ولهذا فإن الطلاق بالنسبة للمرأة ليس مجرد انفصام العقد مع رجل ، بل هو فى الحقيقة ضربة تزلزل كيان المرأة وتصيبها بأشد الأضرار . ولهذا فإن المرأة نادراً ما تطلب الطلاق وهى أحرص ما تكون على أن تنجح حياتها الزوجية وتنجب وتنشىء الأسرة وإنشاء الأسرة وتربية الأولاد هو تحقيق وجود المرأة كله .

ولهذا فإن القرآن يسمى عقد الزواج بالميثاق الغليظ ، والإسلام كما سبق أن ذكرنا يقوم كله على مواثيق ، فأنت فى الإسلام لا تعطى شيئاً إلا كان لك مقابله وقد سبق أن أتينا بالآيات التى تقول إن الدخول فى الإسلام إنما هو أشبه بالدخول فى صفقة تجارية يجنى الإنسان منها كل خير وفى سورة التوبة نقرأ : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة ٩/ ١١١] .

فـالإيمان كما سترى صفقة فـإن الحق سبحانـه يعطى المؤمن الجنـة والمؤمن يعطى مالـه ونفسه فى سبيل الله وليس هناك أوفى من الحق سبحانـه ، والإنسان فى دخوله الدين يفوز الفوز العظيـم ، وهذا حق فى الإسلام واليهودية والنصرانية وقد سبق أن استشهدنا بهذه الآيات العظيمة فى قولنا إن الجهاد فى سبيل الله فرض عين لا فرض كفاية .

وميثاق الإنسان مع الله سبحانه عندما يـدخل فى الدين هو جزء ـ أو نتيجة للميثاق الذى عقده الله مع النبيين ، والميثاق الأول هو ميثاق الله سبحانه مع بنى إسرائيل حينما أنزلت عليهـم التوراة . وكل نبى بينه وبين الله ميثـاق وهو تـوكيد للميثاق الـذى عقده الله سبحـانه وتعالى مـع نوح عليه السـلام عندمـا عهد الله سبحانه إليه فى تجديد الخلق وأمره بإنشاء الفلك وهو ميثاق نجاة وخير وهو نفس الميثاق الذى عقده الله سبحانه مع النصارى جاء فى سورة المائدة : ﴿ **ومن الذين قالوا إنَّا نصَارى أَخَذنا مِيثاقهم فنسُوا حَظا مِما ذُكرُوا بهِ فَاغرينا بينهُمُ العَـداوةَ والبَغضـاء إلى يـومِ القِيـامـةِ وسـوف يُنبئُهُم الله بِما كـانُـوا يصنعُون** ﴾ [٥/ ١٤] .

ونفس الميثاق عقده الله سبحانه مع رسـولنا صلوات الله عليه جاء فى سورة الأحزاب : ﴿ **وإذ أخـذنـا مِن النبيين ميثـاقهُم ومِنك ومن نُوحٍ وإِبـراهِيم ومُوسَى وعيسىابنِ مريَم وأخَذنا منهُم مِيثاقاً غليظاً** ﴾ .

[الأحزاب ٣٣/ ٧] .

وهذا هو الميثاق الأعظم بين الله والإنسان إنه عروة الله الوثقى وحبله المتين ، ولهذا وصفه الله بالميثاق الغليظ .

وكما وصف الله سبحانـه ميثاقه العظيم مع الأنبيـاء وأهل الإيمان الصادقين

بأنه ميثاق غليظ فكذلك وصف عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ ﴿ **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ وهنا موضع حكمة ربانية عالية أرجو أن يتنبه لها القارىء الكريم حتى يتبين جلال الزواج فى الإسلام ، فإن الزواج فى الحقيقة ليس مجرد اتفاق بين رجل وامرأة ، وإنما هو فى الحقيقة اتفاق وموثق بين الإنسان والمجتمع فإذا كان ميثاق الإيمان المعقود بين الله سبحانه وأنبيائه والمؤمنين هو أساس عمران الكون فإن ميثاق الزواج هو أساس عمران المجتمع كله وتلك هى الأهمية الكبرى للزواج فى الإسلام .

ومن أسف أن جماعات المسلمين لم تعط عقد الزواج مكانه الحقيق به فمازال عقد الزواج عندنا مجرد عرض وقبول خال من أى التزامات ، حقيقة إن هذه الالتزامات موجودة وهى مبينة فى وثيقة الزواج ولكن عامة الناس عندنا لا يعرفون فى الحقيقة القدر الجليل للعقد الذى يدخلون فيه عندما يتزوجون وغالبيتهم يهتمون بماديات الزواج من مهر وهدايا أكثر من اهتمامهم بروحانياته ، ومعظمهم لا يذكرون أن أهم شىء فى الزواج هو ناحيته الروحية ، أى ذلك الرباط المقدس الذى يربط بين الرجل والمرأة ، وأنا أرى أنهم فى بلاد الغرب قد أعطوا الزواج وعقده من الأهمية أضعاف ما نعطى نحن . فان المسألة عندنا تتم وكأنها أقل شىء أهمية فى الحياة ، وأنت عندما تشترى أى شىء له قيمة مثل الدراجة النارية ، فأنت والبائع تذهبان معاً إلى مكتب الشهر العقارى لكى تسجلا تلك الصفقة الصغيرة ، أما إذا أردت الزواج فأنت تستقدم الدولة كلها ممثلة فى شخص المأذون لكى يعقد لك عقد زواجك وأنت مرتاح فى بيتك ، وهذا فى رأيى لا يليق ، وقد آن أن نعطى عقد الزواج من المهابة والجلال ما هو جدير به فلابد أن يتم العقد فى مكتب محترم تقيمه الدولة فى كل حى للزواج وكل ما يتصل به من شئون ولابد أن يكون هذا المكتب مهيباً محترماً فيه كل وثائق زواج الحى .

والمأذون ينبغى أن يتوقف عن السعى إلى بيوت الناس حاملاً دفتره تحت إبطه حتى يعقد لهم زيجتهم ثم يعطونه مافيه القسمة ، وقد ابتذلت هذه الصورة وساء استعمالها حتى أصبح منظر المأذون وهو داخل بيت العرس منظرا يخلو من الاحترام والمهابة ، وهذه هى صورة المأذون وعقد الزواج فى الكثير من الأفلام والمسلسلات التى نراها ، فهل هذا والله يليق بمقام هذا الميثاق الذى يصفه الله سبحانه بأنه موثق غليظ مثله فى ذلك مثل موثق الإيمان ؟ .

إننى أراهم فى الغرب أحكم منا وأقرب إلى الشعور بمسئولية الزواج وقدره ، فهناك مكاتب زواج رسمية معتمدة مهيبة وموثق الزواج وهو المأذون عندنا موظف محترم جداً يعقد الزواج فى مكتبه بحضور الشهود ، وأنا لا أشير هنا إلى الزواج بعد ذلك فى مكتب خاص فى الكنيسة وهو عندنا يخرج مع العروسين إلى ساحة الكنيسة لشهر العقد يلقى كلاماً قصيراً يبين فيه أهمية العقد والتزامات الزوجين فيه فما دام قد ارتضيا الزواج فينبغى أن يعلما أمام الناس جميعاً أنه عقد مقدس بين رجل وامرأة يدوم حتى يفرق بينهما الموت ، وهذا لا يمنع من الطلاق فيما بعد إذا استحالت الحياة الزوجية ، ولكن الأساس فى أى زواج جاد هو أن يكون لمدى الحياة ثم يعلن القس للزوجين أنه ارتباط على الحلوة والمرة لا يفصمه مرض ولا فقر ولا حاجة ولا أى عامل من عوامل الحياة ، وكلا الزوجين يتعهد بالوفاء والإخلاص والأمانة والحرص على سلامة الزواج ، ومثل هذه الطريقة فى عقد الزواج تعطيه الأهمية الاجتماعية التى ينبغى أن تكون له ، أما طريقتنا فتنقصها القيمة والمهابة ، ومعظم الذين يتزوجون من عوام الناس يعتقدون أن عقد الزواج هو عقد بين سيد وجارية ، فهو سينفق عليه ويستمتع بها وهى ستخدمه وتطيعه وتمنحه الأولاد ، وهذه القيمة القليلة التى لعقد الزواج عند هؤلاء الناس هى التى تهون عليهم الطلاق ، فإن كلمة الطلاق على ألسنتهم من

الصباح إلى المساء ولا توجد زوجة من هؤلاء إلا وهى تتوقع الطلاق من سيدها الذى اشتراها فى كل حين .

الزواج موثق غليظ يعقده الرجل والمرأة معاً على الحب أولاً ثم الإخلاص والتفانى والاشتراك فى حلو الحياة ومرها حتى يفرق بينهما الموت ، هكذا ينبغى أن ندخل فيه ونعيشه حتى نعرف قدره العظيم ومقدار ما يضفيه على حياتنا من رحمة ومودة وسكن للنفس والروح .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّـذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبلهم يُحِبـــونَ مَن هَـــاجَـــرَ إلَيْهِم وَلاَ يجِدون فى صُـدُورِهِم حَاجَـةً مِمَّـاَ أُوتُـوا وَيُؤثِـرُون عَلَى أَنفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصـاصَة وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولئك هُمُ المفلحُونَ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الحشر : الآية ٩]

قال لى صاحبى : آلت إلىَّ هذه التجارة بعد موت أبى ، فسرت فيها على نهج الصحابة أيام رسول الله ﷺ ، والصحابة كانوا يعطون دون أن يترددوا ، فيعطيهم الله على قدر نياتهم ، ومولاى أمير المؤمنين يذكر قول الله فى آيات سورة الحشر أن أهل المدينة من أنصار الله ورسوله أصحاب المدينة ، أحبوا من هاجر إليهم من المهاجرين ، وأعطوهم فى حب الله كل ما كانوا بحاجة إليه ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لأن الله سبحانه وقاهم شح أنفسهم ، فسألت الله أن يقينى شح نفسى ، فاستجاب لى وأصبحت أعطى المحتاج ، فوجدت نفسى أننى كلما أعطيت فى وجوه الخير ربحت من حيث لا أحتسب ،

وقد وجدت كبار التجار أمثالى يكدسون الأموال ويضنون بها ، تحل بهم الكوارث فجعلت على نفسى فريضة وهى أن أقسم ربحى فى نهاية كل عام قسمين ، قسماً أشترى به سلاحاً وخيلاً وأزواداً ، وأبعث به إلى المجاهدين فى الثغور ، وقسماً أرده فى التجارة ، فوجدت الله سبحانه يرد على ما أعطيت فى سبيله ويزيدنى من فضله ، وقبل أن أخرج إلى الحج فى عامنا الماضى أرسلت إلى الثغر بما قيمته ستون ألف دينار للمجاهدين ، وبدأت عامى بنحو عشرة آلاف دينار ، وأراها تزيد وتربح بحول الله ، وأحنى الخليفة رأسه وأطال الفكرة ثم رفعه وقال : والله إنك لأولى بإمرة المسلمين من كل مسلم ، لقد أشعرتنى بضآلة قدرى . امض أيها الشيخ فسر فى طريقك ، فهذه حقاً هى طريق الإسلام .

لهذا اخترت هذه الآية من سورة الحشر ، فهى وما سبقها وماجاء بعدها تبين لنا الخصال التى تميز المؤمنين الصادقين أو التى ينبغى أن تميزهم ، لأن أخلاقيات الإسلام تقوم أساساً على العطاء ، وصدق إيمان المرء يقاس بقدرته على العطاء ، وهنا نجد أن رسول الله ﷺ ، وهو حقا المثل الأعلى للخلق الإسلامى ، كان يعطى كل ما عنده ، وحياته كلها عطاء ، ولا يخدعك هنا ما تقوله كتب السيرة من أنه كان يختار من المغانم صفيًّا لنفسه إلى جانب خمس الله ورسوله ، فقد كان رسول الله يأخذ ذلك حقاً ، ولكن ليعطيه للناس ، ورسول الله ﷺ كان يتصرف هنا بغاية الحكمة ، فلم يكن مقتراً على نفسه متهاوناً فى مظهره فيبدو فى هيئة الفقراء الجوالين من أنبياء بنى إسرائيل الذين نقرأ عنهم فى العهد القديم ، بل كان رسول الله ﷺ رجلاً عارفاً بحق نفسه ، فيلبس أحسن ما يتيسر له من الثياب فى اعتدال بالغ ، وكانت ترد عليه ثياب الحرير وأقبية الصوف الفاخرة فلا يأخذها لنفسه قط ، لأنه كان يريد أن يربى أمته على الاعتدال فى كل شىء ، فلا إسراف ولا إقلال ولا إغداق على النفس ، وإنما يأخذ ما يكفيه من ثياب ، ويأكل ما يسد به جوعه دون تكلف ولا تقشف بالغ

أيضاً ، ولكنه كان حريصاً جداً على النظافة البالغة فى كل شىء ، فثوبه دائماً فى أحسن صورة من النظافة ، ورسول الله ﷺ كان يحرص على أن يغسل ثوبه ، ولكن يقع فى ظنى أنه ﷺ كان فيما يتعلق بالنظافة لا يثق إلا فى نفسه ، ومن ثم فقد تعود الناس أن يروه يغسل ثوبه بيده ، ولم يكن يكتفى بالغسيل بالماء بل كان يضع فى ماء الغسيل شيئاً أبيض يقوم مقام الصابون يسمى النورة ، فإذا فرغ من غسيل ثوبه بالنورة عاد فغسل بماء نظيف ثم نشره بيده فى الشمس ، وفى بعض الأحيان كانت تساعده فى ذلك ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وكانت متفانية فى حب أبيها لا تزال تعنى به وبأشيائه ، ومن هنا كناها الناس بأم أبيها ، وكان أيضاً يبادلها هذا الحب ، وذلك الحنان ، وكما أنها لم يكن ليطمئن لها بال إلا إذا رأته فى الصباح والمساء ، فكذلك هو ، كان لا يزال يسأل عنها ولا يستريح إلا إذا رآها واطمأن عليها .

وليس بغريب والحالة هذه أنها لم تعش بعد أبيها إلا ما بين شهرين أو ستة ، وقد حزنت حزناً بالغاً على أبيها وأنفقت كل وقتها بعد وفاته فى العناية بولديها الحسن والحسين ، ويقال إنها لم تخرج من بيتها بعد وفاة أبيها ، وقد قيل لرابعة العدوية مرة : ماذا تتمنين أن يكون لك فى الجنة ؟ قالت : أن أكون خادمة لأم أبيها سيدتى وسيدة نساء المسلمين . .

وفى الآية التى بدأت بها هذا الفصل من سورة الحشر نجد المهاجرين والأنصار يتسابقون فى العطاء ، وكان فى المهاجرين كثير من الفقراء الذين خلفوا كل مالديهم فى مكة وهاجروا إلى المدينة بالثياب التى كانت عليهم ، وهؤلاء استقبلهم أهل المدينة أحسن استقبال ، وقدموا لهم كل ما كانوا بحاجة إليه ، ولم يكونوا فى الحقيقة بحاجة إلا إلى ما يقيم الأود ، لأنهم فى الحقيقة كسبوا خيرى الدنيا والآخرة عندما هاجروا بدينهم ، وقد كان فيهم فقراء حقا ولكنهم بنص الآية الكريمة خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وإذا

كان الله قـد وصفهم فى أول الآية بـأنهم فقراء فإنه يقـول فى آخرهـا إن أولئك هم الصادقـون ، وهذا القول من الله سبحانـه وتعالى هو عن الدنيـا والآخرة ، ولهذا فعلى الـرغم من أن الكثيرين منهم تحملوا غصص الحاجـة وعاشـوا على القليل حتى أغناهم الله من فضله ، فـإن تصرفهم لم يكن تصرف الفقراء المحتاجين قط بل كانت فيهم دائماً عـزة المؤمن ، وعندما خـرج لمعركة بدر من خـرج منهم نظر إليهم رسول الله ﷺ ، فـرق فؤاده لهم فقال : « اللهم إنهم أذلـة فأعزهم ! اللهم إنهم فقراء فأغنهم ! اللهم إنهم عـراة فأكسهم ، وقد استجـاب الله لرسولـه فعاد من تلك المعركـة من لم تكتب له الشهادة منهم أعزة أغنيـاء من فضل الله . وقد أصاب بلال بن رباح ثوبين ودنانير وسيفـاً من مغانم بدر ، فأخذ السـيف وثوباً ونصف الدنـانير ، وقدم الباقى لرسـول الله ليعطيه لمن يشاء ممن يحتـاج إليه من المسلمين .

وهـذا الخلق الكـريم : خلق العطـاء والاكتفـاء بـالقليل وإيثـار الإخـوة المسلمين بما زاد على الحاجة ، أصبح الخلق الشائع المتبع بين رجـال أمة الإسلام فى العصر النبـوى ، ولهذا يقول الله سبحـانه فى نفس السـورة وبعد الآيـات التى ذكرناها : **﴿ والَّذين جَـاءُوا من بعدِهم يقُولـُون ربَّنَا اغفر لنا ولإخـوانِنا الَّذينَ سبَقـونا بـالإيمانِ ولا تَجْعَلْ فى قلوبِنا غِـلاً للذين آمنـُوا رَبنا إنك رؤوفٌ رحيمٌ ﴾** [الحشر ٥٩/ ١٠] .

وأحب أن أقول هنا التحـديد إن المراد بالذين جـاءوا من بعدهم ليسـوا على وجه التحديد من هاجر إلى مكة بعد المهاجرين الأولين ، بل المقصود كل أجيال المسلمين بعد جيل الصحابة إلى أيامنـا هذه ، فانظر والله إلى أجيال المسلمين يلى بعضها بعضاً ، وكل جيل يدعو لنفسـه ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، ثم يسألون الله ألا يجعل فى قلوبهم غِلاً للذيـن آمنوا ، ولو أن أمم الإسلام وأجيالهم سارت على هذا النهج الكريم لما غلبهم بعـد ذلك غالـب . ولكن قلب الإنسان

منا يعتصر اعتصاراً وهو يرى أجيال المسلمين لا يحمل جيل منها للمؤمنين غير الغل والبغض ، فوقعت بيننا الخلافات والفتن ، ودب فى مجتمعاتنا الشر ، وبدلاً من أن نكون أمة من المؤمنين الصادقين الأعزاء بإيمانهم ومحبتهم بعضهم لبعض أصبحنا أمة الخلاف والبغضاء ، فحل بنا الفقر والتخلف والخسران .

وفى نفس هذا السياق من الآيات فى سورة الحشر نقرأ : ﴿ **ما أفاء الله على رسُولِهِ من أهلِ القُرى فلِلَّه وللِرسُولِ ولذِى القُربى واليَتامىَ والمساكِينِ وابنِ السبيلِ كى لا يكُون دُولة بَينِ الأغنياءِ منكُم وما آتاكُم الرسُول فخُذوهُ وما نهاكُم عنهُ فانتهُوا واتقُوا الله إن الله شديدُ العِقابِ** ﴾ .

[الحشر ٥٩ :/ ٧].

وهذه الآية تخص أموال الفيوء ، والفيء : كل مال وصل إلى رسول الله ﷺ دون أن يحارب المسلمون فى سبيله ، لأن الأموال التى تتأتى للمسلمين بالحرب والخيل والركاب فهى المغانم ، والمثال الذى يذكره الفقهاء لأموال الفيء هو مثال فدك ، وفدك مدينة صغيرة فى شمالى جزيرة العرب على نحو خمسين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى من خيبر، وكان أهلها يهوداً ــ مثلهم مثل أهل خيبر ــ فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر وأجرى على مغانمها حكم المغانم ثم ترك أهلها على أرضها يزرعونها ويؤدون للمسلمين نصف غلة أراضيها ونخلها ، خاف أهل فدك على أنفسهم فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه الدخول فى طاعة الله ورسوله ويجرى عليهم حكم الله كما حدث فى ثمرات خيبر ، فقبل رسول الله ذلك واعتبر المال المتأتى من فدك دون قتال من جانب المسلمين فيئاً من الله على رسوله خاصة يتصرف فيه بما فيه صالح المسلمين ، وأنت ترى مصارف الفيء كما حددتها الآية ، فهى لله ورسوله أى لبيت مال المسلمين والرسول ـ بصفته نبى الأمة ورأس أمة الإيمان ـ يتصرف فيها بحسب حاجات الأمة ، ثم تنص الآية على طوائف من

المسلمين لهم حق معلوم فى تلك الفيوء . . وهى طوائف ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وأهم شىء تنص عليه الآية العظيمة هو أن هذا المال ينبغى ألا يصيب منه الأغنياء غير المحتاجين ، لأن هؤلاء إذا استولوا على مال المسلمين أو جزء منه قصروه على أنفسهم ، وأصبح دولة ــ أى قوة ــ فى أيديهم يتبادلونها فيما بينهم ، ويذلون بها الناس ، ورسول الله ﷺ هنا رمز لرؤساء الدول الإسلامية التى قامت بعد العصر النبوى ، والله سبحانه يجعل رسوله مشرعاً له الحق فى أن يقرر ما يرى فى شئوننا ، ونحن ملزمون بأن نأخذ ما أمرنا به الرسول وترك ما ينهانا عنه .

وأنت إذا تدبرت هذه الآية ملياً وجدت أموال الفيوء انتهت بوفاة رسول الله ﷺ وحلت محلها بعد ذلك أموال الضرائب والجمارك وكل إيرادات تصل إلى الدولة ، فهذه أموال تتجمع للدولة دون حروب ولا خيل ولا ركاب وواجب الدول هو التصرف فيها على أنها أموال فىء ، وتنفق فى صالح الجماعة أى الأمة ، وخاصة أهل الحاجة ، وفى عصور الإسلام الماضية أصبحت الأمة كلها أصحاب حاجات ، والحاجات هنا هى المرافق من طرق ومنشآت ومساجد ومدارس ومستشفيات وكل ما ينفع الأمة ، أما أن يحتفظ الخليفة أو السلطان بأموال الضرائب ــ أيا كان نوعها أو اسمها أو شكلها ــ ليتصرف فيها كما يشاء . . فمخالفة لشرع الإسلام . وقد أدت هذه المخالفة إلى فساد الشئون المالية فى دول الإسلام كلها ، فقد أصبحت بالفعل دول بين أيدى الأغنياء وهم رؤساء الدول وحواشيهم . وأصبح هؤلاء الأغنياء الذين يستولون على مال الله ويديرونه بينهم تاركين المحتاجين والمرافق لا تنفق الدولة عليها شيئاً ، ويتبين من هذا مدى الخطأ الذى وقعنا فيه نتيجة لسوء التصرف فى موارد الدولة ، فقد قامت فينا فى الماضى حكومات فرضت علينا بالقوة ، وعلى رأس كل حكومة قام خليفة أو سلطان بعد وزير ورجال إدارة هم إلى الشيطين أقرب ، وهذه القلة القليلة من

السادة تعتمد فى فرض سلطانها على جند تؤلبهم بالمال أو تشتريهم ، وكان المفروض أن الهيئة الحاكمة لابد أن يختارها الناس كما اختاروا أبا بكر ، ولم يكن يحكم وحده بل كانت حوله جماعة الصحابة التى تربت على يد الرسول ، فهى تعرف الحق والعدل لأنها عاشت ونمت فى ظل رمز الحق والعدل وهو رسول الله ﷺ ، ولهذا فقد استطاع أبو بكر أن يواجه مشكلة الردة ويقضى عليها وعلى المتنبئين ، ويعيد وحدة الأمة ، لأنه اعتمد فى تنفيذ قراراته على الأمة التى اختارته . ومع أن الذين نسميهم مرتدين لم يكن فيهم إلا القليلون جداً ممن ارتدوا عن الإسلام فعلاً ، فإن أبا بكر قال فى مناقشاته مع الصحابة إنه يحاربهم لأنهم أرادوا أن يتوقفوا عن أداء الصدقات ، وقالوا : نحن لا نؤدى لك ياأبا بكر الصدقات لأن الأمر بأخذها صدر من الله لرسوله فهو سبحانه يقول ٠ ﴿ **خُذْ من أَموالِهِمْ صدَقةً تطهِّرهُمْ وتزكِّيهِمْ بها وَصَلِّ عليهِمْ** ﴾.

[التوبه ٩/ ١٠٣] .

وقالوا إن الأمر هنا صادر من الله سبحانه لرسوله الكريم ، وليس لأبى بكر الحق فى أن يضع نفسه مكان رسول الله ﷺ . ولهذا فنحن لا نؤدى هذه الصدقات إلى أبى بكر ، وعمر بن الخطاب فى حوار الصحابة قال إن مبالغ الصدقات ضئيلة وهى لا تستحق أن نحارب الناس عليها ، ولكن أبا بكر قال ما معناه إننى خليفة رسول الله ﷺ ورسول الله لم يكن يأخذ هذه المبالغ لنفسه بل للأمة ، وللصدقات مصارف معروفة بينها القرآن الكريم : ومصارف الصدقات كلها خير للأمة ، وأنا لا أعطل حكماً من أحكام القرآن إكراماً لأى مخلوق ، ولهذا فأنا أعتبرهم مرتدين وأحاربهم على أنهم مرتدون ، وحاربهم فعلاً ونجح فى إعادة وحدة الأمة .

وأنت ترى أن هذه القضية كلها ــ قضية الردة ــ قامت على أساس من

الصدق والإخلاص للأمة ، فأبو بكر ـ الذى اختارته الأمة ـ حارب فى سبيل الأمة وصالحها ، فهو نفسه لم يصب درهماً من أموال الصدقات ، ولا أخذ مجاهد مسلم درهماً فى مقابل حربه للمرتدين ، لأننا هنا أمام أمة صادقة مخلصة ، والصدق والإخلاص على رأس أخلاقيات الإسلام .

وأنا عندما أفكر فى أخلاقيات الإسلام أو أكتب فيها أتحاشى أن أنطلق مع الكلام النظرى أو أسترسل مع تأملات تجعلنى أقرب إلى خطباء الجُمُعَاتِ فى المساجد ، فهؤلاء يقدمون لنا فى خطبهم قواعد ونصائح جيدة ، ولكننا فى الحقيقة لا ندرى ماذا نفعل بها ، وعلى سبيل المثال أذكر أننى سمعت فى الإسكندرية من أسابيع خطبة الجمعة ، والخطيب تحدث عن حقوق الجار ، ولكن كلامه كله نصائح ومواعظ لا يتحصل منها شىء ، لأن الجار والجوار قد تغير فى أيامنا ، ولم نعد نستطيع تطبيق أى قاعدة من قواعد حسن الجوار التى يقدمها لنا الخطيب ، لأن العصر الذى يتحدث عنه قد انتهى بكل تفاصيله ، وانتهت البيوت الكبيرة التى كان الناس يسكنونها ويتعايشون فيها على أساس أن جارك أخوك ، وأنك ملزم برعايته وحفظ حقوقه والنظر إلى أهله على أنهم أهلك . وقد عرفت الحياة فى متلك البيوت الكبيرة القديمة وأنا صبى ، وكانت أبواب الناس مفتحة والنسوة يعشن فى جماعة واحدة ، وما طبخت أسرتى شيئاً إلا أهدت منه طبقاً لجيرانها ، ولكنى أقول ذلك لأن تلك الحياة كانت حافلة بالشقاء ، وكانت بين الجيران من المشاجرات ما تبلغ حدته مبالغ الحروب ، ولا أنسى قط تلك المشاجرات بين النسوان وما كان بعضهن يقلن لبعض من بذىء القول بأعلى صوت ، وكان الرجال يدخلون هذه المشاجرات ويصبح البيت كله « حريقة » وما يسمونه أيام زمان الحلوة كانت أيام قطران تعيسة ، لأن الصداقة والمحبة والوفاء وما إليها من فضائل الإسلام كانت تمارس نظرياً لا عملياً ، فالرجل صادق معك حتى تبدوله مصلحة صغيرة تتعارض مع مصلحتك ،

وهنا ينقلب عدوًّا لك . لأن أحداً لم يهتم بأن يبين للناس الخط الفاصل بين الخير والشر ، بل لم يهتم أحد بأن يبين للناس فضائل الخير . والشيوخ الذين كانوا المتعلمين فى ذلك المجتمع القديم لم يقوموا قط بواجبهم الأساسى وهو توجيه الناس إلى الطريق المستقيم بحكم معرفتهم بالكتاب والسنة .

ولكنى وأنا صغير جداً تبينت أن أولئك الشيوخ لم يكونوا أحسن حالاً من عامة الناس ، بل كانوا أكثر تزاحماً على فتات الدنيا ، لأن معظمهم كان ينشأ من مناشىء متواضعة جداً ، وكانت معظم أيامهم شظفاً ، فتربت فيهم خصال الحرص والطمع ، وقامت بينهم العداوات الحامية على الملاليم ، وأذكر أنه كان يقرأ القرآن عندنا فى البيت شيخ يسمى الشيخ توفيق ، فعهدت إليه جدتى أن يشرف على تحفيظى القرآن ، فكان يدخل وفى يده جزء من أجزاء الكتاب الكريم الذى يبدأ بسورة النبأ وأولها ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة النَّبأ : ١ ــ ٢] وهو جزء صعب الحفظ على الصغار ، ففيه الكثير من أوائل السور المكيات من أمثال النازعات والتكوير والانفطار وما إليها ، وكان هذا الرجل يقول لى أول ما يدخل : اذهب إلى جدتك وقل لها إن الشيخ توفيق قد وصل وهو يطلب الإفطار ، وكانت جدتى تسمعه وتقول : حاضر ياشيخ توفيق ، ابدأ فى تحفيظ الولد وطعامك سيأتيك على ما تشتهى . وأفتح الجزء وأمضى أقرأ فى سورة النبأ وأخونا ليس معى لأن عقله وقلبه معلق بالطعام ، ويأتى الطعام وصاحبنا ينظر فيه ويستزيد من كل شىء : من السمن والخبز والمشهيات ، وينقض الرجل على الطعام بصورة بشعة وأنا أقرأ ، فإذا فرغ من الطعام رفع قلة الماء وصب منها فى جوفه شلالاً ، ثم طلب الشاى وقال لى : اذهب وائتنى بسيجارة من علبة أبيك ، فأقول له : إن تلك العلبة فى حجرته وهى مقفلة وهو لا يحب أن يدخلها أحد فى غيابه فيقول : ليس من الضرورى أن تقول له : تسحب إلى داخل الحجرة وائتنى بالسيجارة ولا من درى ولا من

سمع ! وأقول له : ياشيخ توفيق إن هذه تعتبر سرقة وأنا لا أستطيع أن أسرق أحداً فضلاً عن أبى ، فكان يشرب الشاى رشفا بصوت مرتفع وهو غاضب فإذا فرغ منه نهض وقال : غداً أسمع لك الصفحة الأولى من سورة « قد سمع » وليكن فى علمك أننى آكل فى الإفطار رغيفين ثم أشرب الشاى ولابد أن أدخن بعد ذلك سيجارة لكى أستطيع بعد ذلك أن أعمل ولا يهمنى كيف تأتينى بالسيجارة ، المهم أنك تعرف ذلك كله من الآن ، ثم انطلق خارجاً .

وقصصت ذلك كله على جدتى ، فاستمعت إلى صامتة ولم تقل شيئاً ، وفى اليوم التالى عندما حضر الشيخ توفيق دخلت إليه جدتى ووبخته توبيخاً شديداً وقالت له : أتينا بك لتحفظ الولد القرآن وتصلح أخلاقه لا لتفسدها ، ونحن لهذا لا نريد منك شيئاً ، ستأتيك الخادمة بإفطارك كما تحب ، فكل وانصرف ولا تعد إلينا مرة ثانية .

وإنما ضربت لك هذا المثل لترى كيف أن هذه الأمة لم تجد من يربيها ويرشدها إلى الطريق القويم ، فهذا الشيخ الذى أتوا به ليعلمنى ويحفظنى أعظم ما من الله بـه على البشر ، وهو القرآن ، هذا كان تصرفه ، لأن الأخلاق عنده كانت نظرية تختلف عن الواقع ولا تطابقه ، فهو يحفظ القرآن فعلاً ، ولكنه ماكان ليعمل بشىء مما فيه ، والسبب فى ذلك هو أن الفقر الشديد الذى كان هذا الرجل يعيش فيه كان يحول بينه وبين إدراك القيم الإسلامية الرفيعة ، فهو يصارع فعلاً فى سبيل لقمة العيش صراع المستميت ، ولكن صراعه هزيل ضئيل ، ولهذا فإن هذا الرجل لم يفلح فى أن يعلمنى ولو جانباً يسيراً من فضائل الإسلام ، لأنه هو نفسه كان بعيداً عن ذلك كل البعد .

إن مكارم الأخلاق الإسلامية التى بعث رسول الله ﷺ ليتممها فضائل جماعية ، وكل الفضائل واردة فى القرآن الكريم ، ففيه الصدق والإخلاص

والأمانة والمحبة والشهامة والكرم والوفاء ، وهى فى القرآن جماعية لا فردية ، أى أن الصدق فى الإسلام عام ينبغى أن يسير عليه كل الناس حتى تتجلى فوائده وخيراته ، وأنت لا تستطيع أن تكون صادقاً وكل من حولك كاذبون ، وهذه الجماعية فى الخلق والتصرف هى التى قضى رسول الله ﷺ حياته فى نقل المجتمع العربى إليها ، وأنت ترى فى آيات سورة الحشر التى أتيتك بها أنها تثنى على محبة الأنصار للمهاجرين ووفاء المهاجرين لقضية الإسلام ، ورسول الله المعلم اجتهد فى أن ينشىء أمة إسلامية مترابطة بالفضائل متعاونة بالعطاء ، فالمسلم الحق يعطى قبل أن يأخذ ، ويفكر فى أمة الإسلام قبل أن يفكر فى نفسه ، وهو إذا فعل ذلك نجح ونجحت أمة الإسلام ، أما حب النفس والأنانية وتكالب كل إنسان على مافيه خيره وخير أسرته الصغيرة دون نظر إلى الآخرين فليس بالخلق الإسلامى ، ثم إن أخلاقيات الإسلام كلها عملية ، فالإسلام لا يعرف الرهبانية ، ولا يحب الإنسان الكسول الذى يقضى عمره فيما يسميه العبادة ، منصرفاً عن السعى ومعتمداً فى حياته على جهد الآخرين ، إنما نحن مطالبون بأن نعبد الله معا ونعمل معا ونجاهد معا .

ويستوقف نظرى أن الأمم القوية التى سادتنا فعلت ذلك من دوننا فأفلحت وتعثرنا ، فكأن الإسلام نزل عليهم لا علينا ، وكأنهم هم المؤمنون ونحن الكفار ، وهذا الكلام قال شيئاً فى معناه الشيخ محمد عبده وهو واحد من القلائل الذين فهموا الإسلام وعاشوا واجتهدوا فى دفع المسلمين فى طريق العلم والفهم والعمل الجماعى ، وقد شقى بهذا السبب وحاربوه وأتعسوه ثم عادوا بعد ذلك يرفعون قدره ويفتخرون به ، وهذا مثال من كثير نفهم منه أسبابي هذا الفشل وذلك الفقر الذى تعانيه أمة الإسلام جميعاً .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[فاطر : الآية ١٠]

بهذا الفصل نصل إلى نهاية هذه الدراسة ، التى قصدنا من ورائها إجمال فضائل الإسلام فى عشرين موضوعاً اخترناها كلها من القرآن الكريم ، والحديث فى فضائل الإسلام يمكن أن يمتد بنا إلى غير نهاية ، فما من خير فى النفس أو فى الكون ، داخل الإنسان أو خارجه ، إلا وجدناه فى الإسلام ، ووجدنا فى القرآن آيات بينات تؤيده بأجلى بيان ، وأظن أن فيما كتبناه من الفصول ما يكفى لإطلاع المسلمين ، وخاصة الشباب ، على الفضائل الكبرى التى يتميز بها دينهم العظيم ، ورسم طريق العزة والقوة والتوفيق أمامهم عن طريق الفهم الصحيح للقرآن ، والاستمتاع بما تضمه آياته من عظائم المعانى وروائع التعبير المحكم الصادق البليغ عن كل معنى شريف .

وإذا كنت مسلماً صحيح الإسلام ، فإنك لابد أن تكون محزون القلب على أحوال المسلمين اليوم ، فقد أخذوا أعظم هدية أهداها الحق سبحانه وتعالى للناس ، ولم ينتفعوا بها ، وكان فى إمكانهم أن يصلوا بها إلى قمة العزة والقوة

والنجاح فى هذه الدنيا والآخرة ، لو أنهم صدقوا فى إيمانهم وعملوا بما تتضمنه العقيدة الإسلامية من هدى رشيد ، ولكننا مع الأسف البالغ ضيعنا الجوهرة الغالية ، وقنعنا بعد ذلك بالتراب .

والعجب مع ذلك أن تجد المسلمين يلقون المسئولية فى ذلك التخلف الذى هم فيه ، على الآخرين ، وقد ضمنى منذ حين مجلس دار الحديث فيه عن المستشرقين ، فتبارى القوم فى الحملة عليهم ، كأنهم هم المسئولون عما تعانيه أمم الإسلام ، ولم أشترك فى المناقشة لأننى أحسست أننى فى واد وأصحابنا أبطال الحملة على المستشرقين فى واد ، وأنا أعرف معظم ما كتب المستشرقون عن الإسلام . ولكن لا ألومهم على شىء مما كتبوه ، لأن الواقع أنهم لم يكتبوا لى ولا لأحد من المسلمين ، ولكن لأقوامهم ، والغالبية العظمى من أهل الاستشراق لا يؤمنون بالإسلام ، وقراؤهم مثلهم ، وماداموا جميعاً كفاراً يديرون الكلام فيما بينهم ، فما شأننا بهم وبما يقولون ؟ ومادام الإنسان كافراً بالإسلام منكراً لحقيقته ففيم نلومه ؟ وفى أكثر من آية قرآنية يأمر القرآن رسولنا ﷺ أن يدع الكفار فى غيهم فما هو بمستطيع هداية إنسان واحد إلا أن يريد الله .

ولكننى ألوم المسلمين ، لأنهم إلى يومنا هذا لم ينتبهوا لفضائل الإسلام ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون بها ، وقد رأيت أن القرآن الكريم قد حوى كل أسرار العزة والقوة للمؤمنين به ، إذا عرفوا كيف يفيدون منها كما علمهم رسول الله ﷺ ، فقد كان الرسول يعرف أن الإسلام إيمان وعلم وعمل ، والإيمان الإسلامى لا يكون صحيحاً إلا إذا كان إيجابياً أى حافزاً للمؤمن على السير فى الاتجاه السليم و إلتزام الفضائل وطلب العلم والاجتهاد فى توجيه العلم فى صالح الحياة ، وأنا عندما أقرأ تفاسير القدماء للقرآن الكريم أعجب بما بدلوا من الجهد فى تفصيل شكليات العبادات ، ولكنى أتعجب من وقوفهم عند الظواهر وتركيزهم الكلام على الشكليات ، وعبادات الإسلام قليلة ، والقيام بها على وجهها يتطلب منك

خلوص النية والصدق مع نفسك ومع الله سبحانه وتعالى ، وأنا منذ وعيت لم أقصر فى حق من حقوق الله سبحانه ، ولا أذكر أن ذلك كلفنى وقتاً يذكر ، لأننى لا أنسى أن الله سبحانه أمرنا بأن نقضى صلاتنا وهى أم العبادات ، ثم ننتشر فى الأرض فى طلب الرزق ، ومن عجب بعد ذلك أن تجد الكثيرين من المسلمين يرجون من الله أن يرزقهم وهم قعود مكافأة لهم على الصلاة والصيام ، وقد فاتهم أن العبادات شىء وطلب الرزق شىء آخر ، حقاً إن العبادات توجهك إلى طلب الرزق فى الطريق السليم ، ولكن الله سبحانه يرزق كل إنسان على قدر عمله ، حتى لو كان كافراً ، وها أنت ذا ترى الأرزاق الواسعة التى يملكها الكفار فى أيامنا هذه ، وإنه لمن العار علينا نحن المسلمين أن نرضى بهذه الأوضاع التى نعيش فيها ، ولو رآنا رسول الله ﷺ على هذه الحال لما رضى عنا قط ، لأن رسول الله كان يرى أن الإيمان والعزة صنوان ، والمؤمن يعزه إيمانه ، وكذلك عمله ، وقد أشرت فيما سبق إلى الآية الثامنة من سورة « المنافقون » التى تقول : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ وقلنا إن الله سبحانه وتعالى يعطى رسوله الأمين والمؤمنين الصادقين جانباً من عزته ، والعزة معناها هنا القوة والغنى وارتفاع الشأن ، ولو أنا كنا مؤمنين بالإسلام حق الإيمان لكنا أعزة بهذا الإيمان ، وقد كان رسول الله يعز نفسه وأصحابه بالعمل ، وقد أخطأ القدامى عندما قصروا العمل على العمل الدينى أى القيام بالعبادات ، مع أن الأعمال الصالحة تشمل العبادات وكل عمل يؤتى الإنسان خيراً فى هذه الدنيا ، وكان رسول الله آية فى الاجتهاد والعمل ، وكذلك كان أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وإن الانسان لا يصدق أن أبا بكر وأصحابة معه استطاعوا القضاء على المتنبئين والمرتدين ، وإعادة وحدة الأمة فى أقل من عام ، وأنا أعجب بالكثير جداً فى أبى بكر وعمر ، ولكن أكثر ما يستدعى الاعجاب فيهما هو ذلك العمل المتصل لما فيه خير المؤمنين ، وكان عمر إلى جانب عباداته لا يكف عن العمل ، حتى إنه كان

ينفق الساعات فى قراءة كتب القواد الذين يقومون بالفتوح ، ويعيد قراءة الكتاب أكثر من مرة ، ولكى يستوعب المعلومات التى يفضون بها إليه كان يرسم بعصا صغيرة على الرمل خرائط المعارك لكى يتصور مواقف المسلمين تصوراً صحيحاً ، وفى بعض الأحيان تحس أنه مع القادة والجنود فى المعارك ، وهذا لا يكون إلا بجهد فكرى بالغ .

ومن أكبر أسباب انتصارات المسلمين الأول هو تمسكهم بالصدق الكامل فى كل مايقولون . ورسول الله ﷺ كان يتحرى الصدق فى كل شىء ، حتى فى معاملته للكفار ، وكان الكفار والمنافقون يكذبون عليه ، وكان يعرف أنهم كذابون ، ولكنه مع ذلك كان لا يعاملهم إلا بالصدق . لأن الصدق قوة كبرى ، وإن أصحابه يصدقون معه فى كل شىء ، وكان يقدر الناس على قدر صدقهم ، والقرآن الكريم امتدح الصدق ، وحث المؤمنين عليه ، ومن أسف أن أمم الإسلام فى العصور الماضية نسيت الصدق ، وتعاملت بالخداع والكذب ومن منتصف العصر الراشدى دخل الكذب حياة المسلمين ، ومع الكذب دخل الفقر والضعف ، وقد رزق الله أمة الإسلام فى عصر الفتوح من الأموال مالم يكن يخطر على بال مسلم ، ولو أن أمة الإسلام شكرت الله سبحانه بالصدق فى المعاملة لما نزلت بها مذلة أبداً . وقد عرف عمر بن الخطاب فضل الصدق ، وحث الأمة على التزامه . وإذا نحن قرأنا خطاباته إلى عماله وقادته تبينا أن عمر ابن الخطاب وجيله من الصحابة قد بلغوا مابلغوا من النصر والسيادة بفضل ما آتاهم الله من الإيمان العميق بالله وحرصهم على الفضائل ، وإن الإيمان العميق والتمسك بفضائل الإسلام كان فى الحقيقة سبب تلك القوة الهائلة التى جعلتهم أقوى من أى عدو لقيهم مهما كان سلاحه . فاقرأ مثلا الكتاب التالى الذى بعث به عمر بن الخطاب إلى قادته فى معركة اليرموك ، والخطاب وارد فى كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى قال : عن سماك قال : سمعنا عياضاً الأشعرى قال :

شهدنا اليرموك وعلينا خمسة أمراء : أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد وعياض - وليس عياض هذا بالذى حدث سماكاً - قال : قال عمر : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة : قال : فكتبنا إليه : إنه قد جاش إلينا الموت [**يريد أن الأعداء تجمعوا عليهم وهو يخشى أن يقضوا على المسلمين**] واستمددناه . فكتب إلينا : إنه جاءنى كتابكم تستمدوننى ، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً : الله عز وجل ! فاستنصروه . فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى ! قال : فقاتلناهم فهزمناهم) .

فانظر إلى هذا الرجل العظيم ثقته فى الله وإيمانه الذى لا يتزحزح بأنه سبحانه ناصر من ينصره ، وهو يقول لرجاله وهم يواجهون الموت فى معركة دامية : لا تستنصرونى أنا ، فإننى لا أملك لكم نصراً ، ولكن استنصروا الله سبحانه ، فهو العزيز ذو القوة ، وهو أعز نصرا وأحضر جنداً ، ثم يضرب لهم المثل الخالد : مثل انتصار رسول الله وأصحابه يوم بدر وقد كانوا أقل عدة من المسلمين يوم اليرموك ، ولكنهم كانوا أعزة بإيمانهم ، وهم عندما آمنوا بالله إيماناً صادقاً أعطاهم جل جلاله جانباً من عزته ، فإن العزة لله وحده ، وهو يهب منها ما يريد للمؤمنين الواثقين ، وتصبح العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ثم ينصح رجاله باستنصار الله سبحانه ويقول لهم : إنه لن يرسل إليهم أحداً فعليهم لقاء العدو دون أن يراجعوا عمر ، ففعلوا ونصرهم الله النصر المؤزر ، وإنما نصرهم الله بإيمانهم العظيم . وتلك هى الروح التى ينبغى أن يواجه المسلم بها مشاكله ، فهى مهما عظمت لا تثبت للإيمان الصادق ، وهذا هو الذى ينقصنا اليوم ، فنحن اليوم نقف عاجزين أمام المشاكل ، لأن قلوبنا فى الحقيقة خالية من الإيمان الحقيقى .

وفى خطاب آخر من عمر إلى سعد بن أبى وقاص يقول : (إنى قد ألقى

فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هـزمتموه ، فاطـرحوا الشك وآثروا التقيـة عليه . فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفـه بإشـارة أو لسـان كان لا يدرى الأعجمى ماكلمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك مجرى الأمان . وإياكم والضحك . الوفاء الوفـاء فإن الخطأ بالـوفاء بقية . وإن الخطأ بـالغدر الهلكة ، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم . واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شَيْناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم .

وهذا الخطاب القصير من عمر بن الخطـاب إلى قائده سعد بن أبى وقاص يضم من جلائل الفضائل الإسلامية التى تميز بها هذا الرجل العظيم وجيله ماهو جـديـر منا بأن نفصلـه تفصيـلاً ، فإننى لا آتى بهذه الأمثلـة رغبـة منى فى مجرد التمدح بالماضى كما يفعل الكثيرون منا ، وإنما أنـا أريد منك أن تقف منه على جوانب القوة والعزة التى يودعها الإسلام فى قلوب المؤمنين الصادقين به ، وإليك تفصيل الحكمة العمـرية التى ضمنها هذا الـرجل فى خطابه قائلاً لسعـد : إنه يحس إحساساً عميقـاً بأنهم إذا لقوا العدو هزموه . ولهذا فهو يـوافيهم بنصائحه التى ينبغى أن يسيروا عليها بعد النصر حتى يستمروا منصورين إن شاء الله .

فعليهم ألا يشكوا أبداً فى أن الله ناصرهم ، وبدلاً من الشك فإن عليهم أن يملئوا قلوبهم بتقوى الله . والتقوى هنـا ليس معناها التقية أى الخوف من الله . فإن المؤمن الحق يحب الله ، وهو عنـدما يقول إنه يخافـه يريد أن يقول إنـه يحبه ، فكأن عمر يقول لهم : إن خير مايفعلونه هو أن تمتلىء قلوبهم بمحبة الله فيؤتيهم سبحانه النصر والعزة .

وعمـر يعلم أن المسلمين بعد أن يكسروا قـوة الفرس ويبددوا جيـوشهم ، تنفتح البـلاد أمامهم ويصبح العجـم من أهل العراق وفـارس وجهـا لوجـه مع المسلمين ، وهـؤلاء الأعـاجم خضعـوا لطواغيـت الفرس سيـارعـون بإعـلان

طـاعتهم للمسلمين أمـلاً فى أن يجدوا العدل عنـدهـم . ولكن أولئك النـاس لا يعـرفون العـربية ، ولا العـرب يعرفـون العجميـة ، ولهذا فإن تفاهـم العـرب مع الأعـاجم سيكون بـالإشارة ، وستصـدر عن أولئك الناس إشـارات باليـد ، أو ستصدر عنهم كلمات معنـاها أنهم يريـدون الأمان مع العـرب ، فعلى العرب أن يعتبروا أى إشارة تصدر من أولئك الناس ، ومعظمهم فلاحون فى القرى ، طلباً للأمان ، وواجب العرب أن يؤمنوهم فى الحال .

ثم يحذر عمـر المسلمين من الضحك والسخـريـة بـالنـاس ، فإن أولئك الناس عانوا من ظلم حكـام الفرس الكثير ، ولهذا فإن الفزع سيصيب الكثيرين منهـم ، فتصـدر عنهم أعمال فيها بعض مـا يضحك ، وحـذار من الضحك فى أمثال هذه المواقف ، فإن معناه أن العرب يستخفون بالناس ، وهذا الاستخفاف بـالضعفاء الخائفين ليس من أخـلاق المسلمين ، ولهذا فإن عليهم احترام أولئك الناس وإقناعهم بالتصرف الحسن الكريـم . إنهم يمثلون الإسلام ، وهو جامع فضائل الإنسانية ، وفيه عز لكل من دخل فيه .

ثمّ يأمر عمـر المسلمين بالوفـاء ، لأن الوفاء فضيلـة إسلامية وإنسـانية ، والمسلم الصادق لا يمكن إلا أن يكون وفياً .

وحتى لو كان الوفاء خطأ ، وتبين بعد ذلك أن أولئك الناس الذين وفى لهم كانوا مخادعين ، فإن وفاء المسلمين بعهودهم فيه بقاؤهم مهما كانت النتائج .

وإذا أخطأ المسلمون وغـدروا كان فى ذلك هـلاكهم ، والغدر ضعف غير لائق بالمسلمين ، وفيه ضعفهم وقوة عدوهـم .

وإذا غدر المسلمـون بالناس انهزمـوا بعد ذلك ، وذهبت ريحهم ، وانتصر عليهم الأعداء وأقبلت ريح أولئك الأعداء .

ثم يحذر المسلمين من مغبة الغدر والخيانة ، ويـرجوهـم ألا يكونوا عاراً على

أمة الإسلام وسببا من أسباب ضعفها .

فانظر والله إلى هذا العقل العمرى العظيم الذى أعزه الله بالإيمان ، وفاض قلبه بالعزة ، حتى ليبلغ من روح الجد عند هذا الرجل أن يقول للمسلمين إنهم إذا لم يكونوا صادقين معتزين بدينهم متمسكين بفضائله ، ذهب أمرهم وغلبهم غير المسلمين .

وقد تحدثت فى بعض فصول هذا الكتاب عن الإسلام والعلم وقلت : إن المسلم الحق لا يصح أبداً أن يكون جاهلاً ، فإن القرآن علم ، والإسلام علم ، والعلم هو قوة الإسلام الكبرى ، وسآتيك الآن بخطاب من عمر بن الخطاب تتبين منه حرصه على العلم ، وهو فى هذا الخطاب لا يطلب أى علم ، بل يريد العلم الدقيق المفصل حتى يتصرف على ضوء هذا العلم .

كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص يقول : أما بعد . . فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والقوة والحسبة ، ومن غفل عنها فليحدثها (أى أن المسلم إذا أحس أنه غفل عن الموعظة والقوة وإحتساب أعماله كلها فى سبيل الله فليذكر نفسه بذلك وليعد إلى الإيمان السليم) والصبر الصبر ! فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر . . على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . واكتب إلى أين بلغ جمعهم ؟ ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؟ فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتهم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ولا تدل بشىء ، واعلم أن الله وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر (أى للإسلام) بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم .

فعمر هنا يعتمد فى تصرفه على خصلتين إسلاميتين أساسيتين : الإيمان الكامل بالله سبحانه ، ثم بالعلم ، وهو هنا لا يطلب من سعد بن أبى وقاص أى علم ، بل العلم الكامل بالجبهة وما فيها ، فهو يطلب إلى سعد أن يصف له البلاد التى يحارب فيها وصفاً بالغ الدقة ، صفة كأنه ينظر إليها ، ويجعله من أمرهم على الجلية ، وهو هنا يطلب تقريراً مفصلاً يتصرف على ضوئه ، وعمر هنا يتحدث بلسان رجل من أبناء عصرنا وهو عصر العلم ، وهو يعلم أن النجاح فى الحياة لا يكون إلا بالجد البالغ والعلم الدقيق ليكون التصرف على أساس من العلم ، وهو يحذر المسلمين فى آخر خطابه ألا يتخلوا عن الإيمان الصادق الكامل ، لأنهم إذا فعلوا ذلك انصرف عنهم الله سبحانه ، ونظر إلى قوم غيرهم .

ونحن اليوم نعيش فى عصر الإيمان والعلم ، ولا يقعن فى بالك قط أن الأمم القوية السائدة فى عصرنا غير مؤمنة ، إنهم يؤمنون بأنفسهم وبما يعلمون ، والروس الذين نقول إنهم لا يؤمنون بالله ، يؤمنون بأشياء ثلاث لا شك عندهم فى أنها أساس قوتهم ومصدر عزهم وسبب المكانة الرفيعة التى يتمتعون بها فى عصرنا .

فهم يؤمنون بروسيا وطنهم إيماناً لا يصدق : وأمة الروس كلها مستعدة للموت فى سبيل شبر واحد من أرضهم ، ومساحة روسيا الشاسعة محاطة فى كل جانب بالجيوش والأسلحة والحصون والجنود الذين يقفون وراء الحدود جادين كل الجد ، وفى أى ساعة من ساعات الليل والنهار مررت بحدود روسيا رأيت الجنود من ورائها على الأهبة ، وقد حدث من ثلاث سنوات أن طائرة من كوريا أخطأت واجتازت المجال الجوى الروسى ، فأسقطت فى الحال دون رحمة .

وقد رأيت فى لندن فيلماً تسجيلياً عن روسيا صوروا فيه الحدود وما وراءها

من الجيوش والجنود والأسلحـة ، وما يدلك على أن هؤلاء النـاس يأخذون الحياة بجد لا نعـرفه نحن . وهـم يحدثوننـا بأن الروس يعيشـون فى ضنك فى بلادهـم ، وهذا غير صحيح .

فكل الروس فخورون اليـوم بالقوة التى وصلت إليها بـلادهم ، وأنت ترى شبابهم فى ملاعب الرياضة يتهالكون فى الفوز بالمراتب الأولى فى كل لعبة ، وهـم يصلـون إلى الميداليـات الذهبيـة والفضيـة بصورة تسـتوقف النظر ، بينما العـالم العربى كلـه لا يفوز إلا بأشيـاء لا تذكـر ، وقد دعونـا فى روسيا إلى نـاد رياضى يتدرب فيه الشبـان ، فتعجبنا من الجدية والإخلاص والتفـانى ، وسألنا إن كان أولئك الشبان ــ ما بين بنين وبنات ـ يعفـون من شىء من مطالـب الـدراسة فى مقابل هـذه الجهود التى يبـذلونها فى التـدريبات الـرياضيـة ، فعلمنا أن أولئك الرياضيين يقـومون بدراستهم قيامـاً كاملاً لا يعفون من شـىء منها ، وأن الذى يدفعهم إلى هذا الاجتهاد هو حبهم لوطنهم الروسي .

والأمر الثاني الذى يـؤمنون به هو العلم : فإن المدارس والجامعـات والمعاهد الفنية والتكنولوجيـة فى روسيا تقوم بعملها على الوجــه الأكمل ، وهـم لا يدللون أولادهـم أو شبابهم على النحـو غير المقبول الذى نعمله نحن ، فنحن نفضل أولادنـا على أوطانـا ، أما هنـاك فإن الـوطن والعلم أفضل من الأولاد ، وليس عنـدهم سقوط ولا مـلاحق ، وإنما يفرغ الـولد من المدرسـة الابتدائيـة ، ويتجه بعـد ذلك إلى المرحلة الـوسطى ، التى تقابل الإعداديـة عندنـا ، وهناك يوضع تحت الاختبار ، فإذا استطاع أن يسير فى سنـوات المرحلة الوسطى كان بها وسمحوا لـه بدخول الثـانوية ، وإلا فـإنهم من تلقاء أنفسهم يحولونـه إلى معهد صناعى أو زراعى ، وبعضهـم ينقل إلى مراكز تـدريب فنية ، فيتـدرب على نوع من الأعمال والدراسات الفنية فى الزراعة أو الصناعة ، والمزارع هناك كلها متطورة تعمل بـالآلات ، والأولاد الـذين يعجـزون عن السير فى الـدراسـة الـوسطى أو

الإعدادية ، يتدربون على أعمال الزراعة والرى وتسيير الآلات الزراعية ، وذلك التوجيه لا يضايقهم فى شىء ، فإنهم هناك يريدون أن يعملوا فى الميدان المناسب لملكاتهم ، فهناك يشعرون بالراحة والاطمئنان ، ولا فرق عندهم بين عامل وطالب ، وكلهم يعرفون ذلك ويعملون على أساسه ، بل إن شباب المزارعين فى القرى والمزارع أحسن حالاً من طلاب المدارس ، والفروق الاجتماعية موجودة ولكن أهميتها قليلة ، والعمال فى المزارع يتدربون ويجدون الطعام بين أيديهم ، ثم إنهم لا يجدون صعوبات فى العثور على المساكن ، إنهم يعملون فى جد خالص ، ولا ينفقون وقتهم فيما لا يغنى ، إنهم يعرفون أن الشىء الوحيد الذى ينفع فى هذه الدنيا هو العمل النافع لهم ولغيرهم ، من هنا هم يشعرون أنهم أعزة ، وأنهم أقوياء .

والأمر الثالث الذى يؤمنون به هو العمل النافع لوطنهم :

إننى لم أضرب هذا المثل لأقول إنهم أحسن أو أكثر نجاحاً منا أو من غيرنا إن الذى أريد أن أقوله أنهم يعرفون كيف يعيشون ، وهذا هو الذى أطالب أولادنا به : أن يتعلموا كيف يعيشون بالعمل الشريف ، لأن الطريقة التى نعيش بها لا تغنى ولا تنفع ولا تعيننا على الوصول بالإسلام إلى المكان الذى يستحقه ، لقد أرسل الله إلينا محمداً ﷺ بالإسلام لكى نعز به ونغنى ونقوى ، فقد أودع الله فيه ـ كما رأيت ـ كل عناصر الخير اللازمة للإنسان ، وأجيالنا الأولى وصلت بالإسلام إلى أعز مكان وصل إليه قبلهم بشر ، فكيف هبطنا إلى الدرك السحيق الذى نحن فيه اليوم ؟

وصلنا إلى هذا الدرك لأننا أهملنا العمل الصالح ، والعمل الصالح يتضمن العبادات التى هى الخيط الممدود بيننا وبين الخالق سبحانه ، وتطبيق الشريعة ـ وهى قانون الله للبشر ـ والسعى للرزق الحلال أو التعامل فى المال

بالأخلاقيات الإسلامية . . لا ربا ولا استغلال ولا إسراف ولا تقتير ، وتقديم المال إلى الفقير المحتاج دون نظر إلى جزاء إلا من الله سبحانه ، وبعد ذلك كله علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نتعلم العمل معاً ، فإننا فرديون أنانيون لا يحب الواحد منا إلا نفسه ، ولا ينفق إلا على أهله ، ونحن لا نعيش فى بيوتنا عيشة فاضلة جماعية : الرجل يحب امرأته ويحترمها ويعاملها بالفضل والعدل والإنصاف ـ و الأب يربى أولاده على العزة والكرامة وحب العمل واحترام النفس والغير والتعاون مع الآخرين .

ولأننا فرديون أنانيون فقد استغلنا الأقوياء وسادونا وظلمونا ونهبونا ، ولأنهم نهبونا فقد افتقرنا وتعودنا الفقر وعشنا به وعليه ، ولم نعد نخجل منه ، ولا عيب فى أن يولد الإنسان فقيراً ، ولكن العيب فى أن يموتِ فقيراً دون أن يصيبه مرض ـ مثلاً ـ يقعد به عن العمل . والله خلق الدنيا للعاملين ، وبث فيها الخيرات للمجتهدين ، ومن عجب أن أهل الأديان الأخرى كلها عرفوا أن العمل الجيد المتقن هو طريق الخير والفلاح فى هذه الدنيا ، فدرسوا علوم الحياة التى أمرنا الله نحن المسلمين بدراستها فلم ندرسها ، وخاضوا معارك الحياة غير هيابين .

وانظر إلى الخريطة ترى أن المسلمين لا يسودون إلا جزءا ضئيلاً من هذه الأرض . لا نسبة إطلاقاً بينهم وبين الأنجلوسكسون ـ وهم الإنجليز والأمريكيون ـ أو الروس واليابانيين أو الألمان والفرنسيين ، وهذا والله عار ، لأن القرآن يقول إن العزة لله جميعاً ولرسوله وللمؤمنين ، فأين العزة أيها المسلمون ؟

إن الإنسان إذا قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دخل عالماً واسعاً من الحضارة والرقى ، لأن الإسلام يفتح الباب بينك وبين رب العزة ، ورب العزة بيده مفاتيح الرزق والخير ، فاذكر هذا ولا تنسه أبداً ، فإن الإسلام هو طريقك المنير للخير والكسب وسعادة الدارين ، واقرأ سيرة المصطفى ﷺ

تتأكد من ذلك .

لقد قلت فى هذه الدراسة الكثير من تفصيل الجوانب الحضارية للإسلام عقيدة وشريعة ومكارم أخلاق ، وفيما قلت كفاية لمن آمن وألقى السمع وهو شهيد ، ومن لم ينفع معه هذا القدر من الكلام لم ينفع معه أى كلام ، فإن أبا بكر الصديق أصبح واحداً من أعاظم بناة التاريخ بالإيمان والعلم والعمل ، وليس هذا بالعسير على أى مسلم يريد أن يسير فى طريق الخير ويصل إلى ما يشاء الله فى الخير ، والله سبحانه معك فى كل طريق خير ، فاختر لنفسك ما تريد .

***

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

رقـــم الإيـداع : ١٣١٠٦ / ٢٠٠٢

I. S. B. N. 977 - 01 - 7940 - X